

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00984 3743

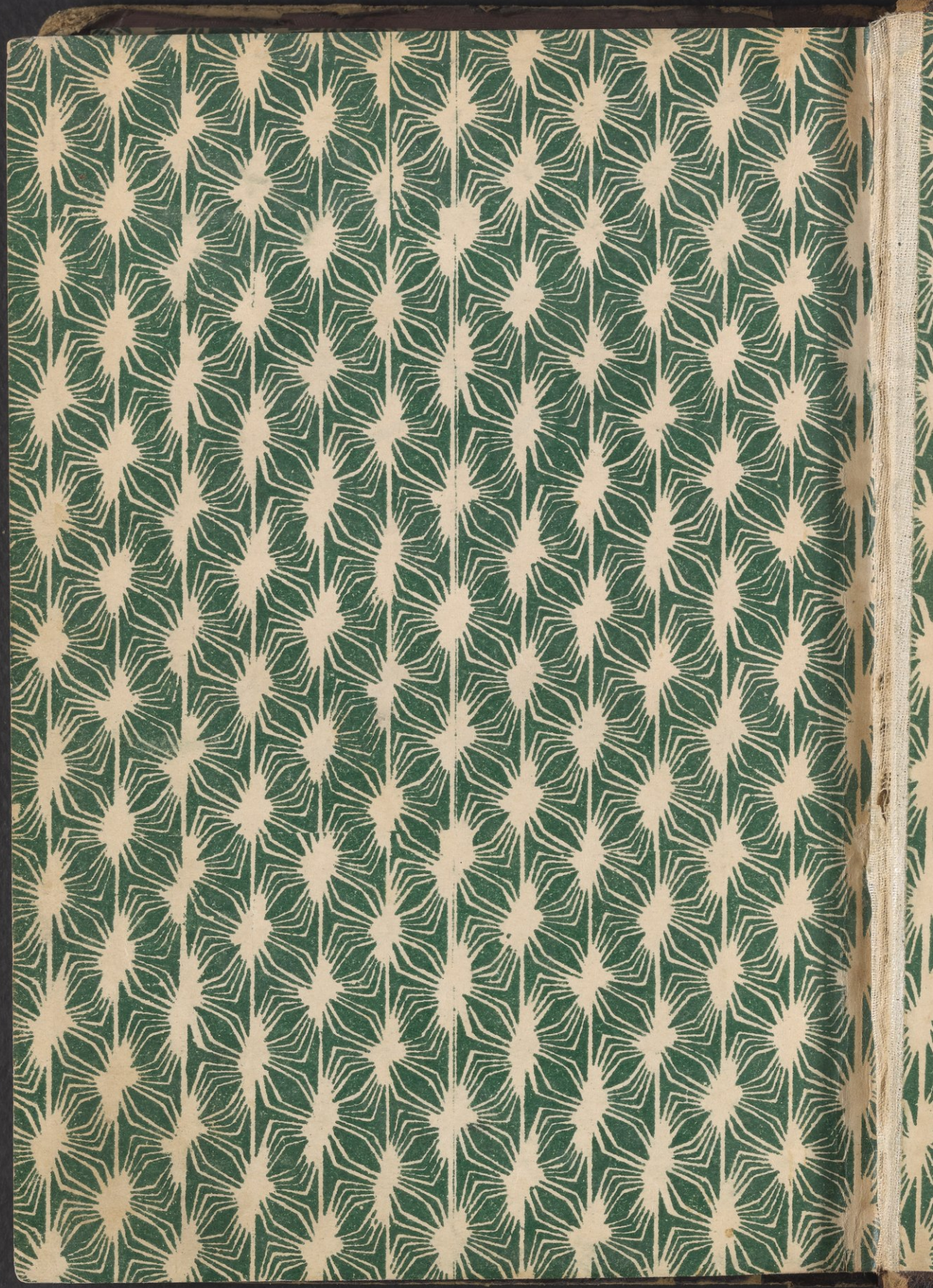
P 7
H 3

Lib

Library of
The American University
at Cairo



Gift of
League of Nations
for International Peace



99-54756

put ⁺ Sep 28th

86415

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

تفاحة الأدب

PJ

7515

H36

1933

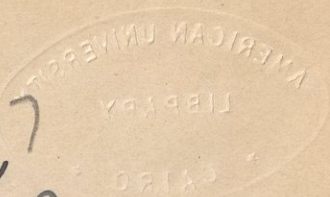
بقلم

الدينور محمد صبيح هبيل بك

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة السياسة رقم ٣٠ شارع المناخ

٨١٤, ٧
مكتبة



892.7
H125r

الاهل

الى الشباب

رجاء الغد : وأمل المستقبل

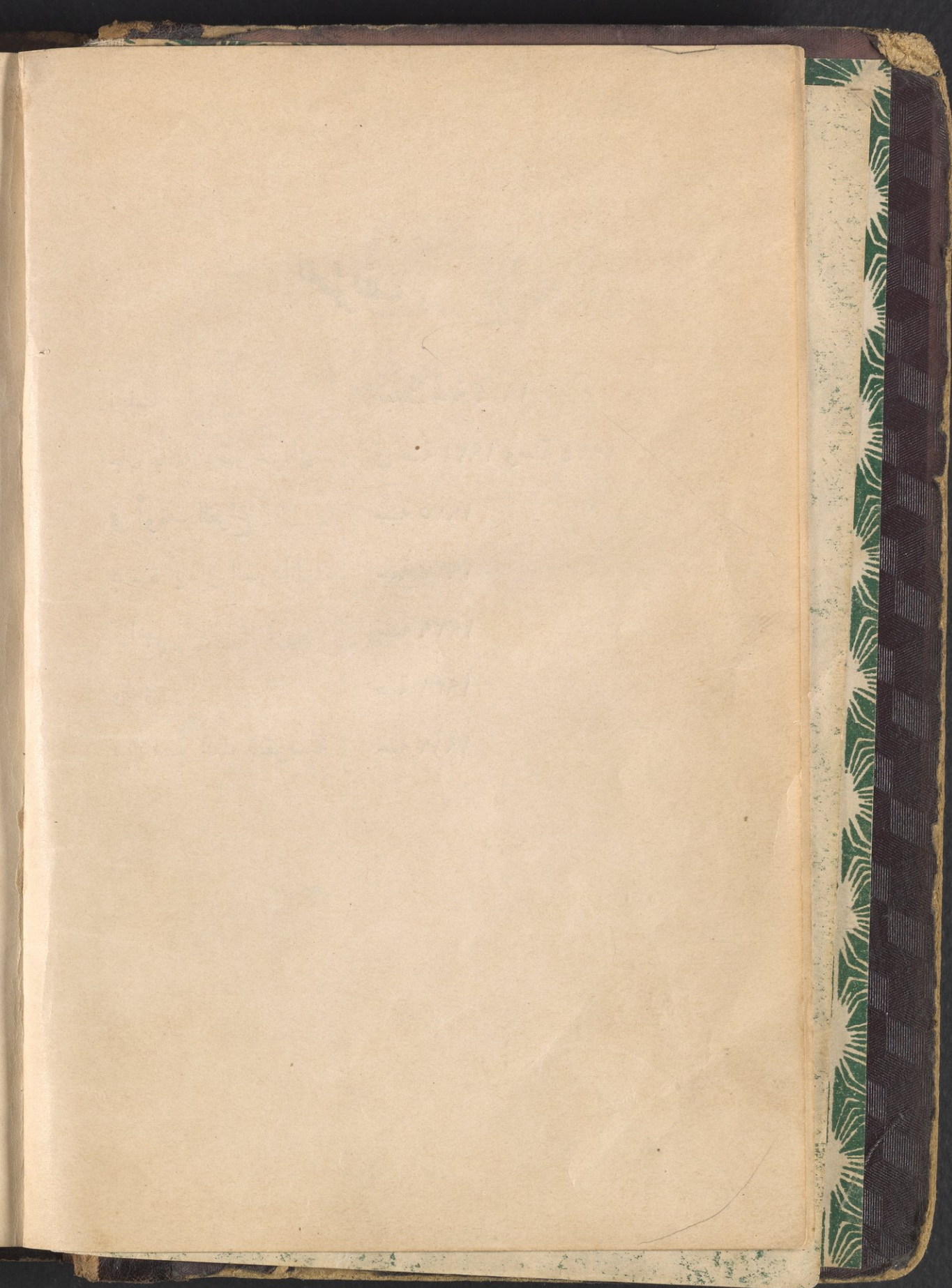
اهرى هذا الكتاب

هبط

17090

للمؤلف

طُبعت سنة ١٩١٤	زينب
في سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤	جان جاك روسو جزءان
سنة ١٩٢٥	في أوقات الفراغ
سنة ١٩٢٧	عشرة أيام في السودان
سنة ١٩٢٩	تراجم
سنة ١٩٣١	ولدى
سنة ١٩١٢	دين مصر العام بالفرنسية



قديم

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه الا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين . الأولى وحدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعاً . والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق ووحدة الفكرة ، وبعضها الف من أكثر من جزء من عدة فصول نشرت ، وهذه الاجزاء جميعاً تنسق من حيث الفكرة وتؤدي الى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب اذن جديد قديم . وأحسب طابع الجودة فيه أغلب لأن الفكرة التي دعت إلى نشره لم تكن بارزة في أى من الفصول التي سبقت الى نشرها بروزها فيه .

وقد اخترت له (ثورة الأدب) عنواناً بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه (نحو الأدب القومي) ، لأن فصوله الأولى جميعاً لا تتحدث عن الأدب القومي وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدتها نصف القرن الاخير في شؤون الكتابة والادب وتصف الجهود المتصلة الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الادب العربي الجديد . والواقع أن هذا الأدب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العراقية في مصر ، ومنذ بدأ هذا

الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض
بمجموع الامة الى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج
من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور نطاق
التعليم ، لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ولتصور لهم من نواحي
الحياة ما يريد السكاتب تصويره . وقد كان هذا العمل وما يزال شاقا .
فأية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان ؟
ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها لأن لكل إقليم من
الأقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الأقليم الذي يجاوره ، وتكاد تقطع
الصلة بينها وبين الأقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف
لغات الأقاليم التي تتكلم العربية يجعل محالا وضع قواعد تنظم هذه
اللغات المختلفة . ولغات الأقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام
ما يجعل بعثه موضع فخر ومجد . فلا بد إذن من أن تكون اللغة
العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور . لكن هذا
الجمهور لا يفهمك اذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون .
ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن الكريم . فكيف ترتفع
بالجمهور إلى حسن ادراك لغة القرآن ، وكيف تقرب اللغة العربية إلى
إدراك الجمهور ؟... من الاجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت
ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التي انقضت حتى يومنا الحاضر .
وفي خلال هذه السنوات الخمسين أخرجت الثورة صوراً من الأدب مختلفة
في النثر والشعر يدرسها بعض المستشرقين اليوم ، وهي جديرة بالاعتناء
والدرس من كل مشتغل بالأدب معنى بتساريح الكتابة العربية في
العصر الأخير

وكما أن الثورة العراقية لم تنته الى اليوم لأنها لم تحقق غايتها،
كذلك لم تنته ثورة الادب بعد الى غاية . وكما أدت الثورة العراقية
الى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالاً أثبت به الثورة السياسية
الى ناحية جديدة ، كذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الادب الى
ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الاولى من الثورة ، صورة لغة الكلام
ولغة الكتابة ، ولم تبق بعدها محلاً لبحت أو جدل ، ولم يبق قط
قائل باتخاذ لهجات الكلام أساساً للادب ، وحل محل ذلك ما سمي
انقديم والجديد في الادب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم
والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة
كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة
وتتناول الالفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة كما كانت
تس في رفق صور الأدب وما يصح أن تكون عليه . والى يومئذ
كانت الغلبة لأنصار تقليد الادب القديم وكان السجع والانحراب
في اختيار الالفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكل الادب الغربي
يومئذ جديراً بأن يسمى الادب الكبير في النثر والشعر . فقد كان الادب
القصصى قد بلغ قمة مجده وكان كبار اشعراء قد أقاموا في لون العصر
ما يقف الى جانب الالياذة والانيادة في الادب اليوناني ، والى جانب
شعر فرجيل من أدب الرومان . وكان كثيرون من شباننا الذين ذهبوا
يتمون دراساتهم في أوربا يومئذ سواء منهم من أوفدتهم الجامعة
ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم
العالية قد فتنوا أكبر فتنة بهذا الادب الغربي الكبير . فلما آن لهم

أن يعودوا وكانت الحرب الكبرى قد أعانت أو قد انتهت كان
هذا الادب الغربي الكبير في أوروبا قد آن له أن يستريح بسبب
انصراف النفوس في الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف الى أن
النفوس شعرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها كما شعرت في نفس
الوقت باستهتار بالحياة أدى بها الى التهلكة عليها . وما تريد بالانسانية
خارجة من أفطع مجزرة شهدتها التاريخ بعد أن ظلت خلالها أربع
سنوات تباعا ترى الالوف ومئات الالوف والملايين يحصدهم الموت
حصداً وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! أية قيمة للحكمة في
نظرها ولهذا القصد في الحياة نهل منها على مهل اذا كنا نجهل
كل الجهل ما سنصير اليه في غدنا، وهل سنظل في فتوتنا وقرتنا نستمتع
بالعيش ونعيمه أو أنا سنصبح لاشيء كما أصبح ملايين غيرنا ؟
اذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء، ولنترام بكننا في أحضان المسرات
ننال منها في أقصر وقت أكبر حظ مادمننا غير مؤقنين بأنا سنأخذ
حظنا منها كاملاً اذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا
الانسانية . . وكان من أثر هذه الحال النفسية على الادب أن اضطر
كثير من الكتاب لارضائها وامتاعها بما تريد الاستمتاع به من
شهوات صغيرة وليكنها مختلفة متفرقة لانها تقصد الى إرضاء شهوات
النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الادب هو الذي تهافتت
الجاهلير عليه لا قدرأ منها إياه ولا إعجاباً منها به، وليكن لانه يسد مطامعها
ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها اضرار بها
وليكنها تهافتت عليها لانها تسد حاجتها الى نسيان آلامها وهمومها
لتنمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، وليكنها على كل حال سعادة ربما لم

يتيح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذي يخبيء لها مالا تدري —
المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم في أوروبا قبيل الحرب أو أثناءها
أو في أعقابها ممتلئة صدورهم إعجابا بالأدب الكبير الذي قرأوا
والذي شهدوا على المسارح ، موجهة عقولهم توجيهاً جديداً على
الطرائق العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم
تر مصر مثلهما من زمن غير قليل إلا من أفراد قلائل موهوبين كان
لهم أثرهم في توجيه التفكير المصري وفي مقدمتهم ~~المرحوم~~ الشيخ
محمد عبده وقاسم أمين كما كان بينهم بعض أساتذتنا ممن لا يزال أثرهم
في هذه الناحية متصلاً . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا إلى الميدان
ونشاطهم أن البعوث إلى أوروبا لا تمام الدراسات العليا كانت قد
انقطعت زمناً غير قصير ولم تعد سيرتها الأولى إلا في سنة ١٩٠٧
بفضل الجامعة المصرية فضلاً تأثرتها فيه وزارة المعارف في السنة
التالية . أما ما قبل ذلك فقل من كان يسافر إلى أوروبا للقيام بدراسات
عليا متصلة ، والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات في فرنسا
وانكثرتا كان أكثرهم ممن لم يلق نجاحاً في مصر فلم يستطع متابعة
دراساته في مدارسها . فلما عادت البعوث سيرتها ووافدت الجامعة
من أوفدت واقتدت بها وزارة المعارف انتقلت العدوى إلى بعض
الأفراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم وعادوا بعد اتمامهم إياه
فنقلوا ميدان القديم والجديد في الأدب ووجهه وجهه أخرى غير
لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير أساليب
الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب

طالباً جديداً نقلها من مجرد المحاكاة الى بروز الذاتية . هذا الميدان الجديد الذي انتقلت المعركة اليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل في نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هي صور الأدب القومي الكبير . هي القصة والاقصوصة وهي الشعر الوجداني والشعر التمثيلي . وقد أعان ثورة الادب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في أثر الحرب الكبرى إذ بدأت في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . ألم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصوراً من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء ؟! فلتكن مظاهر الفن والادب مصبوبة عندئذ في قوالب غربية لتكون آية للناس جميعاً على تقدّمهم وعلى أنهم يسابقون الغرب الى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الادب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرها ولا هي كانت أقل لفتاً لنظر الغرب من الحركات السياسية التي دمجها الطابع القومي والتي امتدت الى بلاد الشرق جميعاً . ومهما تكن الحوادث قد غمرت زعماء ثورة الادب في ميادين السياسة فإن جهودهم ظلت تراقب وتحمل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تحمل وتراقب . ذلك بأن الادب واتجاهه في أية أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها وهو القوة التي لا تستطيع قوة أخرى كبحها واقتضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها اقوات المسلحة على الثورات السياسية . وانما يقضى على ثورة الادب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل الى أن مجهوداً كبيراً قد أنفق في هذا

السبيل كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الإصلاح الديني التي بدأها المرحوم الشيخ محمد عبده والتي كانت جديدة بأن تؤتي أعظم الثمرات . ومهما يكن من أمر هذه الجهود فإن ثورة التجديد في الادب قد ظفرت بالقديم وقد جرت الى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسمون المجددين مفاتحها . لكن ما أنفق من الجهود التي هيأت الفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : أيان نذهب وماذا اليه من جديدنا نقصد ؟

وقد كان طبعياً أن يقفوا هذه الوقفة وأن يطرحوا هذا السؤال . فالحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الادب والفن . ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الادب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عصورهما من صور الفن والأدب ، ثم جعلت أوربا تسنقل بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الاساس العلمي الذي وضعه ديكارت في انقرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الاساس يتطور من بعد ذلك الى دين الطبيعة والى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر ثم الى العلم الوضعي والفلسفة الواقعية والى دين الانسانية في القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محاربة وهدم في أحيان كثيرة . لكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع ، صلتها

بهذين العاملين الذين أنشأها. والادب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة. وتستطيع أن تقرأ في الادب الانكليزي او الفرنسي أو الالماني أو أيأ ما شئت من آداب الامم الأوربية وأنت أبداً واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحا. [فإذا عسانا نحن نصنع والى أى أدب والى أية فلسفة في الماضي القريب والماضى البعيد يجب أن ننسب إذا أردنا به أن يكون مظهراً لحضارة ما] وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسألة فلم يترددوا أكثرهم في الاجابة بأن ماضيهم هو الاب الطبيعي لحضارتهم ولا أدبهم. أما القلائل الذين قالوا بالاخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الاثر فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفاً زاده ضعفاً ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الادب الكبير. من هنا بدأت الصلة بين أنصار اقديم وأنصار الجديد فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة، وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها أنصار الحديث في بعث الادب الجاهلي وأدب عصور الاسلام المختلفة بعثاً علمياً دقيق التحقيق خطوة موفقة في سبيل إعادة الحياة الى حضارتنا الدفينة.

ولكن!... ماهى هذه الحضارة؟؟ عربية هى أم إسلامية؟! سؤال وجهه وكان المستشرقون أشد ما يكونون جذلاً بتوجيهه حتى لقد رأينا أخيراً طلاباً وطالبات غربيين يفدون الى مصر والى مختلف جهات الشرق العربى يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسألة، يتصلون بكل من يتوهمون فيهم انهم رجال الادب الحديث، ويلتمسون اليهم

ان يدلوهم على عقيدتهم العلمية في الامر. وأشعر بأنني في حل من القول بان
هذه الطلعة النورية متجهة الى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسية
تبرر الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمي وحده . وسواء صح
اعتقادي هذا أم لم يصح ، وسواء أ كان المقصود إثارة الخلاف
بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية ، أو كان
المقصود به أن لا تقرر الى الاسلام حضارة ما ، أو ان هذا
ولا ذاك لم يكن المقصود وإنما البحث التاريخي النزهي هو
المقصود ، سواء أ كان هذا أو ذاك فانا نعتقد أن أية حضارة
يجب ان تقوم أن تنصل حتما بعنصر من الايمان . وقد خيل الى العلماء
زمناً ما أن العلم سيفغذي النفوس بهذا الايمان ليقم دين الطبيعة
على نحو ما حاول روسو أن يقيمه ، أو دين الانسانية على ما وضعه
أوجست كومت . لكن ماتم من محاولات في هذه السبيل لم ينجح
في أن يقدم للجمهور الغربي ما يرضى طلعتة الى رجاء أو أمل في
الطائفة والسعادة . ومن ثم انقلب هذا المجهود الى الناحية المادية
والاقتصادية وجعل منها كل رجائه في الحياة فكان من ثمرة ذلك
ماتت انى الانسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا في اغراء الجمهور
بالثبث بهذا الامل وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة الى رخاء في
غذائها الفكرى والعاطفى حاجة الجسم الى شىء من النعيم في حياته
المادية . ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا
الغذاء النفسى في آديان الشرق وصور الايمان فيه . والادب كظهر
للحضارة لاغنى له عن تجلية جانب الايمان فى النفس كما يحلو جانب
العواطف المختلفة ، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف

Belief
material

Spiritual
material

أثره في الحياة . وجانب الايمان في بلاد الشرق العربي قوى أيا كان الدين الذي يدين هؤلاء الشرقيون به . وقد كان الاسلام وما زال دين أهل هذا الشرق العربي إلا الأقلين منهم ، فلا يمكن أن يؤدي الادب رسالته اذا أهمل هذا الجانب القوى من جانب حياة الشرق العربي ، وإذا لم يحاول أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله الصلة التي تستقيم والتفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الأدب والحضارة .

لم أغل إذن حين استقر رأيي على أن أتخذ « ثورة الأدب » عنواناً لهذا الكتاب . فالأدب في ثورة متصلة بالعمل منذ النصف القرن الأخير ، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة هي الأخرى في مسيرها وتعاني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تمنى زميلتها . لكنني لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويراً كاملاً . وأحسب دقة تصويرها ما دام اتصالها غير ممكن . وهو بعد ليس من عمل رجل مثلي لم ينقطع له وإنما ألم بما ألم به منه في أوقات فراغه . وقد تكونت الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة في مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك في عمل من الأعمال أن يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديرًا دقيقًا على نحو ما يفعل الشهيد المراقب وما دمت قد أشرت الى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازاة فلا مندوحة لي عن القول بأن عوامل السياسة التي حاولت صرف اختيار السياسي في نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة في شأن الادب والكتابة . ولقد أشرت

في هذا التقديم الى ما بذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة
الادبية وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها . وليس موضع
تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفي أن أذكر ما كان من سعي
متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة وما كان من محاولة قطع
كل نسب بين الحاضر والماضي ، ومن إظهار هذا الماضي في صورة
زرية غير جديرة بالاعتداد بها أو باستلهاها . وقد وصفت في
الفصل الذي يلي هذا التقديم صورة ما يصيب الادب في عصور
الطغيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوفيق أكثر مما
صحبها لو أن الحضارة الغربية بقي الايمان بها قويا كما كان ولو أن الادب
الكبير عاون على بقاء هذه القوة . لكن ما أصاب الادب الغربي
في أعقاب الحرب مما وصفنا مضافة اليه نهضة مصر والشرق نهضة
قوية جعل الجهود التي انققت لا تؤتي ما أريد منها من ثمرات وإن
جلبها تحول دون ثورة الادب والاستقرار الى ناحية تطمئن اليها .
وأكبر اعتقاي أن هذه الثورة ستظل متصلة زمناً طويلاً .
فنحن ما نزال من بد في بدايتها . وحسن توجيهها بحاجة الى جهود
شاقة جبارة والى جود الطبيعة بالموهريين الذين يستطيعون أن
يطبعوا الأدب بصورة تدعو الى استقراره . وهؤلاء الموهوبون
وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق
العربي كله إلا عدد قليل . وبذاء صرح الادب على العصور التي
تدور في نفوسنا ونرجو أن تراها اعيننا بحاجة الى كثيرين من
هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التي تعمل لتحول دون
نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة هي الأخرى . فرجاء استقرار

ثورة الأدب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو وإن كنا
نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن أختتم هذا التقديم وأخلي بين القارئ وفصول الكتاب .
ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تمله أو تدعوه
إلى التثاؤب . ولعله إذا استطاع أن يتم قراءتها يرى أنني لم أقم
بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها ثم نفذت الفكرة
وأظهرت الملاء على « ثورة الأدب »

الطفاة وعربية القلم

في عصور الظلمة التي تمر بالأمم آنا بعد أن يعمد الباطشون
البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة ، وفي سبيل هذا التقييد
يصلون أرباب الاقلام حربا لارحمة ولا هوادة فيها ، فمن إرهاب ،
إلى سجن ، إلى نفى وتشريد . وهم في حربهم هذه يندفعون ضد
الكتاب كاشرة أنيابهم محاربة عيونهم مفتحة خياشيمهم ، أشبه
الاشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل
غرائزها الوحشية ، ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم
خاطر إلا اذا اطمأنوا إلى أنهم حطموا هاته الاقلام الى غير عودة
لان تكتب ، وأذلوا نفوس حملتها إذلالا لا قومة لهم من بعده .

هذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم
وحملته ، لا تهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغما ما بلغ
أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر
بها صاحبها ما يجول بخاطرهم وما يمليه عليه خياله أو يتسق لمنطقه .
وكل ما يسطره القلم إنما يسطره على ورقة رقيقة يتناولها من الناس
من شاء فيتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها
الى حيث شاء . والامر كذلك سواء كانت هذه الورقة جريدة أو
مجلة أو كتابا من أي صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه

الورقة حولها من القوة التي يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذي يحشد ويسخر في سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشاق وما هو أكبر من ذلك من ألوان الارهاب والارهاق ؟ وهل ترى انتصر الظالمون يوماً على القلم وأربابه ؟ أم كان للقلم النصر أبداً آخر الامر وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكري وأتسبب الاثر ؟

× أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلمهم في ذلك كل العذر . حرية القلم هي المظهر الاسمي لحرية الانسان في أسنى صورها ومظاهرها . وحرية القلم انما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لاعامل من عماله . رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والانشاء مالا سبيل اليه إلا في جو من الحرية المطلقة وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاً ولو وضع هو في غيابات السجون ، بل تدفع ذكره خلق هذه الحرية اذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن ما نزال نرى ثمرات الاقلام منذ آلاف السنين الماضية هي التي تبرز العالم حتى اليوم هزاً وتنشئ فيه الى اليوم والى الابد ألوانا من الخلق جديدة . ذلك بان القلم هو الاداة لتصوير النفس الانسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الانسانية التي تلتهمس هذه النواحي المضيفة من حياة الكون هي أبداً نفس قوية لا تقف في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة تسببها ، نفس تلمق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذي تريد ايضاحه ، أو الحرية التي تريد نشرها ، أو الجمال الذي تعالج

تصويره ، أو الخير الذي تعمل لبشه وإذاعته . فاذا اهتدت الى ما ابتغت نقت منه على القلم ما يسطره على الورق ، وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كأن محجوباً عنهم ضياؤه ، ويرون أن هذا الضياء هو الذي يبعث لهم في الحياة نورا يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم ، وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فإن لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً .

هذه القوة التي تنبعث من القلم على صحف الورق تنقلها الى الانسان هي أقوى وأبقى ماعلى الحياة من سلطان . هي قوة الايمان القائم بالنفس القوية متى امتلأت ايمانا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هي هذه القوة الانسانية تصل بين الانسان وقوى الكون العليا وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكن القوى المادية المضطربة التي يستند اليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى تكون هذه القوة المادية وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل مافي الحديد والنار من بأس وهول الى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون الى أبده . هذه القوة الروحية الكبيرة التي يصدر القلم عنها وتوحى هي اليه هي مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شيء في الوجود . بل هي التي تشكل تلك القوة المادية التي تناوى الروح وسلطانها لكي لا يحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأي ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخير جميعا اذا تجردت مما يحول دون انبعاثها في العالم ولم يقف عائق في سبيلها فلم تبطى في سيرها !

وكما أن حرية القلم هي وحي هذه القوى العليا فإن الطغيان منشؤه أخس غرائز الانسان وأكثرها أنانية وانحطاطا . فتش عن الطغاة في التاريخ واستمع الى كل ما يتشددون به من الاقاويل والدعاوى وما يزعمونه من جهنم الخير لبني الانسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تجدهم دائما ينتهون الى هذه النتيجة : انما نطغى بني الانسان لانهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هي الكينة أبداً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره . وهي عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التي يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا . والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا . والطاغية يرى المزيد في انتشار العلم ضرراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم أو يضلوا . والطاغية يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتكلمون فإن هم خالفوا تعاليمه ضلوا . والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فإن لم يصادرها ضلوا . والطاغية يستمد الوحي في هذا كله من أحقر شهوات الانانية التي يفرضها على الناس ويريد منهم أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فإن لم يؤمنوا ولم يصدقوا حقت عليهم كلمة العذاب ولهم سوء الدار .

هذا الضلال الذي يزعم الطاغية أنه يريد انقاذ الانسانية منه وهو انما يريد فيها فيه لشهواته وأنانيته ، قد تنوء به الانسانية زمناً يجثم خلاله على صدرها الجهل والباطل والظلام فيمد للباغى في أسباب بغيه ، وهو ناشب في قلب الانسانية أظافره ما كثف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق هذا الظلام شعاع من نور الحق .

وللطغاة في تكشيف الظلام الذي ينشرون حولهم أساليب عجب . فهم
يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء اضدادها ليسخروا من الناس
وليزيدوهم ظلما . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم براء ،
وكل الغاية التي تكلف هاته الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج
الاباطيل ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر أو
ماشاء لهم خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة اسم الكتاب ، وما
هم بكتاب وإنما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه
جزافا لساداتهم وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف ساداتهم
منهم نزعة الى الحق والى الحرية . هؤلاء ليسوا كتابا وإنما هم
كالسكالب تبصبص بذنبها لمن يلقي اليها بطعام أو بعظمة من العظام
وتنبج من يطلقها عليه صاحبها لنبحه . وهؤلاء لن يكونوا كتابا
ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ، لان الكاتب
تصدر عباراته عن قلبه وعن ايمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم
عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة .

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتابا
يخلقون ماشاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء اضدادها ،
وكل غرضهم من ذلك أن يزيدوا الظلام الذي يعيشون ويكرهون
الناس على العيش فيه كثافة وصلابة . فاذا حاول أحد أن يسلط على هذا
الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعا من النور يبدد منه فله الويل وله
النكال وله عذاب السعير .

والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التي يخلقها الطاغية
ليعيش فيها أنك ترى كل ألوان التكريم والاعزاز في عهده تذهب

الى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء
والكتاب ومن اليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام
الجماعة في حياتهم أن تمتد كرامتهم الى ما بعد موتهم . أما هؤلاء
فآخر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . في ذلك اليوم
ينهل التراب على صقيقتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لذويهم من بعدهم
ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس لهذه الحجة
ما ينقض حرفا منها .

وإذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فان المنافقين والمتملقين
منهم ممن يظهرون في عصور الطغيان هم على الانسانية بلاء دائم
وشر مستطير ، يفسدون الآداب والاخلاق ويعلمون الناس الكذب
والنفاق وينزلون بأدب الكتابة الى أحط درجاته ، وهم مع ذلك
من الطاغية موضع إعزازه وان شاب الاعزاز احتقار ، ثم هم لن
ينزل بهم حيف او ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والادب واللغة أي
أذى . بل انك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الاكبار من
بطانة الطاغية لانهم يعتقدون في الزلنى اليهم والقربى منهم وسيلة
لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق .

على أن الظلم وإن تكاثرت والمظالم وإن اشتدت والطاغية وإن
استبد ، كل ذلك كان دائما من أثره أن أثار شرارة الحرية والحق
فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تتراكم السحب حتى تحجب
الشمس وتبعث على الارض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم اذا المطر
يستنفذ السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ماتلبث هذه
الظلم المتكاثرة في جو الطغيان أن تبعث الى نفس ملهمة كلمة الحق

ترتفع في صيحة قوية خالصة ، فاذا الظلم تضطرب قوائمه واذا
الطاغية يكثر وجهه واذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقا
على صاحب الصوت وعلى أنفسهم ، ثم اذا الصوت يعلو ويعلو ويرتفع
ويرتفع ، واذا القلوب التي وجلت من قبل رعباً وخشية تفتح لهذا
الصوت تستقبله فرحة مستبشرة ، ثم اذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة ،
ثم اذا النور نور الحرية والحق يعم الارضاء ، واذا الظلم والظالمون
والطاغيان والطغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحى
القيوم .

في العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من
جانب رب من أرباب القلم . ليكون نصير الحرية والحق خطيباً أو
كاتباً أو محدثاً ، وليكن عالماً أو أديباً أو داعية دينياً ، فهو يرسل
بصيحته الضياء الى النفوس المشتاقة الى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة
تنبعث حتى يتنبه الطغاة الى مصدرها ويقدرّون خطرها . وهم قد
يبدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كي يخمّد صوته ولا يمتد الى
ظلماتهم التي خلقوا ضياؤه . لكنهم لم يستطيعوا في حق التاريخ
جميعاً أن يخفّتوا هذا الصوت وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان
مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى
في روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والارهاب
التي كان ينشرها حكّام ذلك العصر ويعلى في الخافقين علم الحرية
وينشر لواء الحق . وكان الحكم في روسيا قائماً على الاستبداد
المطلق ، مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد الى تولستوى ولا اجترأت
على أن تغض منه ، لان ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى

من سلطان كل سلطان ، ولان الظلم الذي يحل بأرباب القلم ممن ينصرون
هذه المعاني يزيد بها في النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً .

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الامثال .
وأرباب الاقلام الذين اضطهدوا في عصور ماضية كان اضطهادهم
من أقوى الاسباب في ارتفاع كلمتهم وذبوع صوتهم ومحبتهم وحسن
استماع الناس لهم وشديد ايمانهم بآرائهم . وما تزال أسماء الذين
اضطهدوا والذين عذبوا في سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان
وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ، فإذا جاءت الى الازمان
أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة . ذلك بأن
الذين جاهدوا الخير الانسانية قد نسوا أنفسهم في الانسانية فأحلتهم
الانسانية مكان الكرامة والاعزاز من قلبها . فأما الطغاة والمستبدون
فلا يذكرون إلا أنفسهم ولا يفكرون إلا في أشخاصهم ويريدون
بالانسانية جميعاً أن تكون محبة إياهم لما تمليه أنانيتهم ، فان هي لم
تفعل أكرهت على ذلك إكراها واضطرت الى أن تخضع له ذليلة
صاغرة . وقد تصغر الانسانية أحياناً أمام انسان ينزل بها كما ينزل
الوباء أو كما يدمرها الزلزال . لكن هذا الوباء والزلازل عارض لا
بقاء له ، فأما الانسانية فباقية خالدة .

وهي في خلودها تتمثل خير تمثيل في رب القلم . لذلك تمقت
الطغاة هذا الذي يمثل الانسانية ويدعو لحريتها وخيرها ويفتح أمامها
باب الحق والجمال . ولذلك تكرم الانسانية هؤلاء الذين ينسون
أنفسهم في سبيل سعادتها وهدايتها ، وتنصرهم في حياتهم وبعد

موتهم على الانانيين الذين يحسبون أنفسهم فوق الانسانية وفوق الحياة ، فتزديدهم الانسانية وتلقظهم الحياة .

ولعل الادب في مختلف صوره خير مما تتجلى فيه مواهب أرباب القلم . حقاً إن الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين الحياة بحاجة الى رب قلم قدير يدفع تفكيره وتدفع ملاحظاته اليها قوة تكفل دوام تقدمها ، لدوام حياتها . لكن الادب بمعناه الواسع هو رحيق هذه جميعاً . هو رحيق الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين المعرفة الانسانية . والاديب الجدير حقاً باسم الاديب هو الذى يستصفي هذا الرحيق بسمو عبقريته وقوة نبوغه . هو الذى ينبت من حقول العلم والفلسفة وما اليهما زهور الادب والذى يستخلص من مناجم التشريع ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الانسانى الذى سارت وما تزال الانسانية ولن تزال تسير على هداية متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال . وهذا التوجه نحو السكمال هو الذى يرج قلوب العتاة والطفاة وهو الذى يجعلهم يحاربون حرية القلم ما استطاعوا . فهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية اذا لم تكن هذه الحرية . لكن حربهم لها كانت دائماً حافزاً يياها على القيام برسالتها العليا وإن لقي أصحابها فى سبيل إقرار هذه الرسالة ما لقوا من ظلم سائغ وعسف مستطاب . ولذلك كان النصر أبداً لرسالة الادب ، وكان الفوز الاخير دائماً لحرية القلم .

ثقافة الاديب

هل الادب العربي قديم وحديثه يكفي وحده لتكوين الاديب؟
هذا سؤال طرح وكان موضع بحث ومناظرة. ويجب قبل الجواب عليه
أن نطرح سؤالاً آخر وأن نجيب عليه. فما الادب ومن الاديب؟
واذا نحن وفقنا الى الاجابة على هذا السؤال واتق رأينا عليه لم يبق
خلاف ولا مناظرة محل

وعندى أن الادب فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما في
الحياة والوجود من حق وجميل بواسطة الكلام . والاديب هو
الذي يؤدي هذه الرسالة . فكل ما ينتجه فن الادب الصحيح في أية
لغة من اللغات لا غاية له غير هذه الغاية ، وكل أديب يكتب في أى
باب من الابواب إنما يريد بلوغها كلها أو بلوغ جانب منها . والادب
العربي لا يخرج عن أدب سائر اللغات في هذا التعريف .

ماهى وسائل عرفان ما في الحياة من حق وجميل ؟ ما نحسب
هذا محلاً لاثارة أى خلاف . فوسائل هذا العرفان العلم والفلسفة .
العلم هو الوسيلة الاولى والاساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها .
والفلسفة هى الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك
الحياة والوجود وما فيهما من حق وجميل . كذلك كانت الفلسفة
وكان العلم فى كل العصور . وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند
العرب ، كما هى عند سائر الامم .

الادب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة وكالثمرة الناضجة
وكالخضرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة ، ومن الجذور
التي نبتت عليها هذه الشجرة والتي هي بمثابة العلم من الفلسفة .
فلكى تكون حديقة الادب جميلة ، ولكى يكشف الاديب للناس
عما فى الحياة من حق وجميل وليؤدى الرسالة العظيمة الملقاة على
أدباء العصور جميعاً ، يجب أن يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة
ومن ورد العلم . وهو كما كان أكثر غذاء من هذين الوردتين كان
أقدر على أداء الرسالة وكان أديباً حقاً .

ولهذا كان العرب يقولون : ان الادب هو الاخذ من كل شىء
بطرف . وكانوا إذ يذكرون العلوم الواجب على الاديب الوقوف
عليها لا يقتصرون على ذكر علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة
والفصاحة ، بل كانوا يضيفون اليها علوماً كثيرة من سيرة العرب
وأخبارهم ، أى من التاريخ ، ومن مواقع بلاد العرب أى من
الجغرافيا ، وهلم جرا .

فن هذه غايته وذلك مداه يتسع لصور لا تتسع لها الفلسفة ولا
يتسع لها العلم بمعناه الضيق . ففي الحياة وفي الوجود من صور الحق
وألوان الجمال الشئ الكثير . وقل أن تيسر الاجيال للانسانية
الرسول القوى الصادق الذى يستطيع خلال السنوات القصيرة التى
يجبى الانسان ، وإن امتد به العمر ، أن يبلغ لهذه الانسانية رسالة
الحق والجمال كاملة . لذلك كان الادباء الخلقون حقاً بهذا الاسم هم
المهمون الذحول الذين يطبع اسم كل منهم عصراً فى تاريخ الانسانية
ويبقى فلذة خالدة برغم موت صاحبها من هذا التراث العظيم الذى تتوارثه

الانسانية جيلا بعد جيل . هؤلاء الادباء انما يبلغون الانسانية رحيق الفلسفة والعلم جميعا على نحو ما تمثلت نفوسهم الفلسفة والعلم . وكلما انحدرت بعد ذلك لتطلع على ما خلف الادباء العظام ، فالادباء الكبار ، فالادباء ، فالمتأدبون ، رأيت ضياء الحق والجمال ينجمو رويداً رويداً حتى يصل الى الاديب أو المتأدب الزائف الذي لا حياة ولا نور فيما يكتب ، إذ ليس فيما يكتب حق ولا جميل ، وانما هي ألفاظ مرصوفة لا يقصد بها الى معنى خاص شأنها شأن تلك البذلة التي توضع في فترينة التاجر على مثال خشبي سوى وجهه بالالوان - لا يقصد بهذه البذلة الى الاستعانة على الحياة ولكن يقصد منها الى عرضها بضاعة في انتظار أن يتناولها من يستطيع أن يستعين بها على الحياة ، وأن يبعث اليها شيئاً من هذه الحياة .

كتب فيلشته الفيلسوف الالماني المعروف عن طبيعة الكاتب ورسالته فقال : انه انما بعث ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة يرى هذه الحقيقة بنفسه ثم ليرينا إياها « وفي كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا في لهجة من لهجات الكلام جديدة ، ورسالة الكاتب هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يبعث فيه » . ويشد فيلشته حين يقصد الى التمييز بين الكاتب الاصيل ، أو الكاتب البطل ، كما يسميه كارليل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الابطال . « فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع ما طاب له المتاع بنعيم الدنيا ، لكنه لن يكون لذلك كاتباً وانما هو افك مزور لا قدر ولا مقام له »
والحقيقة التي يذكرها فيلشته ، والحق والجمال اللذين نراها غاية

الادب كفن جميل ، ينكشف للناس من صورهما في كل جيل مالم يكن معروفاً في الجيل الذي سبقه ، أو ما يختلف عما كان معروفاً في الجيل الذي سبقه . وعلى ذلك كان الخلاف في صور أدب الاجيال المختلفة في اللغة الواحدة ، وصور أدب الجيل الواحد في اللغات المختلفة ، ولذلك لا مفر لمن يريد أن يكون أدبياً حقاً ، أدبياً أصيلاً غير زائف ، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفاً صحيحاً ، وأن يحيط ما استطاع بعلوم عصره وفلسفته وآدابه في اللغات المختلفة . وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى الى بلوغ ما في الحياة والوجود من حق وجميل ، والى تبليغه للناس في صورة أقرب للكمال ممن أوتي مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه .

هذه كلها أوليات ما أحسب لخلاف فيها محلاً . وهي تنطبق على الادب العربي في عصوره المختلفة وتدل على أن أدب أية لغة من اللغات قديمه وحديثه لا يكفي وحده لثقافة الاديب ، وعلى أن ذلك أصدق في عصرنا الحاضر الذي قربت فيه المواصلات بين أمم الارض منه في العصور السابقة ، وانه أصدق بالتطبيق على الادب العربي قديمه وحديثه منه على آداب الامم التي لم يصبها ما أصاب الامم العربية من تحكم فيها واستبداد بها أوفقاً سير العلم والفلسفة العربية سيراً كان يجعلنا من علم الامم الاخرى وفلسفتها في موقف تعاون وتنافس ، لا في موقف تعلم ومحاكاة .

والآن فلنطبق هذه الاوليات على الادب العربي نفسه في مختلف عصوره : -

فهل كان الادب العربي في عصوره الاولى مستقلاً عن الآداب

المجاورة له والمتنافسة معه ، وأجلها خطراً أدب الفرس والرومان واليونان ؟

يضيق المقام اذا أردنا أن نستقصى ما أفاد العرب ، وبخاصة منذ ظهور الاسلام ، من علوم وآداب كانت للبلاد التي اقتحموها فاعتنق أهلها الاسلام . لكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أنهم في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية أيام الامويين والعباسيين كانوا مجددين أعظم الجد في نقل علوم الفرس واليونان والرومان وآدابهم من تلك اللغات الى اللغة العربية ، وان أكبر الكتاب كبن المقفع والجاحظ كانوا متأثرين بهذه الآداب تأثراً ظاهراً ، وكانوا يعرفون هذه اللغات ، أو بعضها ، معرفة صحيحة . بل إن ابن المقفع نفسه كان فارسياً ككثير من فحول الادب العربي أمثال الهمداني والزمخشري . والجاحظ مشكوك في عربيته وإن تك معرفته للفارسية ليست محل ريبة لما جاء عنها في كتابه البيان والتبيين . وكثير من كتب الفلسفة اليونانية نقل في عصر العباسيين الى اللغة العربية وتأثر علماء العرب وأدباؤهم وكتابتهم بهذه الفلسفة تأثراً واضحاً . ولو أنك رجعت الى المذاهب المختلفة في التصوف والاعتزال وغيرها لرأيت كثيراً منها يرجع الى مذاهب كانت معروفة من قبل في الفرس ، والى مذاهب كانت معروفة من قبل في اليونان . وكان من أثر هذا النقل للكتب أن حدثت في الادب العربي ، شعراً ونثراً ، صور لم تكن معروفة من قبل وأن اتسع أفق هذا الادب العربي سعة لاعتدال المتقدمين بها . بل لقد تناول التطور ، الذي نشأ عن اختلاط العرب بهذه الامم وبأمم شمال أفريقيا وبالاندلس وصقلية ، أساليب النثر والشعر

فاستحدثت الموشحات الاندلسية واستحدثت في النثر شيء كثير
وزادت بذلك ثروة اللغة العربية في ألفاظها وفي علومها وفي فلسفتها
وفي أدبها زيادة هي في تاريخ هذه اللغة فخر تفاخر نحن به حتى
اليوم .

حدث بعد هذه النهضة الكبرى أن تغلب الترك على غيرهم من
الامم الاسلامية وأن تقلص ظل الحضارة الاسلامية عن الاندلس ،
وان استقل الفرس ، وأن خمدت هذه الجذوة المقدسة من ضياء
الحق والجمال مما كان ينير آفاق العالم الاسلامي في شؤون اللغة العربية .
وفي هذه القرون الخمسة الاخيرة وقف اتصال اللغة العربية والعلوم
والفلسفة والآداب العربية بغيرها من اللغات ، لأن حياة الامم
العربية وخضوعها للترك قضى بوقوف هذا الاتصال . وفي هذه
القرون الخمسة الاخيرة كانت نهضة الغرب في العلم والفلسفة والآداب ،
وكان أن استحدث الغربيون من ذلك الشيء الكثير وأدخلوا على
آدابهم من ألوانه ما لم يتطعم أهل هذه الامم العربية الخاضعة للنير التركي الى
الاتصال به . فتدهور التفكير العربي وصار الادب العربي القديم هو
وحده الاثر الخالد لهذه الحضارة الاسلامية العظيمة التي سار العالم في
ضوءها وعلى هداها عدة قرون . ولولا ما في اللغة العربية لذاتها من قوة
قدسها القرآن الكريم وزادها جلالاً وإعجازاً ، ولولا ما كدست الحضارة
الاسلامية من ثروة لم تنفذ ولا سبيل الى نقادها ، إذن لرأيت اللغة العربية
وقد أصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والاشورية
والهيريوغليفية ولا أصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم
وحياته ، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الانساني وكفى .

لكن قوة اللغة العربية وثروة أدبها التي تكونت منذ الاسلام
وعظمة الحضارة الاسلامية قاومت أحداث الدهر ودفعت عن اللغة
هذا المصاب حتى دار التاريخ دورته وأن للغة العربية أن تهض نهضتها
من جديد. وكان طبعياً أن تبدأ النهضة بنشر اللغة واحياء آدابها
القديمة وتعليم الناس أصول التعبير بها ليتمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها
قوية ، وأن يكون فن الأدب العربي بحيث يحيط بالحياة والوجود
وما فيهما من حق وجمال، وحتى تبعث الاقدار الأديب العربي الذي
يؤدى لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الادب . ويرجع الفضل
في هذه الخطوة الاولى لشيوخ الازهر بمعونة من أرسلهم المغفور له محمد
على باشا الى أوروبا للاتصال بموارد العلم فيها، ولرجال مدرسة دارالعلوم
التي أنشأها على باشا مبارك منذ أكثر من نصف قرن للقيام ببعث اللغة
العربية بعثاً جديداً . على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون
بها يشعرون بالحاجة الى انتشار فنون آدابها حتى رأوا الى جانب الفنون
القديمة فنوناً في الادب جديدة، أحدثها بعث الغرب في القرون الثلاثة
الاخيرة، لم تكن معروفة عند العرب ولا غير العرب من قبل، ورأوا ان هذه
الفنون الجديدة من الأدب تستند الى فلسفة جديدة في تصويرها هي
الأخرى ، والى علوم اتسعت دائرتها وعظم نطاقها، وأن لا بد إذن
من الاتصال بالعلم والفلسفة في آخر صورها ليكون الأدب العربي
مؤديا الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات، غاية تبليغ الانسانية
ما في الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذي تعيش
الانسانية فيه .

وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين من الازهر وعند رجال دار

العلوم بقوة لا تقل عما تجلت به عند غير هؤلاء من المشتغلين بالأدب العربي والمتصلين في نفس الوقت بأدب اللغات الأخرى. وظهر ذلك في حرص الأولين ، وهم ذوو الفضل في الخطوة الأولى من خطي بعث اللغة والآداب العربية القديمة ، على الوقوف على اللغات الأوروبية وتعلمها ، وفي حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغات الغربية وآدابها إلى اللغة العربية في صورة عربية صحيحة . وأما من الأمثال على ذلك كثير . فأساتذة كلية الآداب في الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية كلهم جميعاً من ناشئة الأزهر أو دارالعلوم أو القضاء الشرعي ، وكلهم جميعاً قد شعروا بالحاجة ، بعد اتقانهم اللغة العربية ، إلى دراسة لغات أخرى ودراسة آداب أخرى سواء منها ما ترجم إلى العربية ، وما استطاعوا استيعابه بلغة غيرها . وهؤلاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الأساتذة : أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام هم جميعاً من أبناء هذه المدرسة — الأزهر — وهم اليوم جميعاً من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ليكونوا لا أنفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال .

مثل آخر أضربه هم هؤلاء المشايخ الذين بدأوا يكتبون في الأدب الحديث مكثفين بمطالعاتهم في الآداب العربية ، ثم إذا بهم لم يجدوا منصرفاً عن دفع أنفسهم إليهم لورد آداب اللغات الأخرى . فالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطي بدأ يكتب النظرات والعبرات متأثراً إلى حد ما بما ترجم من القصص الغربي وإن جاهد ليظل في كنف

الأدب العربي القديم . لكنه مافتي أن اندفع الى الاستعانة بالأدب
العربي فاستعان بمن يعرف هذا الأدب ويدله على مافيه من صور
الجمال ، ثم اذا به ينشر على الناس كتبه ماجدولين وفي سبيل التاج
وغيرهما . والاستاذ الزيات وغير الاستاذ الزيات من الكتاب الذين
نهلوا أول حياتهم ورد الأدب العربي القديم خالصاً سائفاً لم يستطيعوا
الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من صور الأدب
ولم يجدوا الوسيلة الى ذلك الا عن طريق الأدب العربي وما استصفي من
العلم والفلسفة المتحكين في عصرنا الحاضر .

وهذا طبيعي بعد الذي كان من تقدم العلم وتطور المذاهب
الفلسفية، وبعده انتهى كان من إبداع صور الأدب الجديدة في الغرب .
ويطول المقام اذا أردنا تتبع هذه التطورات العلمية والفلسفية
والادبية في القرن الأخير، بله في القرون الثلاثة التي سبقتة . ومن
هذه الصور ما لم يكن له وجود قط في الآداب العربية، ومنها ما كان
له وجود تافه لا غناء لنا اليوم فيه . ونكتفي بالإشارة من صور
الأدب هذه الى القصص والروايات المسرحية . فهذان النوعان لم
يكونا معروفين بصورتهم الحاضرة عند العرب ، مع انهما اليوم
يتناولان من بسط حقائق العلوم والمذاهب الفلسفية ما يجعلهما في متناول
القراء جميعاً، ويجعلها كذلك في صورة فنية بالغة غاية الجمال . فهل
يتسنى لنا اذا نحن اكتفين بالأدب العربي القديم، أن نبذع في هذه
الانواع مثلاً أبدع الغرب فنقرب بذلك العلم والفلسفة وما يحويان من
حق وجمال الى نفوس قراء العربية فنؤدى الرسالة الملقاة على عاتق
كل كاتب جدير بهذا الاسم ؟

ولست القصص الطويلة والروايات المسرحية هي وحدها ما أبدع
مما لم يكن العرب الاقدمون يقدرونه ، بل لقد أبدعت آداب اقتصادية ٢٧
كالا داب الاشتراكية والشيوعية وكا داب المذهب الحر والمذهب
الفردى لا سبيل الى بسط شئ منها لقرائنا إلا اذا وقفنا على ما كتب
باللغات الغربية عن المذاهب الاقتصادية من جهة وعلى آدابها من
الجهة الاخرى . وأبدعت كذلك آداب علوم النفس والاجتماع وآداب
الفنون الجميلة وغيرها مما لا نجد له مكانة في الآداب العربية القديمة
ومما لا بد لنا ، اذا أردنا أن نقف الى جانب الامم الاخرى فيه ، من
الاطلاع على آداب الغرب وفلسفته وعلومه إطلاعا واسعا النطاق .
وما نحسب أحداً لا يشعر بالحاجة الى هذا الاطلاع كما شعر أولئك
الاساتذة الذين أشرنا اليهم وكما شعر غيرهم . فاذا اطلع انسان استطاع
أن يؤدي رسالة الادب على وجه صحيح ، وكان لذلك أدبياً أصيلاً .
أما الذين يقفون عند الاطلاع على الادب العربي فلن يستطيعوا مجاراة
هذا العصر مجاراة تمكنهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على
عاتق الاديب ، وسيظل أدبهم أدب الفاظ لا تحمل في طياتها سناء
المعاني السامية ولا ضياء الحق و بهجة الجمال ، وسيظلون أطفالاً في
الادب ، ربما يعجب البعض زخرف قولهم ، لكن هذا الزخرف لن
يعدو جماله أن يكون كجمال الدمية لا حياة فيها وإن أتقن صانعها
رسم تقاطيعها .

وهذه الحاجة الى الاطلاع حاجة يشعر بها كل محب للحقيقة ليس
معناها الانصراف عن الادب العربي قديمه وحديثه . فنحن بحاجة الى
التضلع في هذا الأدب لأنه هو الأساس الذي نبني عليه ونريد أن

نبلغ به الكمال. ولا سبيل الى هذا الكمال إلا أن تفعل ما يفعله غيرنا من أهل الأمم السابقة اليوم في الحضارة. فانك ترى قاموس اللغة الفرنسية أو الانكليزية أو الايطالية أو غير هذه من اللغات يعاد النظر فيه كل عقد من السنين لتحرى معانى الكلمات، وهل اتصل بها جديد من المخترعات أو المكتشفات أو الآداب الحديثة، وللنظر في إضافة كلمات جديدة. وكثيرون يعرفون كم دخل في اللغة وفي الادب الفرنسيين من الالفاظ والعبارات الانكليزية في هذا الزمن الاخير. فكلمة جنتمان وسبورت وغيرها قد أضيفت أخيراً الى القاموس الفرنسي كما أضيف في العصور القديمة الى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية كالورد والسلسيل وغيرها. وما دام هذا في طبيعة اللغات وآدابها فلا معدي لنا عن أن نأخذ به ونأخذ حذوه اذا أردنا باللغة ازدياداً في القوة وبالادب تحقيقاً صحيحاً لرسالة الادب.

قد يقال ان الادب العربي الحديث يكفي لسد هذا النقص الذي أشرت اليه بما استحدث من صور الادب الغربي التي أبدعت في العصور الاخيرة. وكم كنت أود أن يكون هذا صحيحاً. فهو لو صح لكان سبباً لفخر كثيرين من اصدقائي الذين أعزهم. ولكني واصدقائي هؤلاء نشعر بأن في ذلك غروراً لا يليق بالاديب. فما استحدث في الادب العربي ليس إلا محاولات لسد بعض الفراغ في تلك الهوة التي تفصل عصرنا عن عصور أدب العرب الزاهر. وهي محاولات شعر اصدقائي وشعرت بنقصها منذ زمان طويل. فاني لا أذكر أن مطالعائي العربية التي تناولت من كتب الادب العربي القديم الشيء الكثير قد

أقنعتني منذ عشرين سنة ماضية ، وكنت ما أزال طالبا بالحقوق ، بأن
أدب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالإنسان إلى أكثر من طفولة الأدب
في هذا العصر الذي نعيش فيه ، فأكبت يومئذ على دراسات في الكتب
الانكليزية فتحت أمامي آفاقا جديدة غير مأمهدة له دراساتي .
فلما سافرت إلى فرنسا بعد نيل اجازة الليسانس ودرست الفرنسية
أكبت على آدابها في نواحيها المختلفة ، فاذا آفاق جديدة تتفتح واذا
بي أطل على صور من الحق والجمال لم أكن أتوهمها من قبل . وكيف
يمكن أن يكتب الإنسان عن الفنون الجميلة كالخفر والموسيقى والرسم
وقد عفت آثار الموسيقى العربية وقد كان العرب ينكرون صناعة التماثيل
وينكرون التصوير والرسم ! فاذا هو قرأ عن الفنون الجميلة شيئا من ألوف
الكتب التي ألقت فيها استطاع أن يفهم من جمال الحياة ما لم يكن له إلى
إدراكه سبيل من قبل . وكذلك الأمر في غير الفنون الجميلة من العلوم
والفلسفة الحديثة جميعا .

والى أن تنقل هذه العلوم وهذه الفلسفة إلى اللغة العربية ، وإلى أن
تكون لنا مذاهب في العلم والفلسفة والأدب تقف إلى جانب مذاهب
الغرب ، إلى ذلك اليوم لا يمكن أن تكفي الآداب العربية ، قديمها وحديثها
لثقافة الأديب . أما في ذلك اليوم فسيشعر أدباء العربية أنفسهم ، بدافع
المنافسة وحب السبق في الوصول إلى الحق والجمال ، انهم لا يقولون عنا اليوم
حاجة إلى الاطلاع على كل ما يظهر في عالم العلم والفلسفة والأدب
من جديد .

وستزداد هذه الحاجة كلما يسرت المواصلات اتصال أمم العالم .
فلئن أمكن أن يتوهم الإنسان مجرد توهم إمكان استقلال جنس من الأحياء ،

سواء أكان هذا الحى أمة أم فرداً، عن غيره من الأحياء فى شؤونه المادية
أو العقلية أو النفسية، فإن مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل لكثرة الاتصال
بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر، وهو سيزداد كل يوم إمعاناً فى
الاستحالة. وسيرى الأدباء يومئذ أن الشاعر أو الكاتب الذى يريد
أن يخطو بالأدب العربى إلى مراتب الكمال الفنى مضطراً لبدء إلى الاطلاع
على أكثر مما اطلع عليه أدباء جيلنا الحاضر جميعاً إذا هو كان
جديراً حقاً باسم الكاتب أو الشاعر حريصاً حقاً على أداء رسالة الأدب
السامية بالكشف للناس من طريق اللغة عما فى الحياة من حق وجمال
وبالتمهيد بذلك لبلوغ درجات الكمال.

اللغة والأدب

حضرت يوماً مجلساً ضم جماعة من كبراء مصر بينهم فحول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين في اللغة. وفيما ينتقل الحديث من موضوع لموضوع سأل أحد الحاضرين شيخاً لغوياً: أي الشعرين يفضل: الشعر القديم الذي اتخذ عنواناً له «قفا نبك»، أم الشعر الحديث وعنوانه «حف كأسها الحب»؟ فكان جواب الشيخ على الفور: إني لأفضل الشعر الحديث فهو أعذب مدخلا إلى النفس، فأما الشعر القديم فحاجتنا إليه للغة أكثر من حاجتنا إليه للأدب.

وأثار هذا الحديث جدلاً هادئاً لم يطل أمده ولا يستوقف منه النظر شيء خاص في البحث الذي أريد أن أعرض الآن له. وإنما استوقفت نظري هذه التفرقة الجميلة الدقيقة بين اللغة والأدب. فنحن بحاجة للوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام، وعلى كل أدب سبق عصرنا، لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور ولنجد في هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها وصور تطورها ما لا غنى لنا عنه إذا أردنا أن نظل اللغة حين تنقلها على الأجيال قوية رصينة بعيدة عن أن يندس إليها عامل من عوامل الاضطراب والضعف. فأما الأدب من حيث هو رحيق الحياة العقلية

والفنية وما تنطوى عليه من مختلف الصور والالوان، فتابع في تطوره
الى العصر الذى يعيش فيه غير مضطراً أن يتصل بالتقديم النأى عنه بأكثر
من صلة الوراثة ومن صلة اللغة . واللغة فى الأدب ليست إلا الكساء
الظاهر لهذا الرحيق الذى يعبر الألب عنه . فأما قوام الأدب فى الروح
الذى يلهم مافيه من معان وصور وعواطف واحساس . لهذا تراك
اذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صوراً مختلفة من الأدب لم يكن
اللفظ هو الذى يقفك عنده ، بل كان ما يدل هذا اللفظ عليه وما
يعبر عنه . واذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة فى الأدب من حيث
موسيقاه وما تبرز هذه الموسيقى النفس وما تعد العواطف لاجتلاء
المعاني التى ينطوى عليها ، فلن يسمو هذا اللفظ بالغاً ما بلغ رنينه
ورصائته بمعنى غير سام وإن أمكن أن ينزل اللفظ المبتذل والناشر
الرنين بالمعنى السامى أو الصورة الجميلة ، أو يترك على الأقل من سوء
الأثر فى النفس ما يجعلها تأسى وتأسف أن لا يكسو المعنى الجميل
لفظ جميل .

أنت إذن بحاجة الى اتقان دراسة اللغة وتاريخها فى المعاجم
وفى كتب الأدب اذا أردت أن تكون لغوياً وكفى ، كما أنك بحاجة
الى هذه الدراسة اذا كنت ممن وهبوا هبة الأدب . فكلما زادت
ثروتك من الألفاظ ومن أساليب استعمالها وما يمكن أن تعبر عنه
من مختلف المعانى لذاتها أو مضافة الى ألفاظ غيرها ، ازدادت أنت
قدرة على اختيار اللفظ الذى يصلح للتعبير عن قصدك تعبيراً دقيقاً
وموسيقياً معاً . وهذا هو الذى يدعو فى الأمم الغربية المستمدة
لغاتها من اللاتينية واليونانية الى تدريس هاتين اللغتين للنشء .

فليس جمال هذه اللغات القديمة الميته هو الذي يقصد لذاته أولاً وبالذات . كلا ! وإنما يقصد من دراستها الى دقة إدراك المعاني التي تعبر عنها الالفاظ المشتقة منها . ومهما تكن آداب اليونان والرومان قد أمدت البعث الأدبي في أوربا أبان القرن السادس عشر بصورها وموضوعاتها ، فإما كان ذلك لتحكم الآداب الدينية في العصور التي سبقت عصر البعث ذاك واحتياج الناس فيه الى وحي جديد . ولم يكن يومئذ خير من هذه الآداب القديمة مهبطاً للوحي ومحلاً لالهام شكسبير وراسين ودانت وغيرهم من الذين قام هذا البعث بسبب نبوغهم . لكن هذه التابعة أو هذا الرق للآداب القديم لم يدم طويلاً . وفي القرن السابع عشر نفسه قام كتاب وشعراء أمثال مولير ولا بروير نزعوا غير نزعة العصر وأنشأوا أدباً مستقلاً عن أدب اليونان والرومان ، وأن حذقوا اللغتين اللاتينية واليونانية خير حذق ، ليحيطوا بلغتهم الفرنسية إحاطة كاملة دقيقة . وما كاد القرن الثامن عشر يتنفس فخره حتى تنفس عن فولتير وروسو وديدرو وغيرهم من الكتاب الذين نزعوا أثواب أثينا وروما وارتدوا ثوب عصرهم ، وطوعوا للآداب الغربي أن يستقل بنفسه عن الآداب القديم ، ومع هذا الاستقلال التام في أدب الغرب فإتزال اليونانية واللاتينية تدرسان لغة وأدباً لتبقى حياة اللغات المشتقة منهما متصلة على العصور حتى لا يندس اليها عامل من عوامل الفساد والضعف . ولئن كانت لغتنا اليوم وستبقى أبداً هي اللغة العربية ، وكانت دراستنا إيها أجدي علينا وأحفظ لكياننا ، فإن كثيراً من ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائداً أو في حكم البائد ، لأن أطوار الحياة التي مرت بالأمم التي أصبحت العربية

لغتها جعلت هذه الالفاظ القديمة غير صالحة لاداء المعانى التى تداولتها
عصور فجر الاسلام والامويين والعباسيين والفاطميين والاندلسيين
وغيرهم ممن تطورت حضارة العالم بعملهم تطوراً عظيماً . مع هذا
فدراسة تلك الالفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بحثية . وقد
تفيد الأديب فى دقة تحديد المعانى التى تعبر عنها ألفاظ أخرى
مشتقة منها أو كانت بينها وبينها فى بعض العصور صلة لغوية من
أى نوع من الأنواع .

على أن دراسة اللغة هذه لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث
كسء الأدب على نحو ما قدمنا وبمقدار حاجة الأدب لهذا الكسء .
صحيح أن الكسء كان له فى بعض الأزمان المقام الاول . وما تزال
طبقات الناس الى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها . وصحيح كذلك أن
اللغة ، ككسء للأدب ، كانت فى بعض الأزمان صاحبة المقام الاول
فيه عند الاكثرين ، وانها ما تزال ذات أثر لا سبيل الى انكاره .
لكن صلتها بالأدب من هذه الناحية تتطور تطور صلة الازياء
بأقدار الناس فى الحياة . وصلة الازياء بالأقدار تتلاشى رويداً رويداً
بما تنزع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة فى اللباس بساطة
يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب ، حتى لنرى اكثرها أخذاً بالنظر
أشدها قيمة عن الحياة ودقائقها . كذلك تطورت لغة الادب فصار
أجدرها بالامتزاج بالادب ما كان شفافاً عن المعانى والصور التى
يعبر عنها معواناً على زيادة ما فى هذه الصور والمعانى من حياة
وموسيقى . هذه اللغة الشفافة المضيئة السيالة التى لا تحجب عنك
جمالاً مما أراد الأديب الموهوب اظهاره ولا تقف فى سبيل متابعتك

الأديب أثناء تدفقه واندفاعه في تفكيره أو تصويره أو تغنيه
وشدوه ، هي التي تعتبر للأدب كساء وتتصل بالأدب في كسائها
إياه حتى لتصبح جزءاً من رحيق الحياة الذي يعبر الادب عنه .
وهي كلما لطفت وازدادت بساطة وشففت بذلك عن كل ما أراد
الأديب أن يحملها إياه وكانت في ذلك النغمات الصادرة عن نفس
الأديب الصادقة العبارة عنه ، كانت ألصق بالادب في العصر الذي
يصدر هذا الادب عنه .

الوصول باللغة الى هذه المكانة ليس بالأمر اليسير . بل هو
يحتاج الى جهاد الادباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة
ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . وأدباء عصرنا الحاضر
لا يجدون من أدوات هذا الجهاد في الأدب القديم إلا ما قدمنا من
ضبط اللغة ، وإلا نظرات عامة للحياة قد تبلغ غاية الجمال ولكنها
لا تغني كثيراً في عصرنا الحاضر . والواقع أن الأدب القديم كالآزياء
القديمة كان يعتمد على ثروة اللفظ وصور البديع فيه كما تعتمد الآزياء القديمة
على نفاسة القماش وكثرة حواشيه . وأنت اذا ذهبت اليوم الى مسرح من
المسارح تمثل فيه قصة من قصص العصور الماضية ويظهر فيها الممثلون
بأزياء تلك العصور ، إذن لرأيت على المسرح أكواماً من أقمشة غالية
تحيط بها أشربة ودنتلات وغيرها من أسباب الزينة ، ولرأيت فوق ذلك
شعوراً صناعية مزينة هي الأخرى ، ورأيت دونه أحنية تسكد لكثرة
ما يرصعها من الاحجار الثمينة تنكر أنها أحنية . وهذا كله يذهب
ويجئ على المسرح ويطل من خلاله وجه سيدة أو رجل هو وحده الذي
يدللك على ان هذه الكومة النفيسة تمتوى في أعماق داخلها حياة انسانية

هذا الوجه مظهرها... ما صورة هذه الحياة؟ ما حقيقتها؟ أجميلة هي أم قبيحة؟ أجذابة هي أم ثقيلة؟ أنت لا تستطيع أن تحكم، لأن اللباس وحده هو المتحرك أمامك، ولأن الوجه الذي عرفت منه أن ما ترى انسان، وأنه رجل أو امرأة، قد كسى هو الآخر بأصباغ وألوان أخفت معالمه ونكرت معارفه، ولأن التحيات والعبارات والأفكار لا تصدر عن أصحابها وإنما هي صيغ حفظوها من صغرهم وخضعوا فيها لميئتهم فحياتهم ليست لذلك حياتهم، وإنما هم صور متحركة محتفية خلال نقائس الأقمشة والألوان الزينة مما ترى وما قد يفيدك كثيراً أو قليلاً عن حياة ذلك العصر ولباسه. لكنه لا يفيدك شيئاً عن الشخصية الانسانية التي يصدر عنها الفن والأدب، والقديرة وحدها على استخلاص ما في الحياة من رحيق هو أكبر ما في الحياة من جمال.

(٢) قارن بين هذا الذي رأيت على المسرح ممثلاً عصرًا مضى وبين أزياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها، تجد البون شاسعاً. فالخضرة الانسانية اليوم تنزع الى البساطة والى الصحة والى حكم الانسان حياة الوجود بكل ما يمكنه قواه ومواهبه، والى ظهور الذاتية الانسانية خلال ذلك كله ظهوراً قوياً واضحاً. فلم يبق شخص الانسان كومة من النسيج النفيس تزيناها الاشرطة والدنات وتحميلها الاحذية المرصعة وتكسو أعلاها شعور مستعارة وتطل من خلالها صورة وجه انساني مختلف تحت الاصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها، وصارت الحياة الانسانية كذلك هي موضع الجمال بذاتها وليس موضع الجمال هو اللباس الذي يكسوها. وبمقدار

ما يعبر الزى عن الحياة يكون أشد للنظر استرخاء وأقوى عن جمال الحياة تعبيراً . وكبساطة الناس في اللباس بساطتهم في الطعام . لم تبق الألوان الكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة ، بل صارت الألوان التي تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هي التي يميل الناس الى اتقان صنعها لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته . كذلك أصبح الترف ذاته ينزع الى البساطة والصحة . وإذن فالحياة الانسانية قد صارت من الزى والطعام والترف كما أصبحت من مظاهرها العقلية والفنية تريد أن تكون هي الظاهرة القوية لا يخفيها اللباس بل ينم عنها ولا يتخمها الطعام بل يقويها ولا تغص بالترف بل تنعم به . كذلك نريد ألا يشغل اللفظ على روح الأديب وألا تجمد التقاليد بريشة الفنان وأن تصبح الذاتية الانسانية حرة متوثبة دائماً الابداع دائماً السعى في ابداعها الى التحكم في كل ما في الكون وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس متاعاً أساسه البساطة والصحة .

ولقد عاون العلم ، وما يزال يعاون ، على توجيه الحياة في هذا السبيل بما ربط بين أجزاء العالم وما أخضع من قواه لحكم الانسان وما أفسح لذلك من ميادين متاعه . فالتلغراف والطيران والراديو والفونوغراف وما إليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم في قبضة يد الفرد وقربت بين أجزائه تقريباً لم يكن يحلم به أسلافنا . أترأى تستمع الى أصوات الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا ، وتسمع وأنت في مقعدك الى ما يجري في مختلف أنحاء العالم ، وتصل في ساعات الى ما كان يقتضى من قبلنا أسابيع أو شهوراً ، ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسها السلف ويكون رحيقها منك ما كان

رحيقها منهم ! لعل من الناس من يرى أن رحيق الحياة عند السلف
أشهى وأعذب من رحيق هذه الحياة التي نعيشها ، ومن يرى
لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب
وأهنأ . ولست أخالف هؤلاء وأنا أشعر في كثير من الأحيان
بشعورهم وأجد في كثير من الأدب القديم جمالا ولذة ، وأجد فيه
سداجة تجذب اليه وتحبب النفس فيه . بل إن من آثار الفن والادب
القديم ما انتهى إلى الخلود وما سيظل موضع تقديس العصور والقرون
المقبلة جميعاً . وإن في « قفا نبك » من صور الجمال في بعض المواضع
ملا سبيل إلى نسيانه . لكن الآداب مرآة العصر كما يقولون .
وإذا كان الادب القديم مرآة للعصور التي يمثلها في صورها الحياة
وجملها ، وكان ذلك مما يجب دراسته لكمال ثقافة الأديب ، فهو
وحده لا يكفي ، كما إن الأدب الحديث وحده لا يكفي لكمال الأديب .
بل يجب لهذا الكمال أن يحيط الأديب من قواعد العلم والفن بما
يؤهله لاستخلاص ما في الحياة من رحيق وليجلوه على صورة صادقة
تمثل عصره . وهذه هي تفرقة الشيخ التي أشرنا إليها في صدر هذه
الكلمة بين الشعر القديم وحاجتنا إليه للغة وللتاريخ وبين الشعر
الحديث وتعبيره عن صورة حياتنا تعبيراً يجعله أشهى وأعذب
مدخلا إلى النفس .

٦ + على أن هذه الدراسات لا تغني عما قدمنا من وجوب صقل اللغة
لتمتزج بالأدب ولتكون له لباساً شفافاً موسيقياً رقيقاً ، وما يحتاج
ذلك إليه من جهاد لا دباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة
ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . ومن الحق أن نذكر

بالتقدير والاجلال جهاد من سبقونا في هذا المضمار من الشعراء والكتاب ومن رجال دار العلوم والأزهر ومن يسمون أنفسهم اليوم أنصار القديم . هؤلاء جميعاً سعوا ويسعون سعياً حثيثاً محموداً في سبيل بعث ما كان قد ظل عصوراً طويلة طي الكتب القديمة وجاهدوا فهدوه وردوا اليه حياة كاد جهل العصور التي ساد فيها الحكم التركي الممالك العربية يعني عليها ويدفعها الى غير عودة . لكن اللغة كأن حى يجب له دوام التعهد . وتعهد اللغة في ناحية الأدب انما يكون بدوام صقلها لتزداد رقة ولطفاً ولتكون موسيقاها مما يصلها بالادب صلة وثيقة ويجعلها اكثر من كساء له .

٧ هذا الجهاد هو جهاد الكتاب والادباء اكثر من جهاد اللغويين وأصحاب المعاجم . ويكفى أن نذكر مثلاً لذلك ما يقصونه عن الكاتب الفرنسي الكبير فلوير وجهاده في هذه السبيل . فهم يروون أنه كان يحار أحياناً في اختيار اللفظ الذي يعبر أحسن التعبير عن فكرة من أفكاره فيظل يقلب وينقب ويفكر أسبوعاً كاملاً ليجد اللفظ الدقيق الصالح ، وأنه حين كان يكتب قصته الخالدة (مدام بو فاري) ويقص انتحار بطلتها بالزرنبيخ كان يحس طعم الزرنبيخ في فمه فيجد لذلك العبارات الدقيقة التي تصف هذا المعنى وتصوره تصويراً مضبوطاً . فهل لنا من الادباء من يبلغ اخلاصهم لفنهم هذا المبلغ ؟ هؤلاء هم الذين يصقلون اللغة ويجعلونها تلتف وتشف وتصبح موسيقى تتصل بالادب لا مجرد ألفاظ تنقله كما كان شأنها في عصور مضت .

هؤلاء الافذاذ المخلصون لفنهم هم الذين يجددون اللغة حياتها

قوية رصينة ، وهم الذين يعملون للأدب و يقيمون له أرفع صروحه .
على انهم في عملهم للغة انما يعملون كأدباء . وهم بعملهم هذا يقدمون
للغويين غذاء جديداً يفيدهم في معاجمهم أكبر الفائدة ، ويجعل من
الادب الحديث ما يفيد اللغة بمقدار ما يفيدها أدب « قفا نيك » ،
وان بقي أدبهم مع ذلك أدباً عصرياً سائغاً لذيذ المدخل الى النفس

النثر والشعر

« كلما أراد الانسان أن يعبر عن احساس حقيقى رأى بعد طول
الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ووجد
أن أحسن ما فى نفسه بقى فيها مختفياً ... لتصوير احساس كامل
وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير
المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة .
(قاسم أمين)

ملأنا طباق الارض وجداً ولوعة
بهند ودعد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقف
بسقط اللوى والرقتين ولعلم
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيراً وأينقا
متى يعيها الايجاف فى اليد تظلم
فأصبح لا يرضى البخار مطية
ولا السلك فى تياره المتدفع
(٤)

ونحن كما غنى الأوائل لم نزل
نغنى بأرماع وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى

لشيء جديد حاضر النفع ممتع
(حافظ إبراهيم)

هذه الأبيات من حافظ إبراهيم وتلك الكلمة من قاسم أمين
صيحتان صريحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية نثراً وشعراً.
وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين قيلت من ربع قرن أو أكثر،
وان شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين . وليس مقام حافظ في
الشعر بمنكور . وقاسم من المقدمين في تجديد الكتابة العربية بل
أولهم وأكثرهم جرأة وإقداماً . على أن هذه الشكوى لا يقف أمرها
عند حافظ أو قاسم ، بل هي تحييش بنفس كل كاتب قوى الشعور
دقيق الحس واسع الاطلاع وبنفس كل شاعر سمى شاعريته عن أن
يقف عند ترديد الأشعار القديمة في قواف جديدة وعند سبك
الصور والافكار والمشاعر القديمة في قوالب ربما فاقت القوالب
الأولى بهجة ، ولكنها ليست لذلك ذات فضل لأنها في الواقع
ليست إلا محاكاة وتكراراً . ومحاكاة الانسان للانسان لا تحتاج
الى نبوغ وان احتاجت الى ذاكرة ، ولا تصل الى مقام العبقرية وإن
خلبت الانظار فجأة بلائاً بريق سرعان ما يخبو اذا تعرض للنقد
الصحيح .

وانما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم
وثقافتهم في حدود هذا الماضي الذي أشار اليه حافظ إبراهيم والذين

اطلعوا على مختلف صور تفكير العالم ووقفوا على أدب الأمم المختلفة. هؤلاء يرون أن المدارك والاحساسات الانسانية ليست جامدة ولا يمكن أن تكون كذلك لأنها خلق البيئة المحيطة بالانسان . وقد كانت هذه البيئة في الماضي ضيقة محصورة في حدود القرية أو القطر من أقطار الارض الذي يعيش فيه الكاتب أو الشاعر . أما وقد أصبحت الانسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب وأصبح يسيراً أن يطلع مثقف على آثار الفكر والشعور الانساني في الأمم المختلفة فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبه وبين العطف على شخص والاشفاق عليه وبين النفور والكراهية وبين الخجل والخوف وبين التردد والجلب درجات متميزة من الاحساس تدركها النفس إدراكاً دقيقاً وتعبّر بعض اللغات عن كل منها تعبيراً يحددها لك تمام التحديد . ثم ترى نفسك مطالبا بأداء ذلك في اللغة التي تكتب بها - وهي اللغة العربية - فتشعر بالعجز وترى : « بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئاً عادياً وأن أحسن ما في نفسك بقي فيها مخفياً » . بهذا الاحساس يشعر الذين يقرأون ثمرات العلم والأدب الحديث في مختلف اللغات سواء وقفوا عليها في كتبها الاصلية أو مترجمة الى اللغات التي صقلت حتى صارت تتسع لسكل ألوان الفكر وصور الشعور . وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين في اللغة العربية الواقفين على آداب الامم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربي المقابل للفظ أجنبي يعبر عن فكرة أو احساس فلا يجدونه بل لا يجدون جملة مركبة تفيد بالدقة المعنى الذي يقصدون الى تصويره .

على أن الكتاب الضليعين في العربية والواسع اطلاعهم في اللغات الأخرى ما فتئوا الى اليوم ومنذ قاسم أمين وقبل عصره يجاهدون لما أسماه قاسم : « اختراع ألفاظ جديدة » ، وإن كانوا قد سلكوا سبيلهم الى هذه الغاية باحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثوابا جديدة تعبر عن الافكار والاحساسات الجديدة آخذين في ذلك مأخذ كل الامم ، قانعين من التجديد - بمعنى الخلق دون البعث - بالالفاظ الاجنبية التي لا رجاء في وجود مقابل لها في العربية إلا أن يكره لفظ قديم على تحمل الصورة الجديدة إكراهاً سخيفاً . ولقد عالج بعض أنصار القديم من الكتاب هذا الاكراه ففشلوا فيه لانه مناف لطبائع الاشياء ففقدى عليه بالفشل لا محالة

على أن هؤلاء المجددين المجاهدين في سبيل احياء اللغة العربية حياة صحيحة ان لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا في سبيله شوطاً بعيداً . وحسبك مقنعاً بهذا أنك لا ترى كاتباً منهم يعارض في أسلوبه أو في تفكيره أو تعبيره عن الشعور والاحساس واحداً من الكتاب الاقدمين . والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتاب لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ ولا طه حسين لابن المقفع ولا مصطفى عبدالرازق لعبد الحميد الكاتب ولا غير هؤلاء من كتاب العصر الحاضر لواحد من كتاب العصر القديم ، وإنما يتكلمون عن أسلوب العقاد ورأيه ، وأسلوب طه حسين ونظرياته ، وأسلوب مصطفى عبدالرازق ودقته وظرفه . بل ان من لا يزالون يسمون أنفسهم انصار القديم من الكتاب أمثال مصطفى صادق الرافعي وصادق عنبر وغيرهما ، قد أثرت في أسلوبهم وفي تفكيرهم

حركة التجديد هذه اثرأ عميقا حتى اصبح الجديد طبيعة نفوسهم
وأصبح ما يقتفون فيه أثر القديم ظاهراً فيه العمل والصناعة والتكلف،
فما يكاد الواحد منهم يترك نفسه على سجيته حين يكتب حتى تراه يعيش
في هذا العصر الذي نحن فيه يكتب بأسلوبه ويفكر بتفكيره ويرى
ما يراه من ألوان الادراك والحس المختلفة . ونحسب انه لولا بقية
من الحرص على ماض امتازوا فيه على غيرهم من السكتاب حين تقليد
الاقدمين امتياز شعرائنا في الحاضر امتيازاً يروونه مجدهم وفخرهم
إذن لرأيت الرافعي وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا في سلك
المجددين بكلامهم . ولعل لهم عن ذلك من العذر ان الانسان لا يستطيع،
وان حاول، ان ينسى ماضيه أو ان ينكره

وليس عجيباً أن يتأثر انصار القديم بحركة التجديد ، بل العجب
ان لا يكون ذلك . فالحياة دائمة التطور ، والجديد هو آخر مظاهرها .
وهذا وحده هو السبب في انه جديد ، فاذا انقضى عصره وحدثت
غير الحياة جديداً بعده اصبح قديماً . ومادمت تعيش في عصر
فأنت متأثر حتماً بحياة هذا العصر ، متأثر بالجديد الذي يحدث فيه .
على ان كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالابوة والوارث بالمورث .
ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وان هو حاول . ولن يستطيع ان
يكون صورة مضبوطة منهم وان هو حاول كذلك . بل ان محاولته
الاخيرة لتظهره في ثوب انصار القديم من التكلف والصناعة كما
ان محاولته الاولى ، وان نجح فيها ، تظهره في ثوب من التكلف
ان اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس اقل منه استدعاء للسخر .
ولعلك لا ترى فرقاً كبيراً بين ما يتركه من الاثر في نفسك رجل يلبس

اليوم رداء الاقدمين ويسير سيرتهم وآخر يبالغ في تقليد آخر طراز
انكليزي في الحديث والتحية والعبارة .
٧ ولذلك أيضا فشل المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر
اللغة وماضيها ورجع أكثرهم الى الدائرة التي يعمل فيها المجددون بعقل
وحكمة حتى قطعوا منها في سبيل احياء اللغة العربية شوطا بعيداً .
رجع أولئك الى هذه الدائرة كما تقدم اليها أنصار القديم خطوات
واسعة . والحق ان هؤلاء المتبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة
العربية بعثا جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التي تتكلم بها . ولا حاجة
لضرب الامثال وكتب العلم والادب التي أبدعوا متداولة في أيدي
الناس جميعا ، يتلون فيها أسلس الكلام وأصح وأدق عبارة في
تقل كل ما استحدثته الانسانية من جديد صور الحياة وكل ما كشف
عنه العلم من نظريات . وليس يعرف مبلغ العناية الذي يحتمله أولئك
الكتاب ومبلغ الجهد الذي يبذلونه الا من رآهم يعترضون أدمغتهم
وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذي يدور بخاطرهم
أدق التصوير . وأشد عنائهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من
ثقافات الشرق والغرب جميعا تتسع له اللغات التي صقلت في القرون
الاخيرة بل توحيه ، ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط في اللغة
العربية . اذ ذاك يجاهد ليبعث الالفاظ القديمة فيصحبها في بوتقه
التجديد لتبدوا في صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقا وأشد
دلالة على المعاني التي يراد أن تدل عليها من غير أن تشوبها لذلك
كدورة أو اضطراب .

مع هذا الجهاد الذي اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية في الصور

الأخيرة فما يزال النثر ولما يبلغ الشأو الذي نرتجيه له ولما يصل الى التعبير عن افكارنا وعواطفنا واحساسنا تعبيراً دقيقاً ، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من اجل افكارهم أو رواية عاطفة من ادق عواطفهم واعمقها او تصوير حس من اجل احساسهم واسماها لانهم يرون انفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام انما قالوا شيئاً عادياً وان لم احسن ما في نفوسهم بقي فيها مختلفاً . على ان هذا الجهاد قد طوع لهم مع ذلك ان يطرقوا من الابواب التي اقتضتها حياة العالم في العصور الحديثة ما لم يطرقه الكتاب الاقدمون . وليس في شيء من الغلو القول بأن أكثر ما طرقوا من الابواب لم يتعرض العرب له إلا عرضاً . لان التجديد لم يقف عند الاسلوب وكفى ، بل تناول طريقة البحث والوان الحس ودرجات الشعور فصارت شيئاً مغايراً تمام المغايرة لما كان عند العرب واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً . وقد اصبح هذا البناء شامخاً ولكنه ما يزال بحاجة الى التعهد والصقل والصياغة والى السعة نفسها حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة في ابعدها وراميتها واعماقها .

هل بلغ الشعر مبلغ النثر في التجديد ؟ وهل نستطيع القول بأن جهاداً شاقاً وجه الى اية ناحية من نواحيه كما وجه الى نواحي النثر ؟ وهل أتاح له هذا الجهاد ان يواتى حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذي يواتيها النثر به ؟ فاذا انقضت اجيال وعرض ادب عصرنا الحاضر نثراً وشعراً على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافئ ؟ يجب قبل بدء هذا البحث ان نقرر واقعة متداولة على انها حقيقة

ثابتة . تلك ان الشعر العربي في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية
بلغ شأواً لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه . وان مكانة الشعر في عصور
بنى امية وبنى العباس والاندلسيين كانت اسمى بكثير من مكانة النثر
وادنى الى الكمال . وان الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة
والحس كانت جميعا تصاغ في الشعر بخير مما تصاغ في النثر . بل ان
الشعر العربي كان هو الادب العربي وان النثر الى جانبه كان مكمل له
غير مستقل عنه حتى لكان الكتاب يحلون نثرهم بما يرفعونه به من ابيات
الشعر . فاذا كانت هذه الواقعة المتدولة حقيقية بالفعل افلا يكون
حقا للشعراء ان يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر العربي كما كان في
ازهر عصوره ليكونوا قد اعادوا للادب العربي جدته وليكونوا
قد سبقوا الكتاب الى احياء اللغة العربية وادبها ، او ليكون
مجهودهم مساويا لمجهود الكتاب في التجديد وليكون حكم الناقد
الذي يستعرض ادب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئا لحكمه على
النثر في تعييرها عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا .

(١٠) لا ريب في ان النظر الى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نقر
للشعراء بفضل اى فضل . فليس من كبرائهم الا من عارض انغم
قصائد كبار الشعراء في الماضى فوفق في معارضته اعظم توفيق
وتفوق في بعض الاحيان تفوقا لا سبيل الى انكاره . وهؤلاء ساءى
البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ابراهيم واضرابهم من
فحول شعراء العصر الاخير لم يكادوا يتركون قصيدة من القصائد
العربية الكبرى الا عارضوها وزنا وقافية ومعنى فوفقوا وتفوقوا
في احيان كثيرة . وسينية شوقى الاندلسية التى يعارض بها البحتري

مشهورة . ومعارضة اسماعيل صبرى وشوقى لقصيدة : « ياليل الصب
متى غده » ما يزال الناس يتحدثون بها . اما البارودى فقد عارض
كثيراً من فحول المتقدمين وفي مقدمتهم النابغة . وهذه القصائد
وغيرها هي من طراز القصائد التي تعارضها لغة واسلوبا بل معاني
وصوراً حتى لكأنها قيلت في تلك العصور التي قال اشباهاها فيها
البحترى والنابغة والحصرى وغيرهم من اكابر شعراء العرب .
واذن فقد بعث شعراؤنا العصريون ذلك الشعر العربي القديم
بجزالته ومئاته

بل لقد افتن شعراؤنا في وصف المنشآت والحوادث بما ليس
له مثال في الشعر القديم ، لان هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع
عليها عين الشعراء الاقدمين او لم يتعلق بها خيالهم ان لم يتعلق بها
شأن من شئونهم . ولست انكر انى اتذوق وصف حافظ ابراهيم
لقصر الجزيرة الذي اصبحت حديقة الحيوان كما اتذوق قصيدته في
نكبة مسينا بالزلزال وبخاصة حيث يقول :

رب طفل قد ساخ في باطن الار

ض ينادى : امى ، ابى ، ادر كانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجـ
ر تعانى من حره ماتعانى
واب ذاهل الى النار يمشى
مستميتا تمتد منه اليدان
باحشا عن بناته وبنيه
مسرع الخطو مستطير الجنان

نأكل النار منه لاهو ناج

من لظاها ولا اللظى عنه وان
وكما أتذوق هذا الوصف لحافظ أتذوق كثيراً من شعر شوقي
في الوصف وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده
وكلاب صيده، ووصفه لقصر انس الوجود إذ يقول :

قف بتلك المقصور في اليم غرقى تمسكا بعضها من الذعر بعضها
كعذاري اخفين في الماء بضاً ساجحات به وابدين بضاً
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضاً
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون مازال غضاً

ولست انكر كذلك إعجابي الذي لا حد له بالشعر الوصفى في
وجدانيات اسماعيل صبرى وفي حماسيات البارودى. ولكنى اعود
من هذا الاعجاب فأسائل نفسى : هل هذه القوافى التي ما تزال نحن
مرتبطين بها منذ عهد العرب ، ودل هذه الصور التي ادت بحافظ
ابراهيم الى ان يقول « ونحن كما غنى الاوائل لم نزل نغنى » ، وهل
هذه القيود المعنوية التي تقيدنا فتجعل شوقي في احدى قصائده
التي يذكر الهودج على انه مركب ام المحسنين في حين كان مركبها
او تومبيلها الفخم ، اعود فأسائل نفسى : هل الاعجاب بهذه القوافى
والصور والقيود راجع الى انها تؤدي حاجات النفس من إدراك
وحس وعاطفة اداء صالحاً ، او هو راجع الى انها تثير في النفس ذكر
ما حفظت اول شبابها من شعر كاعجابك بنغم القيثارة الريفية الساذجة
بعد سماعك لألحان عبد الوهاب بل لموسيقى موزار وبتوفن .

(١٢) كنت اتحدث في سنة ١٩٢٧ الى جماعة من اصحابي وبينهم

الشاعران الكبيران حافظ ابراهيم و خليل مطران ونحن على الباخرة
النيلمية بريطانيا في النزهة التي دعت اليها لجنة الاحتفال بتكريم
شوقي بك بين مصر والقناطر الخيرية ، وتناول حديثنا الشعر وما
يحس الكثيرون به من انه لم يسبق النثر الى الخطوات التي يستطيع

معها التعبير عن كل المعاني التي تحيش بالنفس على صورة تتفق ونغم
الموسيقى الجديدة ولا تقف عند الاوزان القديمة التي يقولون انها
كانت تلائم سير الابل خيبا وايحافا . ولم يعترض الشاعران على هذه
الملاحظة بل وافقا عليها ، وذكر احدهم ان السبب في جمود الشعر
عند اوزان العرب ومعانيهم وقوف بعض الشعراء في وجه كل تجديد
واعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد . ولم ينس احد الحاضرين

ان يذكر كيف تطورت الاغاني العامة واتفقت مع الانغام الحديثة
كما اذجت — على ابتدائها — كثيراً من صور الحياة الحاضرة
ومستحدثاتها خلال الفاظها ومعانيها . وما اظن احداً يرتاب في
صحة هذه الملاحظات على الشعر العصري وعلى وقوفه في قوافيه
واوزانه وفي صورته ومعانيه عن مجازاة انغام العصر وموسيقاه ،
بل عن مجازاة الهزات الشعرية التي تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر
الحاضر . لقد تقف بين الوف القصائد التي قيلت والتي تقال على
ايات بالغة غاية الجمال تعبر بأبلغ عبارة عن ادق احساس واقواء .
لكن هذه الايات منشورة في لجج مترامية انتشار الدر في قاع
البحر لا تعثر عليها من غير جهد ومشقة .

وليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الايات الفذة ،

وليس هو محاكاة الاقدمين . انما القصد من الشعر ابراز فكرة
او صورة او احساس او عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة
من اللفظ تخاطب النفس وتصل الى اعماقها من غير حاجة الى كلفة
او مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع او تهبط وتهبط وانت مندفع واياها
مسوق وراها متلذذ باندفاعك واتباعك تلذذك بصوت المغنى او
بنغمة الموسيقى . وكما يسبقك المغنى الى القرار او السمو الذى تنساق
اليه نفسك طائعة مختارة يجب ان يسبقك الشاعر فى فيض الحس او
الشهوة او العاطفة وان يشعرك من ذلك اضعاف ما تشعر به لو انك
كنت وحدك . وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيداً وكلما استوت
له فى ذلك النفوس جميعاً اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيض
بناته ورباته .

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول ان يوفق الى
جديد فى الشعر يلائم بينه وبين روح العصر الحاضر ويصل به الى
هذا المدى الذى وصفنا . وفى هذه المحاولات جرأة وفيها جمال .
لكنها لما توفق الى الطريق السوى فتعبر عن مدركاتنا واحساسنا
وعواطفنا بمثل ما وصل اليه النثر من قوة ودقة . وهى لما توفق الى
الخروج بالشعر من هلهلته التى تجعل اكثر قصائده وليس بين البيت
فيها وما بعده صلة حتى لتستطيع ان تغير مواضع الأبيات كما شئت
من غير خوف . ثم هى لما توفق الى اوزان تخرج بها عن سيرة الابل
خبياً واطلاعا الى شئ يتفق وانغام موسيقى عصرنا الحاضر .

يوم يوفق الشعر الى هذا الطريق فى تلك النواحي المختلفة ،

ويوم يؤدي الغاية التي اشرنا اليها ، يكون قد وفق الى اداء حاجات
النفس اداء صالحا . ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة
اللغة العربية وصقلها بما يجعلها تواتى الكاتب والشاعر بكل حاجات
العصر في غير مشقة ولا عناء . لسكن ذلك انما يكون يوم تزول
عن الشعر علتة . فما هي هذه العلة وما هو سبب الجمود الذي
اشرنا إليه في هذا الفصل ؟

علاء الشعر

يوافقني صديقي الدكتور طه حسين على ان النثر العربي قد تطور في هذا العصر الأخير الى حيث قارب ان يكون صالحاً لاداء حاجات النفس وان كان ما يزال بحاجة الى معالجة والى صقل والى زيادة في ثروة الفاظه ليصل الى ما وصلت اليه الكتابة في الامة العربية صاحبة المدنية الغالبة اليوم ، وعلى ان الشعر ظل حيث كان الشعر في الايام القديمة حين كان مجد العرب وكانت الحضارة الاسلامية في اهبى عصورها العباسية والاندلسية . وهو يعزو تطور النثر وجود الشعر الى مطالعة الكتاب واتصالهم بحضارة العصر في كل مظاهرها العقلية والنفسية ، والى اكتفاء الشعراء بما قرأوا من شعر العرب والى كسلهم العقلي بعد ذلك وعدم تغذيتهم ارواحهم ونفوسهم وعقولهم بما تفيض به الارواح وتشعر به النفوس وتنتجها العقول من الآثار في العصر الحاضر ، كما يعزو وجود الشعر الى ان الشعراء قد جعلوه بعض ما تتزين به حفلات التكريم والتأيين وافتتاح البيوتات المالية وما الى ذلك مما لا يتصل بالشعر . ولنقف عند هذه الأسباب قبل ان نبحث عن غيرها مما ادى بالشعر الى الجمود تاركين نسبة الكتاب دون الشعراء الى القراءة والى الاتصال بحضارة العصر حتى لا نتهمهم بحاباة طائفة على الأخرى . فأما

كسل الشعراء وعدم اطلاعهم وما لذلك من اثر في شعرهم فقد يكون فيه بالنسبة لآكثرهم جانب من الحق وان يكن لهؤلاء عنه كذلك جانب من العذر . فهم يقرأون بدأ صباهم حين تتحرك ربة الشعر اول ما تتحرك في نفوسهم . وبعضهم يقرأ الشعر العربي القديم لانه لا سبيل اليه الى الاطلاع على الشعر ولا على الادب الغربى . وبعضهم يتصل بهذا الادب الغربى ، فاذا استوى لهم الشعر العربى واتسقت لهم قوافيه وبحوره شعروا بحاجة ملحة الى التبحر فى اللغة العربية وفى الشعر العربى بنوع خاص لكي يجدوا فيه حاجتهم من غذاء متصل لموسيقى النظم فى نفوسهم مما لا سبيل الى ابتغاء العوض عنه فى غيره من أدب غربى أو من موسيقى او من ادب عربى حديث . وهم سرعان ما يصلون من ذلك الى انضاج اللغة فى نفوسهم وما اكثر ما يتيسر لهم بذلك الوقوف على الالفاظ التى تحتاج اليها قوافى الشعر وأوزانه . فاذا اندفعوا فى هذه الناحية من نواحى البحث لم يقف أمرهم فيها عند حاجتهم الى نضج اللغة والى ثروة اقوافى بل تأثروا بالشعر القديم أشد الاثر واخذوا عنه فى كل شىء واندفعوا بحكم ميل النفس الى دعة الحياة لمحاكاة ومعارضته . ولقد كانوا الى زمن قريب يشعرون بما فى ذلك من شهادة بسبقهم وتفوقهم حتى أخرجتهم ضجة القديم والحديث فى اللغة والادب من سباتهم وجعلت المبرزين منهم يفكرون فى جدة الشعر باقتحام ميادين مما اقتحم الشعر الغربى ومحاولة محاكاة هذا الشعر الغربى فى اقتحامه إياها . لكن هذه المحاولات ما تزال هى الأخرى فى بدايتها . واجراء هذه المحاولات ما وضعه شوقى من روايات لم يمحض النقد حتى اليوم قيمتها الصحيحة .

وأما ان الشعراء يجعلون شعرهم بعض ما تزين به حفلات التكريم والتأيين وافتتاح البيوتات المالية وأمثال هذه الأغراض البعيدة كل البعد عن المعاني والصور الشعرية فصديق طه على حق فيه . فالشعر ظاهرة نفسية لقائله يشدو به حين تفيض نفسه باحساس من الاحساسات أو بمعنى من المعاني لا تستطيع أن تكتمه . ولن يصدق احد أن ينبعث هذا الفيض عن دعوة تدعوها جماعة لشاعر كي يقول في غرض معين كحفلات التكريم والتأيين وانشاء النقابات والمصارف .

على ان لشعرائنا في غير هذه الاغراض ، ولهم فيما تلهم المعاني الشعرية الصحيحة ، ما يثير في النفس الاعجاب . وانك لو اجد شعراً صحيحاً في المقطوعات الوجدانية التي قالها اسماعيل صبري ، ولو اجد شعراً صحيحاً في كثير من قصائد البارودي عن الاتفة وعن الحرب وعن الحنين الى وطنه وهو في مناه ، ولو اجد كذلك لشوقي معاني شعرية ذات روعة في قصائده عن الماضي وفي تحنانه الى مصر أيام كان في اللندلس . ولغير هؤلاء شعر هو الشعر بكل معناه . لكن ذلك الشعر قليل من هذا الكثير الذي خلفوا والذي يستظهره الناس ويجدون فيه روعة وجمالاً . وانما نظم الشعراء أكثر شعرهم في هذه الاغراض التي ليست من الشعر في شيء . وللشعراء عن ذلك عذرهم . وليس هذا العذر مقصوراً على عدم القراءة وعلى الكسل العقلي ، بل هو أعمق من ذلك بكثير . ولعلمهم لو قرأوا واجهدوا في القراءة أنفسهم وأعصابهم لما وصلوا من الشعر الى أكثر مما وصل رجال الدين من الدين . فرجال الدين يدمنون قراءة كتب العقائد والاصول والفقه وما إليها مما

يتصل بالدين بأى نسب . لكن هذه القراءة لم تغير منهم شيئاً ولم تهذب من نفوسهم وطباعهم كثيراً ولا قليلاً . ويحيل إلى أنهم لو قرأوا تاريخ العقائد وتطور الأديان بل لو أنهم رجعوا إلى الاساطير وتقصوا ما كان يدين به قدماء المصريين وما أخذه موسى عنهم ، وما انتقل من التوراة إلى الكتب الأخرى المقدسة من صور العقائد والمعاملات ، إذن لما غير ذلك من أذهانهم شيئاً . ذلك بأن المسألة ليست مسألة قراءة فحسب ، بل هي مسألة تدبر وشعور شخصي ، فكري أو نفسي ، يتأثر بعلامسة مظاهر الحياة من مرئيات ومسموعات ومحسوسات للأعصاب الانسانية المهدبة تهذيباً خاصاً يجعلها قابلة للتأثر والاحساس . ويجب ان نعترف ، ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى ، ان تربيتنا وتهذيبنا لم يعدا كثرتنا لهذا التأثر الفردي والاحساس الذاتي . فهما لا يرسمان امامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا ان يميزا من هذم الصور ما يأخذ بهما ويلقهما لفتات خاصة . بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة في قوالب قررتها الجماعة من عصر سالفه فيطبعانها في حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ويكرههما على الخضوع لها والايان بها . وكما ان حرية الفكر هي اساس النشاط العقلي المنتج واساس ما يترتب على هذا النشاط العقلي من سمو في الكتابة بلغ الكتاب بعضه حرية الحس هي اساس نشاط الذهن والخيال وما يفيض عن هذا النشاط من شعر هو الشعر حقاً ، لا ما يصدر عنه من عبارات منظومة يسميها الناس من باب التجوز شعراً . والتحلل من جمود هذه القيود ليس امراً يسيراً . بل لقد يتامل

منها الرجل في نفسه ويراها عبثاً ثقيلاً وسخرية وهزواً . لكن نفسه
التي انفتحت في الماضي والتي ترى في اطراحها ماثير الخصومة بين
الجماعة وبينها تؤثر ماسماه طه كسلاً عقلياً بينا قد يكون شيئاً آخر .
قد يكون هو الملل وضعف الرجاء في الانتصار على جود الجماعة
والاضطرار لذلك الى النزول منها منزلة تليق مشاعرها الجامدة
حتى حين هياجها وايمانها المتعصب التأثير على كل تسامح . ولعل
هذا هو علة تقلب شعرائنا بين مديح شيء وهجائه ، لا لانهم انتقلوا
من التسليم بجماله وما فيه من خير الى إنكاره والاعتقاد بضره ،
بل لانهم اشد حرصاً على طمأنينتهم منهم على شعور قلق ليس ناشئاً
عن فيض روي لا سبيل الى كبجه ، وانما منشؤه النظر الى الحياة
ومصالحها نظرة منفة لا شعر فيها ولا ايمان بها . فالتحدث على
اثر هذه النظرة حديثاً منظوماً انما يرضى به الشاعر سامعيه قبل ان
يمر بخاطره إرضاء نفسه .

الم يواجه الكتاب ما واجه الشعراء من الملل وضعف الرجاء
في الانتصار ؟! ام انهم من طينة غير طينة الشعراء وان تهذيبهم
اعدهم لاثوان من التأثير الذاتي والاحساس الفردي غير ما اعد
تهذيب الشعراء اياهم له ؟ اعتقد ان الامر متعلق بالظروف التي
احاطت بالكتاب والشعراء اكثر من تعلقه بتهذيب هؤلاء واولئك
مما يشترك الكل فيه على سواء . فقد كانت الكتابة جامدة جود
الشعر الى ما دون نصف قرن مضى . وكان الكتاب يقلدون
اساليب الاقدمين ويحتذون انواع كتاباتهم في المقامات والرسائل
وما اليها ويغرمون بالسجع وبالبيديع غرامهم ويعتبر احدهم اكبر

الكتاب

نفره ان يكون معارض الجاحظ او عبد الحميد . وفيما هم في سكينتهم الى اديهم تسلمت الى مصر والى الشرق ثورات سياسية واجتماعية متأثرة بالثورة الفرنسية وبما اصاب اوربا من هزات عنيفة في اعقابها ، فقام دعاة لمثل هذه الثورة بعضهم في السر وبعضهم في العلن واتخذوا الخطابة والكتابة وسيلتهم الى اعلان ثورتهم . ولم يكن اسلوب ابن المقفع ولا لغة ابن قتيبة ولا صناعة المبرد هي التي تكفل تحريك الجماهير لقبول هذه المبادئ ولا كانت هي التي تكفل حسن صياغة هذه المبادئ والدعوة اليها . لذلك لم يكن بد من اسلوب جديد ومن لغة جديدة . اسلوب ولغة لا ينبوان عن العربية الصحيحة ولا يستعصيان على ادراك الجمهور ولا يقفان دون تمثيل مبادئ الحرية والاخاء والديمقراطية ودفعها الى نفس الجمهور ليستطيع هو الاخر ان يسيغها وان يتمثلها وان يتأثر بها ويتحرك لتحقيقها . وكذلك لم يكن بد من ان تساير ثورة الاجتماع والسياسة ثورة في الخطابة والكتابة . اما الشعراء فظل اكثرهم بمعزل عن هذه الحركة ولم يفكر احدهم في أن يبدي في الشعر جديدا يقربه الى الجمهور ويقرب الجمهور اليه واعتبروا مثل هذا السعي جنائية على الشعر كفن جميل . من ثم اقام الشعر في سماواته الاولى لا ينزل للناس ولا يرفع الناس اليه وخطا النثر بأكتاف قوية عريضة بين الجماهير يهزها ويحركها ويلتزمها الى ناحية النور الجديد ويلهمها فضل الآراء الحديثة . وكلنا يذكر جهاد الكتاب في سبيل التحلل من قيود الماضي وما قاساه قاسم امين ولطفي السيد وغيرهما ، ويذكر أنه لولا شهوات السياسة ومس الحاجة للاصلاح الاجتماعي وعجز

من عدا هؤلاء المجددين من الكتاب دون الاضطلاع باعباء هذا
الاصلاح وبتوجيه تلك الشهوات ، ثم لولا تغلب المدنية الحاضرة
مدنية العلم والمعرفة وعجز من عدا المجددين دون رفع لواء هذه المدنية ،
إذن لبقى النثر كما بقي الشعر في جموده ، ولبقينا مقيدين بالصور القديمة
نكتبها لا لنعبر بها عن شعور يمر بخاطرنا وعن فكرة تنضجها
اذهاننا ولكن لنجاري بها الجاحظ او عبد الحميد او بديع الزمان ،
ثم ليكون اقربنا الى محركاتهم ابرعنا في الكتابة ، لانه يكون صدى
أولئك الذين تبوءوا بحق مكان الزعامة الكتابية في زمانهم ،
والفونوغراف الذي يحكي بدقة ، وان يك من غير شعور ، ما لقي
به إليه .

على ان ثورة النثر لم تصل من تحريره الى كل ميادينه ولم تقر
للأدب حريته في كل صوره ، بل وقفت عندما ابدت الظروف
مساس الحاجة اليه . وما احسب واحداً من الكتاب يحدث نفسه
بأن الكتابة بلغت من مثلها الأسمى الذي تصبو اليه غاية المدي
او اصبحت وليس يحول بينها وبين دقة الاداء عن كل ما يحول
بخاطر الكاتب الا قصور الفاظ اللغة واساليبها . بل انا ما يزال
بيننا وبين السكال مدى واسع غير اتقان الصناعة ودقة الصياغة .
واذا كنا قد اقتحمنا بعض الميادين التي كانت من قبل اقداسا لا
ترقع اليها العين ولا تسمح لنظرة منها بخلسة فانما ما نزال امام
بعض الميادين الاخرى مقيدين كالشعراء سواء بسواء . وربما كنا
كذلك امام اكثر الميادين الشعرية التي تتعلق بالحس وبالعاطفة .
فأين منا من هوى قلبه الى الوان غير مألوقة من الجمال تمددت فيه

وانتشرت وملأته ففاض به هواه فعبّر عنه تعبيراً صادقا ! واين
منا من ساور الشك نفسه ان رأى النور القديم الذى اهتدى به
اسلافنا قاصراً عن هدايتنا كما صارت الانوار القديمة التى كانت تنير
دياجير الليل فاترة ضعيفة امام لآلاء الكهرباء فانبعث يلتبس نوراً
جديداً واندفع الى ذلك بحرارة ايمان كلها عاطفة وكلها شعر وكلها
فيض والهام ! واين منا من سما لكمال بعاطفته فبكى للمذنب
ذنوبه ورأى فيه اخا احق برحمة الله ممن لم يجترح فى الحياة اثماً !
واين منا من اهتزت كل اعصاب الا لم فى نفسه امام ما سى القدر
يفجع بها الابرياء كل يوم فثار على القدر ثورة الجبارة ؟! اوليس
واجبا علينا ، وذلك شأننا من ثورتنا لحرية الأُذب، ان نكون
رحماء بهؤلاء الشعراء الذين لا يرون بنات الشعر لانها مغلفة
ملقاة فى غيابات الماضى، والذين لا شيطان لهم يستمعون الى وحيه
لأن شياطين الشعر لا تلهم الا احرار الحس والشعور والخيال .
وهلا يجوز لغيرنا اذا رأى ما بينت من حالنا ان يهيب بنا : رفقاً
بالقوارير ، وان يذكرنا بكلمة السيد المسيح « من كان منكم غير
ذى وزر فليبرمها بحجر »

وسنظل معشر الكتّاب قاصرين دون التعبير عما يحول
بعواطفنا حتى تنحل القيود التى تربطنا وتفتح امامنا الميادين التى
ما تزال مقفلة كما تفتحت الى اليوم ميادين اباحت لنا الوصول فيها
الى تطور الكتّابة تطوراً يسر لنا التعبير عما يحول بخواطرنا بعد
تلك الثورة القوية التى قام بها الذين سبقونا والتى ما تزال الى اليوم
مستمرة تريد ان تفتح من الابواب ما لا يزال مغلقاً .

٨ ولا سبيل إلى جدة الشعر الا ان تؤدي إليها ثورة كالتي ادت
 إلى جدة النثر . وليست الثورات السياسية ولا الانقلابات الاجتماعية
 ادوات هذه الثورة في الشعر مالم يكن لها اساس عميق سنده
 الشعور الانساني الصحيح لا المصالح الحاضرة والشهوات الوقتية .
 وما للشعر وهذه المصالح والشهوات !! انه لا يلبث اذا تناولها ان
 يسمو بها الى مراقيه التي تحلق فوق وضيع المطامع ويكسوها هالة
 من جمال وجلال ويستصفي الخالد من آثارها ويتغنى به ويخلده .
 انظر الى الشعر الغرامي . ليست جوليت وليست ليلي وليست هلويز
 لذواتهن شعر الشاعر ، انما الشعر مافي جمال اولئك ومافي عاطفتهن
 من خالد يتنقل على الاجيال فيشدو به الشاعر ويسبغ عليه كل
 ما واثاه به العلم والفن والخيال من مشاعر وصور . وكما ان الحب
 عاطفة تحرك الشاعر فالايمان عاطفة تحركه والشفقة كذلك عاطفة
 تحركه . وتووسنا بحاجة إلى غذاء من الايمان / كحاجتها الى غذاء
 من الحب . ولن يكون إيمانها شعراً إذا هو كان إيماناً مطمئناً ،
 كما لن يكون الحب شعراً إذا هو كان حباً مطمئناً . بل لابد ، في
 الحب وفي الايمان وفي الاشفاق وفي الحرية وفي مختلف مظاهر
 الطبيعة وفي كل ما تتأثر به النفس ، من مجال لمطمح إلى غاية تكون مثلاً
 أعلى واملاً سامياً لتفيض به النفس شعراً وليكون لهذا الشعر على
 الزمن بقاء . فأما مادون ذلك من أثر هذه العواطف في النفس
 فالشعور به مشترك بين الناس جميعاً والافضاء به لاشيء من الشعر
 فيه ، وإن أمكن ان يكون فيه نظم وكلام نقيم وفصاحة وبلاغة
 وبيان بديع

وهذا هو ما يجعل لصديق طه كل الحق حين يأخذ الشعراء بأنهم
يجمعون شعرهم بعض ما تزين به حفلات التكريم والتأين وافتتاح
الميوتات المالية ، وما يجعل كل انسان على حق حين يعيب شعر
المناسبات ، وحين يعيب اكثر الشعر العربي الحديث لانه اكثر شعر
مناسبة . والامر كذلك في شعرنا الحديث بنوع خاص انما كانت
المناسبات التي تلهمه ليست مناسبات تحرك نفس الشاعر وتزعجها
فتدفعها للافاضة بكون ما في نفسه حتى تراك ماتكادته تخطى بعض
الايات المتصلة بالمناسبة حتى اذا إلهام الشاعر من مجموع الحياة قد
تجلى وقد غمر المناسبة وسما فوقها واتصل بحياة الوجود كله على
نحو ما حركت الثورة الفرنسية نفس جيتي او ما حرك زلزال لشبونه
نفس فولتير ، وانما هي مناسبات تافهة اغلب امرها كالمناسبات
التي توحى ما يلقى من الشعر في الحفلات . فاذا هي بلغت من القوة
والسمو ما يحرك نفس الشاعر ويثيرها ويذكى فيها اقوى المعاني
واروع الذكريات رأيت ذلك وقف من إلهام شعرائنا عند قصائد
قصيرة لا تتجاوز الاربعين أو الخمسين أو الستين بيتا ، ورأيت سمو
الالهام لا يتصل في هذه الايات كلها فياضا متدفقا آخذا بعضه
برقاب البعض ناقلا إياك معه الى السموات التي ارتفع الشاعر اليها ،
بل وقف سمو الالهام هذا عند ابيات منشورة هنا وهناك خلال القصيدة
من الشعر كلها رصينة النظم واللغة ، لكن الالهام فيها لا يعدو ان
يكون بروقا خاطفة تأخذ بالنظر كلما انارت ولكنها ما تلبث ان
تخبو لتحل محلها الصنعة في الشعر والتجويد في النظم . واذا كان مرجع
ذلك في المناسبات العادية الى ان شعر المناسبات ضعيف بطبعه لان

الالهام فيه ينطبع في النفس من حوادث خارجة عنها بينا الالهام في
الشعر الصحيح داخلي يصدر عن النفس ذاتها ويهتز له كل وجود الشاعر
لانه القميص المضيء لدخيلة حياته ولكل ايمانه ولكل عواطفه وكل
وجوده، فان قصور المناسبات الكبرى عن الهام شعرائنا اكثر مما
الهم زلزال مسينا حافظ ابراهيم وموقعة ادرنه وانتصار الاتراك بعد
الحرب الكبرى قصائد شوق في هذه الحوادث إنما يرجع الى
ضعف ثورة النفس والى هذه السكينة المطمئنة التي اشترت اليها
والى الاكتفاء بمحاكاة السلف ومعارضتهم والنسج على منوالهم.
١٠ والى ان تحدث هذه الثورة سيظل الشعر في جموده، وستظل
المعاني الشعرية الصحيحة نادرة جد الندرة، وستظل الاوزان
الشعرية واقفة وقوف الموسيقى والغناء. وسيل هذه الثورة ان
تظمأ النفوس لحرية الاحساس والعاطفة كما ظمئت من قبل لحرية
الفكر وحرية التعبير عنه. ولست ارجو ان يكون هذا الظمأ شأن
السواد وان رجوت ان يتقرر حقه فيه. لكننا ارجوه للأفذاذ
الذين يحملون على عواتقهم اعباء النهضات الكبرى التي لا طريق
لها غير الثورة. هؤلاء الافذاذ يجب ان يكونوا في حل
من كل قيد للذهن او للحس او للشعور لكي يهديم الهامهم المذهب
بكل ما اورثنا الماضي وما يحيطنا به الحاضر من آثار الفكر والفن
الى المستقبل المستور بحجب الغيب، والذي لا يفتح إلا لهؤلاء
الافذاذ الذين ينظرون ببصيرة الشعر فيه. فاذا وجد الافذاذ ودفعهم
الظمأ للحرية الى تحطيم القيود التي ما تزال تربط الشعراء في اكثر
نواحي حياتهم وسموا بشخصياتهم الممتازة فوق عواطف السواد

وشهواته وحلقوا يريدون إرضاء نفوسهم وعواطفهم واذهانهم ،
 أن للشعر أن تتجدد معانيه وأوزانه وقوافيه ، وصلوا أداة صالحة
 للتعبير عما يحيش بالنفوس وتضطرب به الخواطر .

(١١) ووسيلة الشعراء الى كسب حرية الشعور والعاطفة والتعبير عنهما
 ميسورة لمن أراد بلوغ هذه الغاية السامية . تلك أن يطلب الشعراء
 الكمال لذاته لا رغباً ولا رهبا وأن يسموا فوق مطامع المادّة ومزاق
 الذلّة والخضوع لوضيع الشهوات وأن يجاهدوا لتحلل من رق
 الأسار الذي ارتبطوا به مع الشعر العربي القديم . ولعلمهم اذا رجعوا
 الى تطورات الشعر الغربي في العصور الأخيرة كان لهم فيه مثل .
 فقد أعلن رنسا مذهب بعث الادب اليوناني والروماني في القرن
 السادس عشر ، ووجد هو ومن تابعه في هذا الادب فيضاً ظل يلهمهم
 قرنين كاملين . لكنهم كانوا في ذلك ينقلون ذلك الادب القديم من
 لغاته الى لغتهم فتبدل له جدة عند الجمهور الذي لا يعرف اللاتينية
 ولا اليونانية . فلما كان القرن الثامن عشر انتفض الشعراء في أوروبا
 على هذه القيود القديمة وأعلنوا حرية الشعور والشعر وساروا به
 الخطى الواسعة التي بلغت الشأو الذي أدركه اليوم . وها نحن أولاء
 مضت علينا اجيال ونحن مقيدون بالشعر العربي القديم معاني وأوزاناً .
 أفما آن أن يكون لنا شخصية مستقلة وأن يعلن شعراؤنا حرية
 الشعور والشعر وأن يقولوا بوحى نفوسهم وإلهام حياتهم لا بوحى
 الأقدمين وإلهامهم ! أو ما آن لشعرائنا أن يرتفعوا فوق ذلك
 المستوى الذي تضطربهم اليه ذاكرة الجمهور اضطراباً فيجذبون الجمهور
 اليهم كارهاً بادىء الرأي ثم سعيداً بما أكله عليه بعد ذلك ! أما

آن لهم أن لا يتأثروا بتمليق الناس وبحاجاتهم المادية فيكون شعرهم
شعر النفس الفياضة لا شعر الظروف التي لا شعر فيها .

ولست كبير الرجاء في مقدرة الشعراء الذين كونهم العصر الماضي
على أن يغالبوا ما نشأوا عليه وان يزدروا ثناء الجمهور وتصفيقه
ولو كان هذا الازدراء سبيل الكمال . فليس يسيراً على النفس أن
تغير من عاداتها ما أصبح منها بمكان الطبع . ولست ادري ان كان
الناشئون اليوم يستطيعون ابداع هذا الذي ادعوا اليه من الاستقلال
ومن البحث في ملكوت الشعر عن المثل العليا على نحو ما يصورها
عصرنا الحاضر في الحب والحق والشفقة والحرية والايمان والشك ،
ومن ارسال خيالهم يتغذى مما أنبت العلم والفلسفة في هذه الشؤون
كما تتغذى النحلة من رحيق الزهر لتخرج للناس شهداً شهيماً .
وكيف نثق بالناشئين ولما يظهر منهم أحد مستقلاً عن كبار شعرائنا
مرسلاً الى الناس من فيض شعره ما تبرههم جدته وما تهزهم قوته وما
يرون فيه من الروح ومن الموسيقى غير ما ألقوا ، ثم هم يرونه مع
ذلك ذا جلال وروعة !

وإنما رجاؤنا ان تصدر الثورة المجددة التي ينبعث أصحابها في
طلب الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد الذي يتلقى العلم اليوم
والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقينه اياه على غير تلك القواعد القديمة
التي كانت تبعث الجود الى الاذهان والقلوب والعواطف . وعلينا
اذا اردنا معاوته على القيام بهذا الواجب ان نعاونه على تقرير
حرية العاطفة بمقدار ما اعناه على تقرير حرية الفكر ، وان نوسع
امامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ، وان نعرض

عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار.
 فإذا نحن قننا بهذا الواجب كان لنا أن نأمل من بين هذا الجيل الجديد
 أولئك الافذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة والذين
 يجعلوننا نحس اذ نلشد شعرهم بأئتلاف جوارب نعمته مع سائر انعام
 الحياة الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى لنفسنا كمن يشدو بقيثارته
 وسط الاطلال يريد ان يبعث امام خياله حياة ليس لها بشيء مما
 في حياته اتصال .

متى وجد هؤلاء الافذاذ آمن رافعوا لواء الشعر بأن واجباً (١٤)
 عليهم أن يقتحموا ميادينهم بروح جديد . روح غير هذا الروح
 الاثر الذي يحصر شعراءنا أكثر الامر في دائرة ضيقة من عواطفهم
 الوقتية أو تفكيراتهم السطحية أو أخيلتهم القليلة الارتفاع ،
 وأن يقتحموا الميادين الجديدة بروح منبسط قد ير على أن يخلق
 في جو العالم كله ويتصل به ، ملقياً عن كاهله حدود المسكان والزمن ،
 مرتفعاً الى السماوات العلى ، متصلاً بالملائكة والشياطين ، ثائراً على
 كل عتيق بال ، متوثباً في ثورته لينتظم آلهة الاغريق والمصريين
 القدماء وما خلفت الميثولوجيا في الامم والعصور المختلفة في تحليقه
 وسموه ، مجاهداً لينقذ ذلك كله ويصهره ويخلق منه في عالم الشعر
 خلقاً جديداً . وأحسب أن اقتحام ميادين الشعر الجديدة بهذا
 الروح ، كما أن غزو الصالح من الميادين القديمة بهذا الروح كذلك ،
 كفيلاً بأن يدفع بالشعر الى صدر النهضة ، وأن يجعل منه الأداة
 الروحية القوية التي تحطم الكثير من الاغلال وترقع بالانسانية في
 سماء الحرية والحب والحق والجمال .

(٥) وهذا الروح يجب له قبل كل شيء أن يرتفع بالشاعر عن شعر
المناسبات الى ما يصدر عن وحي الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر،
ويجب أن تكون غايته تصوير الكمال في صورتاً تأخذ بمجامع نفس قارئها
وسامعها وتطير بها على أنغام الشعر الموسيقية لترتفع فوق مستواها ولتبرز
نفسها ولتجس معنى الكمال إحساساً عميقاً يشعرها ضرورة الدأب
للجهاد في سبيله. وتجعلها اذا قرأت شعراً يصورها الكمال في الحب
أو الكمال في الحرية أو الكمال في الأمل أو الكمال في الألم أو
في أي ماشتت من معان وعواطف وأخيلة أثرية الحدود دائمة
الاتساق والاتساع شعرت بأن في الحياة معاني غير هذه المعاني
التي يحسها الناس ويجعلونها غاية جدتهم ومنتهى أملهم، وشعرت بأن
وجودها الحى بيننا يقتضى دوام محاولة السمو لدرك هذه الغاية.
وكما تنزهت هذه المعاني عن مناسبات الحاضر وبلغت في روعة
تصويرها ما يرجى للكون كله من كمال كان الشعراً أكثر شعراً
وأكثر أداء للغرض المقصود منه وأكثر تحقيقاً لرسالته السامية
في هذا الوجود.

فن القصص

تسكاد انقصة اليوم في الغرب تستأثر بالأدب المنشور كله . وهي لا ريب تتقدم كل ماسواها من صور هذا الأدب . فالرسائل التي كانت ذات مكانة سامية في زمن من الازمان قد اختفت او كادت ، وانقطع الوصفية انقائمة بذاتها ، والمكاتبات الأدبية الطريفة الاسلوب ، وما الى ذلك من انواع النثر ، قد اندمج في القصة واصبح بعض ما تشتملها . وانت اذا سمعت اليوم بكتاب رسائل لكتاب معروف كحديقة ايقور لانايل فرانس والحكمة والقدرة لما ترلنك وغيرها من مثلها لم تجد لها في عالم الأدب من المكانة مثلاً كان لرسائل مونتني في القرن السادس عشر ولبعض رسائل روسو وفولتير في القرن الثامن عشر . واصحاب هذه الرسائل انفسهم انما يكتبون كتب رسائلهم على سبيل التنويع بين العدد الكبير من القصص التي تجود بها قرائهم . ولم يذكر كاتب في النقد الحديث ان كتاباً من كتب الرسائل قد اثر في سيرة الجماعات اثر قصة من القصص ، في حين يذكر كثير من هؤلاء الكتاب ما كان لقصة اميل في التربية (لروسو) ولرواية فرتير الخالدة (لجيتي) ولبعض روايات فلوير وزولا وفرانس وبول بورجيه وغيرهم من بالغ الاثر . بل ان كثيرين ليعترفون بان القصة الروسية في العصر الاخير منذ توليها

No. It should be the function of a novel to expand people's

Le Jardin d'écriture de Anatole France

دستوي فسكى وتر جنيف وتلستوى كانت ذات أثر بالغ في توجيه الحياة
الاوربية كلها .

ويذكر مؤرخو الآداب ان فن القصص على الصورة المعروفة
اليوم في الغرب فن حديث . لكنهم يذكرون كذلك أن القصص
لذاته قديم يرجع إلى أيام اليونان ويرجع الى ما قبل أيام اليونان في
مصر والصين . ويسير أن يقدر الانسان قدم القصص وانه نشأ مع
الانسانية منذ نشأت ثم تطور بعد ذلك في صور مختلفة إلى أن
وصل إلى الصورة الفنية المعروفة اليوم في الغرب . وأقرب دليل على
ذلك ما نشاهده من ارتياح الاطفال للقصص وانصاتهم لها وعظيم
استمتاعهم بها . كذلك نرى أشد أنواع الأدب أثراً في نفس الجماهير
أيما كان مبلغ الحضارة التي بلغت ، هو هذا النوع . وهؤلاء «الشعراء»
الذين يذهبون إلى الأرياف وإلى مقاهى المدن يقصون حكايات
عنترة وأبي زيد ودياب بن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم
القصصي هذا مالا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور
الأدب . والأطفال والدهماء هم صورة الانسانية في بدء حياتها .
وإذن فقد كانت هذه الانسانية مولعة بالقصص منذ نشأتها ، وقد
كانت القصة من أولى الصور للفن الأدبي ظهوراً فيها .

إلى جانب هذا الدليل دليل آخر يضارعه قوة أو يزيد عليه .
ذلك ان الحياة من اولها الى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة
باختلاف الافراد واختلاف الأزمنة والامكنة التي يعيشون فيها .
ثم ان حياة كل فرد من الافراد تتكون في مجموعة من القصص
الصغيرة او الكبيرة . وماذا تراك تذكر لصاحب لك حين تراه

بعد انقطاعك عنه اياما او شهوراً او سنين ؟ اولا يسأل كل منكم
الاخر عما فعل الله به اثناء انقطاعكما فيقص عليه صاحبه ما حدث
له في هذه الاثناء وما وقعت عليه عينه او اتصل به خبره والقصة
كهن لا تزيد على جمع هذه الاخبار التي يتحدث الناس بعضهم الى
بعض بها واختيار طائفة من بينها وخلق صورة حية منها تمثل عالماً
خاصاً له مميزاته واشخاصه وما وقع لهؤلاء الاشخاص من خير
وشر وما اثروا في البيئة المحيطة بهم وما تأثروا بهذه البيئة .

ونحن واجدون من رواية التاريخ ما يعزز هذين الدليلين ^٢
ويزيدهما قوة . ولسنا في هذه السبيل بحاجة الى استقصاء تاريخ
الامم المختلفة في الازمان العريقة في القدم . بل يكفي ان نرجع الى
التاريخ الديني والى الكتب المقدسة نفسها . فهذا التاريخ يقص
على الناس من اخبار من تقدمهم ما فيه لهم موعظة وعبرة . والتاريخ
لذاته ليس إلا قصصاً يسبق عليه كل مؤرخ من خياله ما يسبق على
حياته قوة وفيضاً . كما أن القصة ليست إلا تاريخاً إن يكن أبدعه
خيال كاتب أو أديب فهو إنما أبدعه من واقع الحياة .
وكثيرون من القصصيين يلجأون الى التاريخ يستلهمونه مادة
قصصهم كلها . فوالتر سكوت في انكترا واسكندر دumas في فرنسا
إنما اتخذوا من تاريخ انكترا ومن تاريخ فرنسا مادة قصصهم جميعاً .
وهم قد أسبقوا على هذه القصص من خيالهم قوة تجعلنا نتشكك الى
حد كبير في صحة كل الوقائع التي يروونها وإن كان خيالهم يزيد هذه
الوقائع رواء وروعة عما كانت الوقائع التي حدثت بالفعل . ومن لا
يلجأون الى التاريخ من القصصيين إنما يلجأون الى ملاحظة الواقع

امامهم وتدوين مشاهداتهم في قصصهم. وهذا هو الآخر نوع من التاريخ. هو تاريخ الحاضر في حين ان السابق تاريخ الماضى. ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون الى ما كتب في عصر من العصور من قصص وما وضع اهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورة صحيحة من الجمعية التي عاش هذا الأدب بين اظهرها. هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الدينى للدلالة على قدم القصص. كذلك جعلنا نستشهد بهذا التاريخ انه لم يروى ما روى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها ، وانما رواها عبراً ومزجراً. والرواية للعبرة والزجر تقتضى اختيار وقائع معينة من حياة من سبقوا يكون فيها موضع العبرة ، كما تقتضى صياغة هذه الوقائع فى الاسلوب القوى الذى يدخل العبرة الى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن ان تفهمها. والقصص المؤرخون الذين يكتبون بهذا الاسلوب ولهذا الغاية يقيمون فناً من فنون الادب ، ومن اسمى فنون الادب. ولقد اتهم الأدب العربى القديم خطأً بخلوه من القصص. وكانت دعامة أصحاب هذه التهمة أن ليس فى الأدب القديم من القصص والقصائد القصصية المطولة مثلما فى تاريخ اليونان. لكن القصص كما أسلفت قديم. وهو فى الحقيقة قوام الأدب العربى المنشور كله. وبحسبك ان ترجع الى أى كتاب من امهات كتب الادب لتراه جامعاً بين دفتيه من الاقاصيص القصيرة ومن انقصص الطويلة مالا شبهة عندى فى ان الخيال كان له الاثر الاول فى وضعه ، وانه لذلك بعض فنون الادب. ولهذا لا يصح اخذه حجة تاريخية على

الوقائع التي رواها وان صح اتخاذ حجة على تقسية الأمة الاسلامية في الاوقات التي انشئ هذا الادب فيها واعتباره وثيقة وسنداً تاريخياً من هذه الناحية . وبحسبك ان تعود الى كتاب الاغانى والى كتاب العقد الفريد والى كتب الامالى لترى مادة الأدب فيها مقصورة على رواية قصص الغرام او الحماسة او ما اليها من انواع الرواية . ويتعذر على ان اعتقد ان الرواية التي يروونها عن حروب وائل وما فيها من الاشعار المنسوبة لجميلة ولغير جميلة تمثل وقائع تاريخية . ولست بهذا انكر وقوع هذه الحروب كما لا انكر جمال الرواية التي رويت عنها وما للعرب في ذلك على التاريخ والأدب من فضل . لكنني اعتقد ان الرواية الادبية الجميلة التي وضعت لهذه الحروب والاشعار التي وضعت على لسان ابطالها إنما وضعها اديب قصاص اراد بما خلعه عليها من روعة الفن ان يجعلها اعذب في النفس واسلس مدخلا اليها . وهو في ذلك انما صنع ما صنع هو ميروس حين وضع الياذته واجرى فيها على لسان ابطال تاريخ اليونان ما اجراه من ادب رائع هو لليونان فخر لانه من وضع هو ميروس اليوناني ، وهو لتاريخ اليونان فخر كذلك لأنه يمثل بطولتها وشهامتها في خير صورة يمكن ان تمثل فيها . وكتاب الاغانى فيه من هذا القصص الادبي البالغ ذروة الفن الشيء الكثير ، وان هو لم يكن قد نسج على منوال القصة الحديثة ، لأن القصة الحديثة لم تظهر في الغرب نفسه — على ما يقول الباحثون استناداً الى مؤرخي الادب الغربي — الا منذ قرنين اثنين .

ولقد تطور الأدب القصصى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
في أوربا في صور واللوان عدة. وهو لا شك سيتطور من بعد في صور
واللوان عدة أخرى. ذلك بأن القصة تمتاز على غيرها من صور الأدب
بأن ليس لميدانها حد إلا الخيال، وليس لتطورها آخر إلا ما ينتهي
إليه تطور الجماعات إن أمكن أن يكون لهذا التطور نهاية. فهي بعد أن
تحررت من قيود الأدب اليوناني والأدب الروماني، في القرنين
السادس عشر والسابع عشر، تطورت من الأدب الوجداني الذي أنشأه
روسو بقصته الكبيرة (هلويز الجديدة) إلى أنواع متعاقبة من
الأدب أطلقت عليها أسماء مختلفة حسب النماية التي يتوخاها القصاصون
من قصصهم، فسميت الأدب الواقعي، أو الطبيعي، أو النفساني،
أو التصويري، أو الأخلاقي، أو الفلسفي، أو ما إلى ذلك من مسميات
ليس من غرضنا هنا تحديدها ولا الحديث عنها. لكن ما لا ريبه
فيه إنما كانت تمثل صورة من ميول العصر وأخلاقه ونزعات أهله،
وبخاصة من يتجه هذا الأدب إليه منهم. فسكنا أن أدب القرن
الثامن عشر كان يتجه قبل كل شيء إلى الذين تجمعهم الصالونات
والذين كانوا يضعون العواطف والغرام فوق كل اعتبار آخر،
ولذلك غلب الأدب الوجداني فيه ماسواه، وكما أن أدب القرن
التاسع عشر كان أكثر ذيوغاً بين طبقات الأمة وأكثر تأثراً بالمبادئ
العلمية التي ظهرت في ذلك العصر، ولذلك تخطى الوجدانيات الغرامية
إلى تمثيل الواقع فيما كتب زولا وفلوبير وموباسان على اختلاف النزعة
التي نزع إليها كل واحد منهم، كذلك تخطى أدب القرن الذي
نعيش فيه — والعهد الأخير من القرن التاسع عشر — الرياليسم

والناثور السم ، الى صور اخرى بدت مختلفة في ادب لوتي وانا تول
فرانس وبول بورجيه وجول لومتر وغيرهم ، ولكنها تعبر جميعاً عن
ميول العصر العلمية وعن الحرص على الطرق التحليلية في البحث
وعما تدفع اليه هذه الطرق التحليلية في احيان كثيرة من التشكك
واللاأدرية . وهما نحن اولاء نرى في وقتنا الحاضر الرواية النفسانية
تجاوز الرواية الاباحية ، لان هذا العصر الذي تمخضت الحرب عنه
لما يمتد الى سبيل تتحد فيه الغاية وان اختلفت فيه وجهة النظر ،
وهو مدى يجمع بين المتناقضات ، لعل احتكاكها يثير منها شراً
يزيده الطريق الى الحق والى السعادة بعد ما انهم عليه هذا الطريق
وبعد ماضل فيه رشاده .

نستطيع أن نقول ان القصة تطورت في الأدب العربي بما
يجعلها تمثل عصوره المختلفة الى عصرنا الحاضر . واذا كانت لدينا
بعض قصص تمثل تفكير عصر من العصور كما تمثل قصة حي ابن
يقظان التفكير الديني الحري في عصر ابن الطفيل ، فان ما يزهى به
الادب العربي بعد ذلك من قصص فيه من الخرافة الشيء الكثير .
هي لا ريب خرافة قوية ، لا تقل روعة ولا انفساح خيال عن
اساطير الميثولوجيا المصرية واليونانية القديمة ، لكنها مع ذلك
تمثل حالاً نفسية لعصور لا غلو في تسميتها عصور التدهور . فكتاب
« الف ليلة وليلة » الذي جمع القصص الرائعة الخيال الباهرة التركيب
والذي لا يزال عند الامم كلها يعتبر مصدراً من مصادر الادب القوي
لا يخلو في كثير من اجزائه من الخرافة التي كانت سائدة في العصر

او العصور التي كتب فيها . وبرغم ما فيه في كثير من الاحيان من دقة تصوير الواقع من حياة الاسرة وحياة الجماعة تصويراً مضبوطاً قائماً على اساس من الملاحظة الصحيحة فان ما يبلغه الخيال فيه من رسم صور الجن واخبارهم ومن الحديث عما في الهند والسند وغيرهما من آثار لم تعرفها الهند والسند إلا في مخيلة اصحاب هذا الكتاب العربي ، يدل على عقلية خاصة كانت تسيغ هذا النوع من التفكير وتعتبره مصدراً للحقيقة . فأما قصة عنتر والوزير سالم وسيف بن ذي يزن ورأس الغول وما اليها فدون الف ليلة وليلة في خصب الخيال وان كانت تزعم انها تعتمد على وقائع التاريخ اعتماداً قصصياً ليست له روعة الف ليلة وليلة ولا قوته ، وهي مع ذلك تصور الحياة العقلية للعصور التي ظهرت فيها وتدل على ميول اهل تلك العصور ونوع حياتهم .

٨ وقد تكون هذه القصص التي ذكرنا اخر ما نعرف من القصص العربي . وهي على الأقل آخر ما نعرف من القصص الذي يستحق ان يضع الانسان شيئاً من وقته في قراءته . ثم كانت بعد ذلك فترة ركبت فيها القصص حتى في صوره التافهة كما ركبت سائر صور الأدب . وقد لا يجازف من يقول بأن القصص يحاول الآن استعادة حياته . على ان الأقاصيص الصغيرة التي تظهر من حين إلى حين والقصص التي لم يظهر بعد منها ما يعد على الأصابع ما تزال بعيدة عن ان تعتبر بعثاً لهذا النوع من الأدب . ذلك بأن القصة ، ايا كانت الحوادث التي تروى بها ، انما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى في نفس كاتبها . لتكن هذه الفكرة تافهة وليكن المثل الأعلى وضيقاً ، فهما على

كل حال يترجمان عن غرض يتطلع صاحب القصة اليه . بل ان القصص التي تكتب للتسلية ليس غير (والتسلية العامة لا الخاصة كالقصص البوليسية ونحوها) ، لا يمكن ان تخلو من التعبير عن فكرة في نفس الكاتب . فأما القصص التي تسمو فوق هذا المستوى ، وأما القصص التي تعتبر بحق أدباً وفناً ، فالفكرة والمثل الأعلى يتكرران خلالها واضحين في صور مختلفة وألوان شتى . قد يختلف وضوح الفكرة والمثل الأعلى باختلاف مقصد الكاتب . فقد تكون الفكرة ويكون المثل الأعلى هما الغاية من القصة ويكونان لذلكهما الواضحين فيها كما ترى في قصة حي بن يقظان وكما ترى في قصة إميل عن التربية لروسو وكما ترى في قصص الوزير الانجليزى الكبير دزرائيلى الذى كان كلما ترك الحكم والبرلمان عاد يكتب القصص يمثل فيها مايجول بخاطرهم من صور اصلاح الجماعة الانجليزية . وقد يكون قصد الكاتب الى غير الفكرة . قد يكون قصده فنياً بحتاً . لكن كل انسان واسع الخيال محب للجمال قدير بذلك على ان يبدع فى الفن ، لا يمكن ان يلهم فى فنه مالم تكن له فكرة يرمى اليها ومثل أعلى يطمح فى تحقيقه . فالادب فن . وكل واحد من ارباب الفن لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى لا قيمة لفنه ولا بقاء . والقصة فى الادب العربى الحديث ما زال أغلب أمرها تستلهم القصة الغربية مقلدة إياها فى صورتها غير صادرة فى نفس الوقت عن فكرة ومثل أعلى يجركان نفس صاحبها . واذا كان التقليد فى أغلب الأحيان مقدمة البعث ، وكان تقليد الأدب اليونانى والرومانى مقدمة بعث أوربا فى القرن السادس عشر ، فان البعث الصحيح هو الذى يقوم

على فكرة ويلهم مثلاً على . فالى أن نصل الى التأليف القصصى القائم
على هذا الأساس فنحن انما ننفع في حياة القصص روحاً تقليدية
صرفة ، روحاً لا يسمى بعثاً حتى يستقل بنفسه ويستمد كل مقومات
حياته من البيئة المحيطة بالكاتب ومن القومية والوراثة التى يخضع
الكاتب لاثرها .

والحقيقة ان القصص على انفساح ميدانه وتشكل صورته وألوانه ،
لا يكفى فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون
ذا قيمة تكفل له أن يحشر فى ظاهرات فن الأدب . لذلك كان
الكتاب القصصيون الذين استحقوا البقاء وحفظ لهم التاريخ شيئاً
من التقديس من ذوى السعة فى العلم والاطلاع الى جانب ما لهم من
موهبة الفن فى التصوير والأسلوب . هؤلاء يحرك اطلاقهم فى
نفوسهم الافكار المختلفة وينتهى بهم تفكيرهم الى مثل أسى يطمحون
اليه . وقد ينحو غيرهم ممن لم يوهب هبة الفن نحو آخر فى تدوين
ما هدته اليه أفكاره وتصوير المثل الأعلى الذى يرجو أن تصل
الانسانية اليه . من بين هؤلاء الفلاسفة والحكماء . لكن الفلسفة غذاء
جاف للسواد الأعظم من الناس فهم لا يسيغونه ولا يطبقون هضمه .
أما القصة التى تحتوى هذه الفلسفة وتلك الحكمة فتشتملها على
صورة غير تلك الصورة المطلقة الجافة . هى تحتويها بعينين عن
التجرد ملاسين للحياة فى مختلف صور الحياة على ما يعرفها السواد
بحواسه لا على ما يستشفها الحكيم والفيلسوف ، بنطقه وبصيرته .
هى ترسم الحياة على ما يراها ويحسها عامة أهل الحياة ، وترسم معها
ما فى الحياة من حقائق وما تصبو الحياة اليه عن طريق المثل الأعلى

من كمال . . وهي ترسم ذلك متصلاً بعواطف الناس ومشاعرهم وبالواقع المحسوس في الكون وبالمشاهد في الافلاك وبما سوى ذلك مما لا يستعصى على الادراك ولا يحتاج لا تقطاع خاص ولدراسة خاصة قد يحولان دون الشخص وأن يدرك كثيراً مما في الحياة غير ما انقطع له واختص به .

وقد حدث طبيعة الفن القصصى هذه ببعضهم الى القول بأن
١٠
الادب انما يعبر عن انصاف الحقائق على حين تعبر العلوم وتعبر الفلسفة والحكمة عن الحقائق عريانة واضحة في جميع نواحيها . ولست أدري هل التعبير عن الحقيقة الكاملة مما يدخل في باب الممكنات وها نحن أولاء ما نزال نرى العلم يهدم مقررات العلم نفسها الحين بعد الحين ، كما أنه لا يفتأ يهذب هذه المقررات في آونات متقاربة . على أنه إن صح ان الفن يعبر عن انصاف الحقائق لا الحقائق الكاملة فإن ما في طبيعة الفن من سهولة التناول بما يمكن القارئ من التحصيل منه أضعاف ما يحصل من مقررات العلم قد يكشف له أنصافاً وأنصافاً من الحقائق يجلو له الحقيقة كاملة آخر الامر . وبعد فهل يستلهم الفن غير العلم في آخر صورته ؟ وهل يعبر إلا عن آخر مقرراته ؟ هذا الى أن الفن كثيراً ما يسبق العلم الى الكشف عن الحقائق ، وكثيراً ما يصل الهام الفنان الى ما تضرب أمامه أدوات العلم عصوراً وعصوراً قبل أن تصل الى اقرار ما كشف الفن عنه . وإن كثيرين من العلماء الجنائيين وغير الجنائيين ليرون في كثير من روايات شكسبير أقباساً من الهام الفن كان يعتبرها العلماء بعض نزغ الخيال في الماضي ثم انتهى العلم الى الاعتراف بصحتها

ودقتها . من ذلك وصف شكسبير لمكبث حين قتل دنكان وظل
ويده ملوثتان بالدماء يضطرب أمام جريمته ويناجي نفسه بأن ما في
الارض من بحار والغيث يمدّها بتهتانه لا تكفي لتطهير يده من
الدم . كم رأى الناقدون في هذا من عبث الخيال حتى اثبت العلم الجنائي
صحة ما ذهب اليه شكسبير من أن الجاني لا يحرص ، في فزعه مما اجترحت
يداه ، على ستر آثار جنايته بينما هو شديد الحرص على التمسح بهذه الآثار .
كذلك قل عن هملت وجنونه . فقد اثبت العلم ما بلغه الهام شكسبير
من توفيق لم يصل العلم اليه الا بعد مئات السنين من بعد شكسبير .
فاذا قيل مع هذا ان الأدب انما يعبر عن انصاف الحقائق كان لنا
ان نقول ان الادب ، والفن القصصى بنوع خاص ، هو الكفيل
بنشر ما يكشف العلم عنه من حقائق ، كما انه طليعة العلم في استلهاام
الحقائق يضعها أمام العلماء لبحثها وتحقيق صحتها .

١١ وللفن القصصى الى جانب ذلك فضل الهام غيره من الفنون
الجميلة . فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر بل من
الموسيقى نفسها الى التقاط صور حياة الجماعة التي يعيش فيها واثباتها
على الورق . ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة في
المستقبل وتصوير المثل الأعلى التي تصبو الى تحقيقه .

١٢ وكم من القصص الخيالية حاول أصحابها فيها أن يصفوا حياة
الجماعة على ما يجب أن تكون ، وان يصوروا المدينة الفاضلة ، اذا
نحن أردنا ان نستعير عبارة الفارابي . وكم من قصص اريد بها
التهديب والتعليم . وكم من قصص غيرها قصد بها الى مختلف
الاغراض مما يجعلك في حل من القول بان مكان القصة من الفن

الادبي يتناول نواحى هذا الفن الادبى جميعاً كما يلهمهم الفنون
الاخرى أجمل إلهام واسماه .

مع أن هذا شأن القصة وهذه مكانتها من آداب الأمم المختلفة
فإنها ما تزال فى ادبنا العربى فى حال من الركود حتى لنكاد نقول
إنها لم توجد . فالقصص التى كتبت فى نصف القرن الأخير تعد
على الأصابع . وإذا كان أدب الاقصوصة قد انتعش فى السنين
الاخيرة فإنه ما يزال فى بدايته من ناحية، والاقصوصة شئ والقصة
شئ آخر فى فنون الأدب من الناحية الأخرى . فما هى العلة فى ضعف
أدب القصص وفى فتوره وركوده؟ هذا ما يتناوله بحثنا فى الفصل التالى .

باب فتور القصص

ينشر الاستاذ « جب »، الاستاذ بمعهد الدراسات الشرقية في لندن، دراسات مستفيضة باللغة الانكليزية عن الادب العربي الحديث. وقد تناولت هذه الدراسات النثر العربي والشعر العربي وسائر فنون الادب العربي الحديث في هذه الفترة الأخيرة من حياة مصر الادبية، كما تناولت تطور الادب في القرن التاسع عشر وتأثره باديء الأمر بالأدب العربية القديمة وبشعر الجاهلية وعصور الاسلام الأولى بنوع خاص، ثم تأثره بعد ذلك بالأدب الغربية، وبالأدب

الفرنسية والانكليزية بنوع خاص. وقد وقف من بحثه عند فن القصص والرواية من فنون الأدب، وأشار الى أنها لم تتأصل بعد في الأدب العربية، وتكلم في هذا الباب عن قصص شوقي وعن « عيسى بن هشام » للمويلحي وعن روايات جورجى زيدان التاريخية ثم وقف وقفة خاصة عن « زينب » وقال انها الأولى من نوع القصص الحديث، وتحدث بعد ذلك عن « ابراهيم الكاتب » للاستاذ المازنى وأشار الى قصة « الايام » التى قص فيها صديقنا الدكتور طه حسين فصولاً من حياته تشعر وأنت تقرأها بأنك تقرأ عواطف فياضة تنتقل الى نفسك

وتتطبع فيها فتعجب بها الى جانب إعجابك بالالفاظ وموسيقاها
وجمال نظامها أشد إعجاب

ووقفه مستر «جب» عند فنون القصص والرواية في الادب
العربي ليس بالشىء العجيب ، وليست هى الوقفة الاولى من جانب
من تصدوا لدراسة فنون هذا الادب فى عصرنا الحاضر. فكثيرون من
المستشرقين ، ومن الكتاب المصريين أنفسهم ، وقفوا هذه الوقفة
متسائلين عن السبب فى عدم ذبوع هذا الفن من فنون الادب سواء
فى الشعر أو فى النثر بينما هو قد يقف من الادب الغربى فى الذروة
من كل فنونه. والحق أن هذا الاقلال الغريب فى فن القصة والرواية
يدعو الى العجب والى الدهشة . وهو كذلك بنوع خاص فى مصر .
فللمصريين فى تاريخ الادب القصصى مكان كريم ، إذ يرجع اليهم —
على أرجح الروايات — فضل وضع ألف ليلة وليلة وكثير من
القصص المتداولة اليوم والتي كتبت فى عصور سابقة لم تصل دراسة
الادب الى تحقيقها تحقيقا مضبوطا . ثم ان حب الرواية والقصص
فى الطبيعة المصرية ، حتى لتجد أهل القرى أحرص الناس على رواية
الكثير منها لابنائهم وذويهم وأصدقائهم فى الكثير من أوقات
فراغهم. وليست الحوادث الوجدانية بالقليلة ولا بالنادرة الوقوع
حولنا حتى تنهم الحياة المصرية بأنما قاصرة عن إلهام هذا الفن
إلهاما قويا . ومسارح القصة فى الطبيعة المصرية كثيرة ، كما أن لهذه
الطبيعة من الجمال وتعدد صوره وألوانه ما يعاون الكاتب على أن
يخلق لقصصه مختلف البيئات ذات الاثر فى إلهام عاطفة من العواطف
أو مأساة من المآسى أو مهزلة من المهازل . فكيف ، وهذا هو

الواقع ، يكاد الأدب العربي الحديث يخلو من القصة والرواية ؟
والى اى سبب يعزى هذا النقص المعيب فى فن مكاتنه من فنون
الادب المسكاة الاولى ؟

٢ يخلو لبعض الكتاب من المستشرقين وغير المستشرقين ، أن يعزو
السبب فى هذا النقص الى ضعف فى الخيال يحول بينه وبين تأليف مجموع
القصة . والى مثل هذا السبب يعزو اولئك الكتاب اقتصارا كثر
كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة . وما احسبني بحاجة
الى الاطالة فى دحض هذا الزعم بأكثر من الاشارة الى ما يقوله
كتاب الغرب وساسته طعنا على الشرق بأنه خيالى وبأنه لذلك لا
يقدر الطريق العلمية فى البحث ولا فى سياسة الدولة . وكيف يمكن
أن يكون الشرق خيالياً وضعيف الخيال فى وقت معاً ! ولم يكون
خيالياً فى العلم والسياسة حيث يكون الخيال مفسداً ، ثم يضعف
خياله فى الفن القصصى للأدب حين يكون الخيال المتصل بواقع
ما فى الحياة هو المرشد الأول لاتقان هذا الفن ! أليس هذا كافياً
للدلالة على أن الاتهام بالاسراف فى الخيال وبضعف الخيال يقصد
به فى الحالين الى الطعن والتجريح لغايات لا ترضاها الحقيقة ولا
تعاون على حسن تقايم الامم بعضها مع بعض ، وان الغرض الحقيقى
منه تثبيت الايمان فى نفس أمم الغرب بأنها متفوقة على الشرق فى
كل شىء تفوقاً يجعل حقاً لها أن تحكم أمم الشرق هذه وتستغلها
من غير أن يكون فى ذلك اعتداء على ما للأمم من حق فى الحرية
والسعادة ! وليس أدل على أن هذه هي الغاية الحقيقية من تلك
الدعاية التى يلبسها أصحابها ثوب البحث العلمى والتاريخى والتى يؤيدون

بها ما يدعيه بعض ساسة الغرب من أن الاقدار التت
عليهم عبء تحضير أمم الشرق وتمدينها ، على حين أن مطامعهم هي
التى ألت عليهم عبء العسف بأمم الشرق والاستبداد بشؤونها .
ويعزو كتاب آخرون السبب فى نقص فن القصص والرواية فى
الآداب العربية العصرية الى اختلاف ما بين لغة الأدب ولغة الكلام
اختلافاً يجعل قراء الأدب الراقى قليلين الى حد يفت فى عضد الكتاب
ويصد هم عن المضى فى سبيلهم . وفى هذا السبب ظاهر من الوجاهة .
لكنه لا يعمدو أن يكون ظاهراً فى اعتقادنا . فان فن القصص فى
الأدب الغربى يرجع الى أول أيام « البعث » الأوربى فى القرن
الخامس عشر . وفى ذلك العصر كان بين لغة الأدب ولغة الكتابة
اختلاف لا يقل عن الاختلاف الموجود اليوم فى اللغة العربية بين
لغتي الكلام والكتابة . مع ذلك ازدهرت حياة الأدب فى أوربا
وكان للقصص والرواية مكان رفيع منذ القرن السادس عشر ، بل
منذ القرن الخامس عشر فى إنجلترا . فهذا السبب وحده لا ينهض
إذاً حجة للنقص الذى يلاحظه الكل فى شأن انقصة والرواية
العربية اليوم . ولا بد أن يقترب به سبب آخر لم يكن موجوداً فى
الغرب على حين هو موجود فى الشرق ، وهو الذى يدعو الى تثبيط
همة الكتاب عن انقصة والرواية . بل لعل هناك أكثر من سبب
واحد كما سنشير اليه من بعد

و يجب كذلك أن نهمل ما يتهم به بعضهم كتاب مصر والشرق
العربى من الميل إلى الكسل ومن قلة الانتاج . فكثيرون من
الكتاب المصريين ليسوا أقل خصبا فى الانتاج من أكثر كتاب

الغرب انتاجا . لكن انتاجهم لا يتجه كله الى ناحية القصة والرواية بل يتوزع مجهودهم في نواح شتى ، اذا هي جمعت دلت على عظيم ما يقومون به من مجهود وما يؤدونه إلى لغة بلادهم وآدابها من خدمة . وما أظننى مغالياً اذا أنا قلت أن كثيرين منهم أكثر مداومة للاطلاع وتدقيقه من كثير من كتاب الغرب ، كما أن منهم من هم أعمق بكثير من الكتاب في بعض أمم أوروبا المختلفة . ويكفى أن يرجع الانسان إلى آثارهم ما نشر منها وما لم ينشر ، ما جمع منها وما لم يجمع ، ليقتنع اقتناعاً صادقا بأنهم يقومون ، في هيئة لا تقدر عملهم التقدير المشجع ، بمجهود الجبارة ، ثم لا يبتغون من ورائه جزاء ولا شكورا .

ما هو السبب الصحيح إذاً في فتور الأدب العصري عن القصة والرواية ؟ أو بعبارة أدق ما هي الاسباب المجتمعة التي أدت إلى هذا الفتور ، وبخاصة في مصر حيث الميل إلى القصة أصيل في النفس منذ أبعد عهود تاريخنا حتى الوقت الحاضر ؟ أشرت إلى أن اختلاف لغة الأدب ولغة الكلام مما يراه بعضهم سبب الفقر في القصة والرواية ليس إلا سبباً ظاهراً لا يمكن أن ينهض وحده للدلالة على هذا الفقر ، وبخاصة أنه لم يحل في أول « البعث » الأوربي دون ازدهار هذا الفن من فنون الأدب . والواقع أن هذا السبب يجب أن يضاف إليه أكثر من سبب آخر ، ليكون بعض ما يمكن الاحتجاج به على هذه الحالة التي استوقفت نظر مستر جب واستوقفت من قبله أنظار كثيرين . وأول سبب يجب أن يضاف إليه ذبوع الأمية وعدم انتشار التعليم في الشرق انتشاراً كافياً . فهذه الأمية الذائعة تحول بين الجمهور وقراءة

القصص كما تحول بينه وبين الاستماع لها مع تقدير ما تحتويه من فنون الأدب ، لجهل الجمهور بهذه الفنون من جهة ، ولأنه لو استمع لها لما زاد ذلك انتشارها بما يعوض صاحبها العوض المادي الذي يشجعه على المضي في كتابة ما يوحيه اليه خياله قصة بعد قصة . وقد يكون ذبوع الأمية من الأسباب التي تسرع الى الزوال مع سير حركة التعليم الجديدة بهذا النشاط العظيم الذي تسير به في بلاد الشرق جميعاً ، ومع نجاح المجددين في جعل أساليب الكتابة بعيدة عن ذلك التعقيد الذي كان يعتبره أسلافنا المباشرين ، ومن لا يزال منهم من يعيش بين أظهرنا ، مقياس البلاغة والدليل على الاقتدار في الفن ، لكنه ما يزال باقياً وما يزال من آثاره هذا الفتور الذي يقعد بالكاتب عن متابعة السير في فن القصص ويعيدل عنه الى ناحية أخرى من الكتابة أجدى عليه وإن لم تكن أجدى على الأدب لذاته .

٧ يضاف الى ذبوع الأمية فتور السراة والأغنياء عن تعضيد الأدب كله ، وعن تعضيد الأدب القصصى بوع خاص ، تعضيداً هو الذي شجع كتاب أوربا في القرون التي تلت « البعث » والتي كانت كعصرنا هذا غير بارزة بالكتابة وبالكتاب . فالى لويس الرابع عشر يرجع أكبر الفضل في بقاء الشعر الخالد الذي خلفه راسين وكورنى وموليير ولافونتين ، والى تعضيد السراة والأغنياء الفضل فيما خلفه روسو وفولتير وديدرو وهلباخ وغيرهم من كتاب القرن الثامن عشر . وأحسب عذر سرائنا وأغنيائنا عن فتورهم هذا أنهم لا يجدون من السيدات دافعا الى هذا التعضيد . فقد كان لسيدات قصر لويس

الرابع عشر الأثر الأكبر في تعصيده كبار شعراء العصر وكتابه،
ولسيدات صالونات الأدب الكبرى في القرن الثامن عشر الأثر
الأكبر في حماية كبار كتاب ذلك العصر وتشجيعهم . ومع ما كان
بعض هاتيك السيدات يتهمن به من الخفة والطيش ، فانهن قد أدنين
لبلادهن أجل خدمة بما ظهرن به معضدات لهن من أرقى الفنون
وأجملها . ولو أن كتاب الشرق وجدوا مثل ما وجد كتاب القرن
السابع عشر من تعصيد لويس الرابع عشر ، ثم لو أنهم لو وجدوا
من حماية فضليات السيدات وعطفهن وتشجيعهن ما وجد أولئك
وما وجد كتاب القرن الثامن عشر من بعدهم ، ثم ما ليزال الكتاب
يجدونه حتى العصر الحاضر على صور تتفق مع حياة هذا العصر
الذي نعيش فيه ، إذن لرأيت الأدب العربي ، ولرأيت الأدب القصصي
بنوع خاص ، يجد من صور الإلهام ما لم يعرف حتى يومنا هذا ، ثم
لوجدت فيه نشاطاً وجدة وإبداعاً وفيض خيال ما أظن الغرب
يستطيع أن يسابق الشرق فيه ، وما أجزم بأنه لن يستطيع أن
يسبقه أن هو حال مسابقته .

ولا أريد لأي اعتبار من الاعتبارات أن أضعف من خطر هذا
السبب من أسباب فتور الأدب كله ، وفتور الأدب القصصي والروائي
منه . فلم يكن أثر السيدات في الغرب وحده هو الذي حفز الأدب
إلى نهضة كبرى كالتى نهضها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،
بل كان أثرهن هو الذي حفز الأدب دائماً في كل الأمم وفي كل
العصور . ولن تعوزنا الأمثال إذا نحن رجعنا إلى العرب في الجاهلية
وفي صدر الإسلام وفي أيام عظمته وازدهاره . وليس من المطلعين

على الأدب العربي واحد لا يعرف ما كان لسكينة بنت الحسين بن
على بن طالب وحفيدة فاطمة ابنة النبي عليه السلام من أثر في الأدب
وانهاضه وتشجيعه . هذا ، ولم تكن سكينة منفردة بذلك العمل
وان كانت منفردة بين ضربياتها فيه بشرف حسبها ونسبها واتصالها
أقرب اتصال بالنبي العربي . وليس في ذلك من عجب . فالحقصة
والرواية إنما تصور الحياة تصويراً صادقاً تمليه العاطفة ويحمله العلم .
ولاسبيل الى هذا التصوير الصادق ما لم تشترك المرأة فيه بوجيها
وبالهامها ، وما لم يتصل هذا الوحي والالهام ليجددا نفس الكاتب
أو الشاعر وليدفعها اليه حياة فتية جديدة كلما آذنت قوته بالفتور
أو الضعف . وهذا الوحي والالهام من جانب نصف الانسانية الثاني
هو في كثير من الاحيان خير عزاء عما يفقده الكاتب أو الفنان من
ربح مادي ، بل فيه دافع الى التضحية بهذا الربح المادي في سبيل
الفن مادامت أدوات هذا الفن كاملة .

وهذا في رأينا هو السبب في أن كثيرين من الذين يكتبون
قصصهم في الشرق يقفون عند القصة الاولى يروون فيها تاريخ
عاطفتهم الاولى حين كان الشباب ما يزال كافيا يدفعهم لتخليد هذه
الصفحة من صحف حياتهم ، فاذا وقعت لهم بعد ذلك توارخ عاطفية
أخرى ولم يكونوا قد وجدوا التشجيع من ربح مادي او رعاية
عظيم أو تشجيع سيده مهذبة تعرف كيف ترتفع بهم الى ما فوق
الاعتبارات الثانوية فتقوى ضعفهم وتلقى عنهم غبار فتورهم ، نزعوا
الى الناحية التي يرونها أوفر كسبا وأكفل بالشهرة وبالمجد ، وان

تكن شهرة سريعة الانطفاء ومجدا مقضيا عليه بالزوال .
وما دمت قد أشرت الى السيدات وأثرهن في الادب فيجب
أن أذكر في جوارهن أن ضعف أدب القصص والرواية ، كضعف
استمتاعنا بالحياة استمتعا كاملا ، يرجع الى عدم تربية عواطفنا
تربية صحيحة على حين تكفل هذه التربية الصحيحة للعواطف حسن
الاستمتاع بالحياة في أجمل صورها وأكثرها سموا وسناء ونورا ،
وتكفل لذلك ازدهار أدب القصص والرواية ازدهارا لاسبيل
اليه في حياة ناقصة متبلدة العواطف الى حد يجعل أهواء المرء
وشهواته تحل من نفسه محل هذه المشاعر السامية ، فتعذب به
وتكون سبب برمه بالحياة وشقوته فيها ، لأنها لا تكشف له من
جوانبها إلا عن الفساد والنقص ، ولا تدفع الى نفسه حب الحياة
حبا صحيحا . وكل فن لا يصدر عند صاحبه عن حبه لجانب من
جوانب الحياة لا يمكن أن يزدهر . وفن القصص أكثر من سائر
الفنون حاجة لحب صاحبه بالحياة لأن القصص صورة الحياة .
١١ وأنا إذ أقول بنقص تربية العاطفة عندنا أمثل أمام عيني
صوراً نراها كل يوم وقد تمر بها مستخفين غير آبهين لها أو
واقفين عندها في حين هي ذات مغزى عميق لو أدركناه دعانا
إدراكنا إياه لتغيير نظرنا وتصرفنا . وقبل أن أقف عند العاطفة
التي تتصل بالفرصة الجنسية في نظر كثيرين لأعجلها بشيء من
التحليل يكشف عن النقص الذي أشير اليه ، أود أن أقف قليلا عند
عواطف أخرى أمتحنها بشيء من المقارنة ليمتدح انقاريء العناية
التي أرمي اليها ولتتضح أمامه الفكرة التي قدمت . ولنبدأ بعاطفة

الاحسان ، وأقصد البر بمعناه العام السامي . فأنت اذا دعوت الى
اكتتاب لمستشفى أو لمدرسة أو لعمل خيراً كان ، وكنت موضع
ثقة الناس جميعاً ، ألفت مع ذلك ضعفاً في الاقدام لا يتغلب عليه
في كثير من الاحايين إلا الاحلاف وإلا مطامع شخصية يروجها
المحسن من وراء احسانه . فكثيرون لا يقدمون الارعاء رتبة
ينالونها أو أملاً في مصلحة عاجلة أو مؤجلة تقضى لهم . هذا على
انك ترى في انكثرا مثلاً كثيرين يتبرعون بالوف ومئات الألوف
لاعمال الخير والبر مدفوعين بعاطفتهم ومن غير أن يطلب اليهم أحد
احساناً . بل يأبى كثير من هؤلاء ان يعرف اسمه ويكتفى أن يضع
المبلغ تحت تصرف هيئة موثوق بها تتولى انفاقه في وجوه الخير
التي يقررها هذا المحسن المحبوب . ثم ان العاطفة لذاتها نامية عند
الجمهور الانكليزي نمواً تغبط انكثرا عليه . فمستشفيات تلك
البلاد تدفع نفقاتها من الاحسان العام تشترك فيه الكافة من طبقات
الامة كلها بغير تمييز بين بائع الصحف والتاجر الصغير والمثري الكبير .
وهؤلاء جميعاً يدفعون الى المكلفين بتحصيل التبرعات عن طيب
خاطر ، بل مع الشعور بالغبطة لاداء واجب يؤمنون في أعماق
نفوسهم بأنه فرض يؤلمهم عدم ادائه

فلو أن تربية العاطفة عندنا كانت نامية نموها في الامم الاخرى ،
لكان أدائنا واجب الاحسان صادراً على عاطفة تامة النمو كاملة
الشعور تنغص علينا الحياة اذا هي لم تؤد هذا الواجب اداء كاملاً
وعاطفة الرفق وما يتصل بها من عاطفة النجدة مثلها عندنا
مثل عاطفة الاحسان سواء . وكثيرون منا من يمرون بحيوان

ضعيف سقط الى الارض هذه الاعياء ، أو بأخ لنا من بنى الانسان
هوى به الشقاء فألقى به مضعضاً على قارعة الطريق ، فلا تتحرك
في نفوسهم عاطفة اللهم إلا أن تكون حمداً لله على ما أنجاهم من مصاب
كالذى تقع عليه أعينهم ثم يمرون به معرضين . والذين يصنعون هذا
رأوا عشرات المرات جماعة من الناس تهذب فيهم عاطفة الرفق ،
ما تكاد أعينهم تقع على مثل هذا المنظر حتى تتحرك عاطفة الرفق
في نفوسهم فتدفعهم الى النجدة . فإذا فرغ أحدكم من
نجدة الحيوان أو الانسان المستحق أياها لم ينتظر من أحد جزاء
ولا شكورا ، وانصرف وكل جزائه طمأنينة نفسه وراحة ضميره
الى أنه أدى واجبه الذى تملى به عليه عواطفه .

(١٩) واستطيع أن أعرض بالمقارنة الى كثير من العواطف غير
ما قدمت . على أنى أود أن أشير الى بعض العواطف الاولى التى
يردها الكثيرون ، ومن بينهم بعض العلماء ، مرد الغرائز . تلك
عواطف الحب وما يتصل بالحب من عواطف الابوة والبنوة . وما
أحسبني أغلو اذا أنا قررت أن الحب عندنا ما يزال قريباً جداً من
الغريزة الجنسية محصورة دائرته أو تكاد فيما تلهمه هذه الغريزة
لتخليد النوع وتحسينه . فأما المناطق العليا التى يرتفع الحب المذهب
اليها ، فأما الحب بمعناه الانسانى السامى من الاشتراك التام فى تمثيل
الحياة لتزداد الحياة قوة وجمالاً وسناء ، فأما الحب على أنه عاطفة
انسانية سامية أساسها انكار الذات والرقى النفسانى الى عالم الخير
والجمال والحق لنخلع من كل ما فى هذا العالم على نفس أخرى تحاول
من جانبها ما نحاول من التعاون على استيعاب كل ما فى الحياة من

رضى ونعيم ، فذلك ما قل أن يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده
إنسان . هذا ، ولو ربيت العاطفة وهذبت وسمت الى المكان الذي
تستطيع ان هي حاولت ان تسمو اليه ، رأينا في الحياة غير ما نرى
اليوم ولشعرنا بأننا نستطيع أن نقص من مشاهداتنا فنوناً من الأدب
هي القصة الضعيفة اليوم لضعف تربية العاطفة عندنا ضعفاً يجعل
عواطفنا كلها هزيلة أنانية لا تستطيع أن ترتفع عن مقام الغرائز الا
بمقدار ضئيل .

١٥ وقد نشأ عن ضعف عاطفة الحب عن السمو الى المكان الانساني
الجدير حقاً بها أن أصبحت عواطف الأبوة والبنوة نفسها بعيدة عما
يجب أن تكون عليه من جهاد كل جيل ليسمو بالجيل الذي يليه في
عواطفه كما يسمو به في علمه وعقله ، بحيث يدفعه ليقطع شوطاً
جديداً في طريق الكمال . وإن كثيرين يشعرون بأن الصلات المادية
كثيراً ما تكون ذات أثر في هذه العواطف القوية التي يجب ألا تتأثر
بشيء من هذا ، حتى لقد يعق أبناء آباءهم وقد يحقد آباء على
أبنائهم لغير شيء الا لصلات مالية كان الطبيعي ألا تخضع لها عواطف
مقدسة كالأبوة والبنوة بأقل مقدار .

١٦ ما هو السبب في ضعف تربية العاطفة وفي نقصها هذا النقص المعيب ؟
تعود كثيرون أن يقولوا إن مرجع السبب في ذلك لتربية البيت لا لآي
سبب آخر . وهو لا يريدون أن يقيموا حداً فاصلاً بين التربية والتعليم
بحيث لا يلقون على المدارس والجامعات أية تبعة عن هذا النقص .
وعندي أن هذا غلو فاحش . وبطلانه يزداد وضوحاً كلما ارتفع
مستوى التعليم وسمت العناية التي يقصد إليها من العلم . فقد كان

العلم عندنا الى زمن قريب وسيلة للارتزاق وكسب العيش ليس غير ، فكان بذلك صناعة من الصناعات التي يتلقاها الناس ليكسبوا من عرق جبينهم فيها ما يقيتهم ويقيت عيالهم . وكان الكثيرون من المتعلمين لا يزيدون لذلك على صناعاتهم انما يوزعون لرجل القانون أو المشرط للطبيب أو ما الى ذلك من الادوات لغير هاتين الطائفتين من المتعلمين . وكان ذلك واضح الاثر في حياة هاته الطوائف التي يسمونها ، تجوزا ، طوائف المتعلمين . فأنت لم تكن تكاد تخرج الا بالقليلين منهم عن النطاق الضيق الذي يعمل فيه لكسب قوته حتى اذا به قاصر العرفان الى حد مخجل ، واذا بك تستطيع أن تقول في غير غلو أو مبالغة إن القانون في يد رجل القانون والطب في يد الطبيب مثله كمثل النفس في يد المزارع والمنشار في يد النجار لا فائدة منه تهذيب النفس أو العقل وانما الفائدة كل الفائدة لكسب العيش . فأما الذين يندون عن هذه القاعدة ويقصدون من العلم والتعلم الى غاية أخرى ، فأولئك شواذ موهوبون لهم فضلهم كما لهم ماتقابل به العدالة الطبيعية الفضل من نقص في نواح أخرى . وما دامت غاية العلم كسب العيش ولم يكن يقصد به الى الحق لذاته أو الجمال لذاته ، ولم يكن أمام المتعلم مثل أعلى غير الأنانية الوضيعة ، أنانية كسب العيش ، فبحال أن تسموعواطف الشخص فوق مقام الغرائز إلا بمقدار ، ومحال أن يحس بالحاجة الملحة الى السمو نحو مراتب الانسانية المهذبة الدائمة الطموح الى الكمال . وقد كان يظن امكان التعويض عن هذا الحال في المدارس المدنية بتعليم أسمى غاية في المدارس الدينية ، أو بعبارة صريحة في الأزهر

والمدارس التابعة له . فالدين بطبعه داع الى الكمال ، دافع الى استدامة البحث للوصول الى الحق ليؤمن صاحبه به عن معرفة وازعة على عمل الخير ، وتهذيب العواطف الدافعة له الى غاية حدود التهذيب . لكن الواقع يشهد بأن التعليم الديني عندنا ليس فيه شيء من هذا على الاطلاق ، وأن غايته هو أيضاً اعداد رجال الدين ليكون العلم الديني صناعة في يدهم يكسبون بها عيشهم كما يكسبه الصانع والزارع والتاجر . وانت اذا قصدت الى حلقات الدرس في المعاهد الدينية لم تكدر تسمع للمعاني السامية التي نزلت الاديان لتثبيت الايمان بها في النفوس ذكراً ، بل رأيت كل هذا العلم الديني مقصوراً على تدريس العبادات والمعاملات بصورة مادية جافة لا تخاطب القلب ولا تتصل بالروح ولا تفقه معنى الكمال ولا تتطلع الى جناب الله ولا ترجو من الحياة الا أن يفتح الله عليها من ابواب الرزق وان لا يقتتر عليها فيه

١٨ الغاية من التعليم في المعاهد الدينية كالغاية إذاً من التعليم في المعاهد المدنية لا تتصل بالعاطفة ولا تعنى في قليل ولا كثير بأى شيء له بها عن قرب او بعد مساس . وهذه الغاية لا تتوخى الحق ولا تريد النور ولا تحاول أن تصل بين الانسان والحياة وكل ما في الوجود ، وإنما تتوخى الغاية الوضيعة التافهة ، غاية ملء البطن وبلوغ ما يمكن بلوغه من الترف . في مثل هذه الحال يصح ألا يكون مخطئاً من يقول إن تربية العاطفة من عمل المنزل وإنها ليس لها بالتعليم أى اتصال . لكن هذه الغاية الوضيعة لا يجوز أن ترضاها أمة غاية للعلم فيها ، بل يجب أن تكون غاية العلم أسمى وأنبى من هذا

بكثير . يجب أن تكون تهذيب العقل وتهذيب الروح والنفس
 بهدايتها الى الحقيقة التي يجب أن تكون مطمح نظر كل متعلم .
 والعاطفة حقيقة يجب أن يجلوها العلم في مختلف صورها كما يجلو كل
 حقيقة أخرى . وهذا هو الواقع في بلاد العالم المتمددين كلها . وكل
 شيء جلالة العلم تهذب وسما حتى المادة الجامدة التي لا حياة فيها ،
 والتي تحتوى مع ذلك قوة لم يكن أحد يعبا بها حتى تكشف العلم
 عنها وجعل منها مهذبا لهذه المادة الجامدة . فاذا سمت غاية العلم على
 هذا النحو كان قيناً أن يعتبر بحق وسيلة صالحة لتربية العاطفة في
 الانسان تربية أساسها اشتراك الانسان كفرد مع الجماعة كلها ومع
 سائر مافي الوجود للكشف عن الحق ولعمل الخير ولتجلية الجمال .
 ١٨ ولست أقصد إنكار ما للتربية المنزلية من نصيب كبير في
 تهذيب عواطف الطفل بمقدار ما لها من نصيب في تهذيب ذوقه وروحه .
 لكنني أعتقد تمام الاعتقاد أن الفصل بين التربية والتعليم على نحو ما يحاول
 بعضهم أن يفعل ، أمر غير ممكن . وتربيتنا في معاهد العلم إنمات كل
 من بهد تربيتنا المستمرة الناشئة عن اتصالنا بالحياة . وهذه السلسلة
 المتصلة تجعل لتعليم الآباء في دور العلم أثراً في تربية أبنائهم في البيت
 قد يعادل الأثر الذي يحصل الأبناء عليه من بعد حين تربيتهم في دور
 العلم . ونحن اذا أردنا البدء الصالح المثمر وجب علينا أن نلتزمه
 في دور العلم أولاً بالسمو بغاية العلم الى التماس المثل الأعلى على نحو
 ما قدمت . يومئذ تسمو نظرتنا للحياة وترتفع عواطفنا فوق الغرائز
 حتى تقرب من الكمال ، ثم نورث ذلك أبناءنا بتنشئتهم عليه في
 البيت ثم في دور العلم ، ثم يكون لذلك أثره في الحياة فتسمو

سموا يجعلنا أكثر بالحياة استمتاعاً وأكثر فيها سعيًا وإنتاجاً ، ثم يكون له في نفس الوقت أثره في بعث القوة والنشاط الى فن القصص والرواية من فنون الأدب إذ تقع أعيننا يومئذ على جماعة إنسانية ازدادت رقيًا وتهذيبًا فكانت بذلك أقوى الهاما لرب الفن بما يطوع له أن يجد في متباين صور العواطف المبهضة ما يدعو به الى كمال فنه .

يضاف الى هذه العوامل عامل آخر يبعث على الفتور ويدفع الى الانصراف عن الكتابة وعن الادب . ذلك ما لا يزال متحكماً في أخلاق الشرق من الميل الى هدم كل رجل ذي قوة وموهبة ، وهدمه لاسباب لاصلة لها البتة بقوته وموهبته . فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف وإيانا في الرأي السياسي أو ينافسنا في صفقة من الصفقات أو يثقل علينا ظله : إذن يجب علينا هدمه امام الجمهور وان اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة . ومادامنا لانستطيع أن نهدمه من طريق النقد النزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر .

وكثيرون ، مع شيء كثير من الاسف ، يضعفون أمام هذه (١) المهاجمات غير الشريفة ويرون فيها جحوداً لمجهود أكبر همهم منه خدمة لغتهم وبلادهم أكثر من خدمتهم أنفسهم ، فيعدلون عن متابعة سيرهم وينزعون الى ناحية آمن لكرامتهم ولشرفهم وأكفّل بحياة أكثر طمأنينة ودعة . واذا كان من بين الكتاب من لا يحفل بهذا الجحود ومن يثور في نفسه الضياء الذي ملأ القدر به روحه فيدفعه غير مختار ليفيض منه على الحياة ما يزيد بها جمالا ونورا وليؤدي للفن الرسالة التي ألقى القدر عليه أداءها ، فان صاحب

الموهبة لا يستطيع من غير معاونة الانصار والمؤيدين أن يرى في حياته تمام النجاح لرسالته ، وان كان هذا النجاح قد كفل لها ولو بعد موته . ولو أن خلق الهدم خفت في النفوس وطأته وحل محله التقدير النزيه لثمرات الاقلام ، لقوى ذلك من هذا الضعف الذي يلاحظه الكثيرون في القصة والرواية في الأدب العربي .

ولا نستطيع أن نهمل عاملاً آخر كان له أثر في الجناية على الأدب . ذلك هو العامل السياسي . فقد كان من نتائج الحرب والحركات التي قامت بعدها في الشرق والغرب أن انصرفت الأذهان عن التأمل في الحياة وجمالها الى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة ، أو لتنظيم شؤون اقتصادية زعزعت الحرب أركانها ، أو ما إلى ذلك من الشؤون العاجلة . ومن طبيعة هذه الشؤون أن تلفت الناس اليها وتبهرهم عن كثير سواها . وهى لهم أكثر لفتاً وبهراً اذا هم رأوا من ورائها لاشخاصهم مكانة أرفع أو مجداً أشد بريقاً أو رخاء ورغداً لم يكونوا يطمعون من قبل فيه . وهذا العامل الذى شمل العالم كله كان أبعد أثراً في الشرق ، لان الحرب بعثت الى الشرق هزة عنيفة أيقظته من سباته وفتحت عيونه على نواحي الحياة المختلفة المتباينة ، فجعلته من أجل ذلك فى شىء من الحيرة أى طريق يسلك ، ثم كان الطريق الاول والاقدس هو التخلص من حكم أمم الغرب إياه . وهذا التخلص يقتضى نضالاً لا يقل قوة ولا خطراً عن نضال الحرب بين الامم المسلحة . فكما تستنفذ الحرب جهود الامم كلها ، كذلك استنفدت وتستنفذ هذه الثورات السلمية كل جهود أمم

الشرق وتدفع بالكتاب والأدباء ليضعوا قواهم ومواهبهم في خدمة بلادهم . وقد جزتهم بلادهم عن ذلك بما زادهم تشجيعاً عليه وحرصاً على المضي فيه . وهم ما يزالون كذلك حتى اليوم ، وقد يطول ذلك بالكثيرين منهم الى مدى يتعذر اليوم تحديده .

٢٢ هذه العوامل كلها مجتمعة تجعل من المستحيل على الكاتب الذي أوتي موهبة في فن انقصص والرواية أن يختص فيه وينقطع له . بل لقد صار كل ما يستطيعه هذا الكاتب أن يحاول وضع الاقصوصة تلو الاقصوصة في أوقات فراغه . فأما ان ينقطع لدراسة موضوع يكون قصة أو رواية كاملة فقد يقتضيه ذلك السنين الطوال ، وقد ينتهي به الامر إلى أن لا يتم قصته إذا هو بدأ فيها . والتخصص في انقصص كالتخصص في كل عمل من أعمال الحياة ، هو مفتاح النجاح والوسيلة الوحيدة للخصب في الانتاج وللوصول إلى الثمرة الصالحة الجيدة . وهو كذلك بنوع خاص في عصرنا الحاضر الذي انفسح فيه ميدان العلم الانساني الى حد أصبح معه المحيط بهذا العلم كله محيطاً بقشور قليل ما يتصل بها من الباب ، والذي أصبح كذلك بحيث يصبح الانسان بعد دراساته العامة ، وبعد تحصيله منها أوفر حظ تمكن منه الدراسات في المدارس والجامعات ، بحاجة الى التوجه في الناحية التي يميل عليه ميله التوجه اليها فيتخصص فيها ، بل في فرع من فروعها . وقد يعجب قوم اذا ذكرنا لهم أن ميدان الأدب القصص والروائي قد أصبح لذاته فسيحاً الى حد يحسن معه أن يتخصص الكاتب في أحد فروع لتنعذر الاحاطة بفروعه كلها إحاطة ييسر معها الاتقان والاقتراب من الكمال .

لكن الأمر في الواقع هو هذا . وأنت اذا عدت الى أكبر الكتاب القصصيين والى أكبر الكتاب الروائيين رأيت لكل واحد منهم نوعاً خاصاً يمتاز به ويغلب عليه حتى يعرف به . فأنت ترى في بورجيه غير ماتراه في أناتول فرانس وغير ماتراه في زولا وغير ماتراه في فلوير وغير ماتراه في موباسان ، وأولئك كلهم من القصصيين الفرنسيين في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي هذا الثلث الأول من القرن العشرين . وأنت ترى لكل واحد منهم ميداناً خاصاً يمتاز به وتخصص فيه وقصر مباحثه على التعمق فيه وعلى معرفة ماسبق به اليه في العصور الأخرى وفي الأمم الأخرى . وهذا التخصص هو وحده الذي يجعل الإنسانية ترجو بلوغ الكمال في ميدان الأدب والفن ، كما أنه هو الذي يجعلها ترجو بلوغ الكمال في ميادين العلم المختلفة .

ولا يعترض علينا بأن كثرة القصصيين وغزارة المادة التي يأخذون عنها في أوروبا هي التي تؤتى بهم الى هذا التخصص ، على حين أنا مانزال بحاجة الى الانشاء حتى ليدعونا ذلك الى تقليد الغربيين أكثر مما يدعونا الى الظهور بشخصية ممتازة لنا في عالم التأليف والأدب . فهذا الاعتراض على ظاهر وجهته ضعيف متداع بطبعه ، وهو إن حدث عن شيء فأنما يحدث عن ميل الى عدم البحث والاطلاع على صورة من الدقة العلمية تكفل تكوين المذاهب في القصص والرواية تكويناً سليماً . وقدماً قبيلاً مثل هذا القول في الطب والمحاماة ، فظلت الصناعتان ضعيفتين في مصر حتى تخصص الأطباء كل فرع من فروع الطب ، أو لبعض فرع من فروعه ،

وحتى صار المحامون يعرف أحدهم بامتيازته فى ناحية المعاملات المدنية والآخر فى المعاملات التجارية وهلم جراً . واذا كان مظهر التخصص فى الطب أوضح ونتائج هذا التخصص فيه أكثر ظهوراً ، فذلك لأن الحكم والقاضى فى شؤون الطب هى الطبيعة التى لا تخطئ أبداً . وحكم الجمهور فى الأدب كحكم الطبيعة فى الطب وفى الميكانيكا وفى كل ما هو غير خاضع لاختفاء اللسان وشهواته . وكما نجح الطب فى مصر نجاحاً يقر له السكل فى مصر وفى غير مصر منذ تخصص الأطباء تخصصاً تاماً ، فانى لا ارتاب لحظة فى نجاح الأدب القصصى والروائى اذا عاينت العوامل الكتاب والموهوبين منهم بنوع خاص على التخصص فيه ، أو اذا جادت الطبيعة على هذه البلاد التى تتكلم العربية بعاقرة من الكتاب الذين يقدرون تقديراً صالحاً عظيمة الرسالة التى يحملونها ليلغوها إلى مواطنيهم وإلى العالم كله ، فتغلبوا على الصعاب وهزموا العوامل التى أشرت من قبل اليها ولم يتأثروا بشيء منها حتى يصدحهم عن السبيل التى تكفل اقتراب هذا الأدب خطوة أو خطوات من ناحية الكمال .

على أن انتظار جود الطبيعة بالناطقة الفذ الذى يستطيع أن يحطم كل القيود ويتغلب على كل الصعاب ويتخطى كل العقبات ليس من شيمة الأمم التى تجاهد ما تجاهد مصر وسائر بلاد الشرق العربى لتنبؤ المكان اللائق بها فى زمرة الأمم ، بل الواجب على الذين يشعرون ممن يقرءون هذا الكتاب بأنهم يستطيعون أن يتقدموا بأية معونة للتغلب على عامل من عوامل الضعف والفتور التى ذكرت أن يقدرها الواجب العظيم الملقى على عاتقهم هم الآخرون

ليمهدوا لرجل الفن في القصص والرواية طريقه وييسروا سبيل نجاحه .
 وكل واحد منهم ، رجلاً كان أو امرأة ، يتحرك ضميره فيدفعه
 لأداء هذا الواجب يقدم لبلاده أجل خدمة ويبقى في التاريخ
 مذكوراً ما ذكر الكتاب والقصصيون الذين اتصلوا به واستمدوا
 التعزيز أو التشجيع أو الوحي منه . والذين يقرأون تاريخ الأدب
 في بلاد العرب حين كان الأدب فيها زاهراً ، والذين يقرأون تاريخ
 ادب الغرب في العصر الحاضر ، يرون كيف اقترنت أسماء أنصار
 الأدب والعاملين على إحياء نهضته بالأدباء والكتاب أنفسهم ،
 وبالنوابع والأفذاذ منهم بنوع خاص . وهذا جزاء وفاق وحق
 يجب أن يؤدي إلى هؤلاء الذين يعززون الأدب بنصرهم وبتأييدهم .
 وإنني لعلّى يقين ، إذا وقع هذا الذي أدعو إليه ، من أن ترى مصر
 وبلاد الشرق نهضة للأدب في زمن وجيز يكون لها في مصر وفي
 بلاد الشرق ، بل في العالم كله ، أثر يبهز الابصار ويخطو بالشرق
 كله خطوات واسعة في طريق البعث الذي بدأه منذ زمن ليس
 بالقصير . إذ ذاك تثبت خطاه وتزداد سرعة وسعة عما كانت منذ
 حفزته الحرب الكبرى إلى أسمى معاني المجد والعظمة والحرية .

التأليف المسرحي

ليست لغة المسرح هي ما أقصد التكلم عنه ، وإن كان الناس قد ألفوا قراءة بحوث مستفيضة يفاضل أصحابها بين اللغة الدراجة أو لغة الكلام وبين اللغة الفصحى أو لغة الكتابة وأيهما أصح لتكون لغة للمسرح . وليست ترجع رغبتى عن هذا البحث الى استهانة منى بأمره أو اعتقاد أن ما يمكن أن يقال فيه قد نقد كله . وإنما ترجع من ناحية الى أنى أميل الى الحرية المطلقة فلا أرى أى ضير فى أن يكتب مؤلف مسرحى باللغة الفصحى وآخر باللغة الدارجة ، وبأية لغة دارجة من مختلف اللهجات التى نسمعها فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية ، والتى تصل لهجاتها أحياناً لتصبح رطانة غير مفهومة عند أبناء بلد آخر يتكلم العربية . وترجع من ناحية أخرى الى اعتقادى أن هذا الخلاف حول لغة المسرح صائر بطبعه الى الزوال . فإن انتشار التعليم فى البلاد المختلفة انتشاراً سريعاً يقضى على الامية ، من شأنه أن يقرب بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأن يجعل اللغة التى تكتب الصحف ويكتب الأدباء هى لغة الحديث ولغة الكتابة فى وقت معاً مع فوارق بسيطة لا يقيم لها وزن . ويومئذ تصبح لغة للمسرح كما تصبح غيرها من اللغات هى اللغة الفصحى فى متعارفنا نحن أهل هذا الجيل أو الجيل التى تكتب هاته اللغة فيه . فاذا أراد مؤلف بعد ذلك أن

يختار لقطعة مسرحية لهجة دارجة كان ذلك تأثقا في الفن لا بأس به .
ونحن في هذا كغيرنا من الأمم . فأنت تسمع في انكلترا أو فرنسا
أو إيطاليا لهجات في الشمال تختلف عن لهجات الجنوب ، لكن
لغة المسرح هي لغة الكتابة للجميع ، من غير أن يحول ذلك دون
قيام مؤلف متأنق بوضع قطعة بلهجة مقاطعة من المقاطعات أو ناحية
من النواحي .

(<) على أن هذا الحل لمسألة التأليف المسرحي من ناحية اللغة لن
يحول دون ظهور مشكلة أخرى وموضوع جدير بالبحث ، كما كانت
لغة المسرح جديرة بالبحث من سنوات ماضية . هذه المشكلة هي
اللغة القديمة والشعر القديم وهل يجب أن تكون ثروتنا المسرحية
حافية لطائفة من القاطع التمثيلية مكتوبة بهما . وقد أثر هذا
البحث من ناحية عملية حين ترجم الاستاذ خليل مطران بعض
روايات شكسبير في لغة عربية فيها من الفخامة والجزالة ما يتفق
مع لغة شكسبير وما قد يعتبر من غير لغة الكتابة في عصرنا . وهو
قد أثر حين وضع شوقي بك روايته الشعرية (مصرع كليوباترا)
ورواياته التي جاءت بعدها ومثلت على المسرح ، فكانت صورة جديدة
من اللغة المسرحية لم تؤلف من قبل . على أن هذه الآثار العملية
للبحث لن تكفي ، فيما أظن ، لسد حاجات اللغة على وجه يرضى أقطابها .
وأعتقد أن البحث سيثار من ناحية نظرية أيضاً لمعرفة ما إذا كان
واجباً أن يوجد في القاطع المسرحية العربية نوع من « الكلاسيك »
الذي يصل الحاضر بالماضي أم أننا نستطيع نسيان هذا الماضي والاكتفاء
ببذل كل جهودنا للتجديد للمستقبل . وسيتصل بهذا البحث وسيتفرع

الى بحوث أخرى منها ما إذا وجب أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي الى بلاد العرب فتتصل البلاد التي تتكلم اللغة العربية جميعاً بتاريخها وبتقافتها وبآثارها وتعاليمها على نحو ما اتصلت أمم الغرب كلها باليونان وروما القديمتين، أم أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي الى صلة كل أمة بماضيها فتربط مصر بالفراعنة وطرابلس (برقة) بقرطاج وبلاد الشام بفينيقيا، وأن تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها وتجعل منها وحيّاً للادب يقصد منه الى احياء الادب العربي في ظل كل واحدة من هذه الثقافات المختلفة

أحسب أن هذا البحث سيثار عما قريب، وبخاصة حين تخرج المدرسة الجديدة من طلاب الادب الذين يدرسون اليوم على طريقة علمية صالحة. على أن هذا البحث ليس هو أيضاً غرضي من هذا الفصل عن التأليف المسرحي. وإنما أقصد منه الى ما يجب أن يتناوله هذا التأليف المسرحي من ناحية أنه فن من فنون الاجتماع من مواضيع. وقد دفعني إلى تناول هذه الناحية من المسألة ما قرأت ورأيت من قطع مسرحية مؤلفة بعد الحرب. فهذه القطع كلها، أو الكثرة الظاهرة منها، تتناول صور التطور الذي اتجهت الانسانية بعند الحرب وبسببها نحوه، وكلها، أو الكثرة الظاهرة منها، تحاول توجيه تيار هذا التطور بهذيب شذوذه ورده قدر المستطاع ليندفع في الناحية الطبيعية، أي في الناحية الأكثر على الانسانية جدوى في رقيها وفي سعادتها في ظل الحضارة الغربية الحاضرة

من بين ما تتناول هذه القطع التمثيلية من الموضوعات ما خلفته الحرب (٤)

من أثر في شأن الرجل والمرأة واتجاه كل منهما في الحياة ونظرته إليها وعلاقة كل منهما على أثر ذلك. فقد كان من أثر الحرب أن أصبح الرجل غير مبال للعمل المتصل والكدح المستمر، بل صار ميالاً للمخاطرة والمجازفة يلبس من طريقهما الثروة وبعد الصوت ورفيع المكانة كما كان إبان الحرب يلبس من طريقهما الظفر والنصر أو الموت والاستراحة من عناء الحرب والحياة. أما المرأة فقد ألقت الحرب عليها أعباء ثقلاً خلال أربع سنوات متتالية فكانت في الدار الأب والمربي والمجد لرزق البنين والبنات والعامل لفاهية الأسرة كلها، وكانت خارج الدار العامل الذي لا يعمل في الإسعاف والتمريض وفي المعمل والمصنع. لذلك أفادت من الحرب حرية بمقدار ما حملت من عبء المسؤولية، وازدادت شعوراً بقوتها على الحياة بمقدار ما استطاعت أن تكافح لها ولذويها ولوطنها في الحياة. وهي اليوم تحاول أن تستبقي هذه القوة وتلك الحرية بأزاء الرجل، وأن تنظم علاقاتها معه على أساسهما. أما هو فقد أصبح يعتبر الهجوم سبيل النصر، وانتهاز الفرصة وسيلة الغنيمة، والمجازفة مفتاح التحكم والاستعلاء. على أن هذه الصفات الجديدة التي اكتسبتها الحرب الرجل والمرأة لم تنزع بطبيعة الحال ما فطر الله عليه من سلائق وعواطف تضطرب بين جوانحهما وتجيئ بها دخائل وجودها. لهذا اضطربت العلاقات بينهما على أثر الحرب اضطراباً أشار الكتاب والاجتماعيون إليه ونظروا مهوتين يلبسون الوسيلة إلى القضاء عليه. ومن بعض الوسائل تحليل أسباب هذا الاضطراب وردها إلى أصولها وإظهار الجواهر عليها، حتى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة

والشدوذ. وقدلفت نظرى فى هذا التحليل استفزاز عاطفة النبيل والكرامة عند المرأة لمحاربة هذه الوحشية المفترسة فى سبيل المال مما أصاب الرجال على أثر الحرب داؤه . فهاته فتاة متهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقوقها فى الحرية ، يحبها رجل فى مثل تهذيبها وثقيفها ولا تشعر هى نحوه بمثل العاطفة التى يشعر بها نحوه . ذلك بأنها وضعية المنبت ، وهى تريد أن تتخذ من شهاداتها وتهذيبها وسيلة للاستعلاء على منبتها . ويتصل بها شاب من المستمعين بألقاب الشرف ، أو من الذوات إن شئت تعبيراً مصرياً ، فترى هى فى علمها وشهاداتها ما يوازي شرفه فتتعلق به وتود لو تكون دوقة ، جزاء لها على ما أنققت فى تعلمها . لكن الدوق لا يعنيه العلم ولا يهتم به التهذيب ولا يطمع فى أكثر من أن يجعلها متعة هواه وفريسة ما أفادته الحرب من مغامرة . ويدكر لها صديقها المتعلم الذى يحبها ، أن الدوق لا يعنيه علمها وأنه إنما يحبها لو أنها أصبحت إحدى نجوم السينما ، وإحدى ملكات الجمال . وبرغم تقززها من أن تظهر فى هذا المظهر فإنها تنتهى بأن تعرض نفسها فى معرض الجمال وتصبح مس فرنسا ، فس أوربا ، فس العالم . هنالك يجن الدوق بها ويخطبها ويحدد موعد العقد عليها . لكنه قد اضاع ثروته ، فلا بد من أن يستفيد من ملكة الجمال فى العالم يعرضها على مسارح أمريكا وأوربا ، ويصبح وإياها نجمى مسرح أو نجمى سينما . هنا لك يثور شرفها وتثور كرامتها وتثور بها التعاليم التى تلقىتها ، فتعلن فى الصحف أنها انتحرت ، وتذهب الى صاحبها الاول تعرض عليه ما حل به من كارثة ، وتنتهى بأن تصبح زوجا له تعيش وإياه فى ركن ضيق من الارض تتمتع

بنعمة الامومة وسعادة الزوجية بعيدة عن المغامرات المخجلة المزرية
بكل علم وكل كرامة .

و تلك فتاة متهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقوقها في الحرية
تزوجت رجلاً مقامراً يريد الثروة والغنى العاجل ، فيضارب في البورصة
فتصيبه الخسارة تهوى به الى حضيض الجريمة ، ثم يعلم ان زوجه
هذه ورثت سبعة ملايين من الفرنكات مع ابن عم لها ورث سبعة
ملايين مثلها . وكانت الزوجة قد سئمت هذه الحياة المادية الوضيعة
التي لا ترمى الى مثل أعلى ولا تطمع في غير المال تحتله بكل الوسائل
ومن مختلف الطرق . وزادها سأمًا ان أصبحت أما وان صارت
تخاف أن يفسد هذا الغارق في حضيض المادة كل المعاني الانسانية
في نفس ابنته . ثم كان ابن عمها الذي ورث مثلها ورثت قد وهب
نفسه للفقراء والمحتاجين : يقوم على تربية أبنائهم وحسن توجيههم
في الحياة الى أسمى ما في الحياة . فلما علم بما ورث أبي أن يقتضيه
لأنه لم يكن نقي المورد إذ كان خالة ساءت زمنا ماسيرتها . وأعلنت
الام البائسة أنها تنزل عن سبعة الملايين التي لها هي أيضا ، فجن
جنون زوجها وذهب يلتمس عون ابن عمها كي يرد لها عن عزمها .
وبعد لأي قبلت أن تنزل له عن سبعة الملايين مقابل طلاقها
وتسليمها ابنتها . فلما تمت الصفقة صاحت مبهجة : لقد باعني ابنته !!
ووقفت حيا ترا على ابنتها تربيها تربية سليمة وتوجهها الى مثل أعلى .
ليست تقف مواضع التألف المسرحي عند هذا النوع من
الاصلاح الاجتماعي . على أنها تحاول فيما تتناول منه تحليل أسباب
الاضطراب النفسي والاجتماعي الذي خلفت الحرب لتظهر الجماهير

عليها كي تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ. ثم هي تتناول كذلك أنواعاً أخرى لعل الفن وحده هو صاحب الاملاء فيها. على أنها بالرغم من ذلك تتناول جانباً من الحياة كما يراه الناس، وتتناوله بالتحليل أو بالعرض أو بالنقد. ثم إنها في كل حال تتناول جانباً من الحياة على ما تراها ونحسها فتجعلنا لذلك نرى صورة الحياة من أحد جوانبها حين نرى هذه القطع تمثل على المسرح. قد يكون هذا الجانب تافها وقد يكون ضعيفاً وقد لا يرى البعض أن يتوجه إليه بأية عناية خاصة. لكنه على كل حال من الحياة التي نحى، فهو لذلك يمسننا من ناحية الحس أو الشعور أو التفكير أو العقيدة ويحرك فينا واحدة أو أكثر من هذه النواحي بمقدار قل أو كثير. وفي اعتقادي أن هذا هو الهم الأول للمسرح. فأما ما يكون فناً للفن من غير أن يكون ذا مساس بالحياة، فن صور الكمال المستحبة، ومما يجب أن يفكر الكتاب المسرحيون فيه تفكيراً جدياً، ولكن مع هذا الاعتبار دائماً، وهو أن هداية المسرح الجماعة في الحياة يجب أن تنال أو فرحظ من العناية، ويجب أن تكون عند رجال المسرح في المكان الال

٧ حاول بعض الكتاب المسرحيين في مصر، وفي مقدمتهم المرحوم محمد تيمور، أن يجعلوا غايتهم من قطعهم المسرحية هذا التوجيه الصالح لتطور الجماعة إلى الناحية الأكثر على الإنسانية جدوى في رقيها وفي سعادتها، فانزعوا من وقائع الحياة في مصر صوراً أبرزوها على المسرح لتس من الجمهور بعض نواحي الحياة ولتستفز منه العقل أو العاطفة أو العقيدة. ولست أحاول أن أحلل أو أنقد بعض هذه

القطع . لكن هذا المجهود الصالح لم يصل الى غايته ولم تتداوله الايدي بقدر نتجلى معه من الحياة نواح كثيرة ، فتوجه في نفس المطاع على القطع التمثيلية المختلفة تيار التطور الى الناحية المراد أن يتجه اليها . ولعل لا أغلو إن قلت إن كثيراً من هذه القطع كانت تنقصه روح الفن التي تضاعف الحياة على المسرح مضاعفة تجعل ما يتركه من الاثر في النفس قويا عميقا لا يتبخر ولا يزول بعد مغادرة المشاهد المسرح بسويغات . قد يذهب بعضهم الى أن جانباً كبيراً من اللوم في هذا يقع على الممثلين الذين لا ينقلون الى الجمهور كل ما يريد المؤلف أن ينقله اليه من صور الحياة ولا يوجهون هذا الجمهور الى ما يريد المؤلف أن يوجهه اليه ليندفع تيار تطوره الى ناحية خاصة . لكنني أعتقد من جانبي أن المؤلف جدير بقدر من اللوم أكثر من الممثل ، وهو جدير بكل اللوم أن كان واجبا عليه هو أن يختار الممثل الذي ينقل قطعه المسرحية الى الجمهور . وأكبر ظني أن لو اختيرت المواضيع من واقع ما تضرب به الحياة اختياراً يجعل الموضوع لذاته قويا أخذاً ، لكان هذا الاختيار نفسه جديراً أن يسمو بالممثل الى ما لا تسمو به اليه القطع التي تمثل اليوم والتي تعتمد أكثر أمرها على الخيال البعيد عن قوة تصوير ما في الحياة التي نرى ونحس .

نعم . فإن كثيرين من كتابنا وممثلينا يظنون المقدرة غاية المقدرة في ابداع ما لا تستطيع الحياة ابداعه . وأنت أكثر ما ترى على مسارحنا ما سى ومهازل منقولة عن اللغات الاوربية ، والغرض من أكثرها لا يعدو إلهاب خيال الجماهير الساذجة القاصرة الخيال

واتى تريد لذلك أن ترى في المدهش وفي المعجب والمطرب ما يعوض
عليها قصر خيالها. وهذا الضرب من التأليف ومن التمثيل أقرب
الضروب إلى ما يرغب الاطفال عادة في مشاهدته في خيال الظل
والقرا كوز ونحوها. وإذا كان هذا النوع من الفن مما يثير إعجاب
البعض فهو في نظري ليس بالفن الذي يؤدي للحياة رسالة الفن
الجدير باسم الفن ، والذي يتصل بالحياة ويسبقها في تصوير سبيل
الكمال لها وفي تشذيب ما بها من شذوذ يعوقها عن سرعة السير في
سبيل الكمال هذه. وهذا الفن هو الذي ندعو لدراسته وجعله
موضع التأليف المسرحي .

ولست هذه المواضيع بالقليلة أو النافذة في مصر بل إن مما
تثقل الصحف السيارة من أخبار وحوادث قد نمر عليها من غير أن
تقف طمعتنا عندها ، ما يجدر بالعناية والدراسة والبحث وما يصلح
خير صلاح ليكون قطعاً تمثيلية إذا أتقنت من ناحية التأليف كانت
من خير ما أخرج للناس في مختلف البلاد والأمم . لكن العناية
والدراسة والبحث تحتاج إلى مجهود . وقد أصابتنا الحرب بما أصابت
به أوروبا من السعي للفرار من كل مجهود متصل مضى ولكنه عظيم
النتيجة عميق الأثر .

هل لنا أن نرجو التغلب على هذا الهمود الذي أصابنا في نواح
كثيرة ، منها ناحية التأليف المسرحي ؟ وهل للمؤلفين المسرحيين
عندنا أن ينظروا إلى هذا الفن نظرة جد وأن يعتبروه جديراً
بمجهود مشاير منتج ؟ وهل لكتابنا الذين يعنون بهذه المواضيع
أكثر من عنايتنا والذين يعرفون لذلك أسباب ضعفها وقوتها أكثر

مما نعرف ، أن يكشفوا عن هذه الاسباب وعلى وسيلة التغلب على
الضعف واستشارة مقدمات القوة ؟ ان النجاح في هذا وما قد يكون
أثراً له من النجاح في التأليف المسرحي خليك بأن يوجه تطور
الامة توجيهها صالحاً لم توفق حتى اليوم له . وهذه غاية سامية
جديرة بأ كبر الرؤس وأنضج العقول .

الادب القومي

عرفت بباريس في ربيع سنة ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأمها بالنزل الذي كنت به وأقامت فيه أسبوعين ثم غادرت وأمها الى ألمانيا في واحدة من هاته الرحلات التي يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة . وكنا أهل النزل جميعاً نقضى ما بعد العشاء في صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع على البيانو أنى كانت تحب هذا العزف الى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويعات بيني وبين الفتاة الكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث اليها بالانكليزية لأنها لا تحب الفرنسية . وكنت يومئذ أكتب « زينب » وكانت لي يومئذ في الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أو هام طويلة عريضة . وعرفت مس شلوك كاسلز ذلك من أمرى وعرفت مما كان يرد إلى من صحف مصر إنى أكتب في بعضها . فلما كانت الليلة التي اعترمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتني في ذلك المستقبل الذي كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى فقالت :

— كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر في صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ انكترا . إننى وإن لم

أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جميلاً وان تاريخها وآثارها
جديران بالكشف عنهما وتقريبهما للناس في الصورة القصصية
المحببة للنفس . ولعلك إن فعلت تجعل إهداء أولى هذه الروايات
التاريخية لى .

ولم أفعل ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارىء في
الفصول الأخيرة من هذا الكتاب . لكننى أشعر من يومئذ كما
كنت أشعر من قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس
الأديب وروحه ، وإن لم يظهر وحيها في آثار حياته ، كان الأدب
فاتراً ضعيفاً لأنه لا يصف الواقع ولا يجلو الحقيقة . وخير ما يكفل
وضوح ذاتية الأديب فى أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل
حياته . وليس ذلك بمستطاع على أكمل وجوهه إلا حينما نصف
حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التى أنبتتنا والوراثة الكامنة فىنا فنصل
بذلك حاضرننا بماضينا ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا
وكل ما توحى به هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا
تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى .

وعدت من باريس الى مصر فى سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين
شهراً أقمتها بها وجست أثناءها خلال أوروبا . وعدت عن طريق
سويسرا وإيطاليا وركبت البحر من برندزى الى بورسعيد وكانت
هذه أول مرة رأيت ذلك المرفأ المصرى . وما أزال حتى اليوم
أذكر ما أثارتته مقارنتى بينه وبين مدن أوروبا من رغبة عنه وحرص
على مغادرته . فلما ركبت القطار الى قرينتنا ونزلت منه فى محطة
وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا وسرت على

هذه الطرق وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتي وأستمع بها
صباي نسيت أوريا ورينها وأهلها وكل ما فيها وشعرت بقلبي يتفتح
ونفسي تنتشر في أرجائها السعادة ووجودي يكاد يطفر من فرط
الطرب وأحسست كأنني عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من
هذه الأشجار وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب في التربة وبكل
ذرة من هذا الهواء، هواء قرينتنا الصغيرة الجميلة. فلما انتهيت إلى بيتي
وأهلي لم استطع أن أحبس احساسى فتركته يطفر فرحا سعيداً
وشعرت بما في ذلك كله من وحي صادق لمن أراد الكتابة عنه.

وفي سنة ١٩٣٢، أى بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك
التاريخ، وكنت اتقل في ربوع الشام، إذ مررت بمعرة النعمان ولم
أقف عندها. مع ذلك نمتل لي في هذه الساعة هذا الشيخ أبو العلاء
وارتسم أمامي تمثاله وفصلت أمام بصيرتي آدابه وحكمته وفلسفته
والفيت قطعة من شبابي ترتسم أمامي بقوة ووضوح وشعرت كأن
هذا البلد الذي لم أر من قبل قط يحتوى شيئاً من حياتي. إذ ذاك
سألت نفسي: إذا كان هذا شأني ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث
محص ولم أقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديقي الدكتور طه حسين:
ذكرى أبي العلاء، فإذا تكون الحال بالنسبة لمن يدرسون تاريخ
أسلافنا المتصلين جميعاً في سائر البلاد التي تتكلم العربية دراسة
تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم. ألا يكون
ذلك مصدر إلهام لهم أصدق الإلهام ووحى في التاريخ والأدب
أسمى ما يكون الوحي. والالهام يكون لا ريب أسنى كلما كان أوثق
اتصالاً بوطن الإنسان وقومه. والأدب الذي يصدر عن هذا

الالهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدبا قومياً صادقا .
 وكما يسمو وحي الوطن بالكاتب في الادب القومي فان هذا
 الادب يخلع على الوطن في نفوس أهله جميعاً جلالاً وبهاءً يزيدانهم له
 حباً وبه إيماناً وتقديساً وإياه اعزازاً . ولقد كان للادب القومي وللفن
 القومي في كل الامم أعمق الاثر من هذه الناحية . وضعف أدب
 مصر وفنها القومي له الاثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضاً .

ولأدلك على ذلك اذكر اني زرت روما غير مرة . وكنت
 ككل مقيم بروما أو زائر إياها أخطي نهر التبر مرات . وفيما
 أخطاه يوما ذكرت أبياتاً من الشعر الانكليزي حفظناها حين
 كنا بالمدارس الثانوية فيها قصة لبطل لم يحضرني اسمه كما لم
 يحضرني اسم الشاعر صاحب القصيدة . ولست أذكر أكان هذا
 البطل قد أحيط به فاضطر ليلقي بنفسه في النهر أو أنه أراد مهاجمة

خصوم لروما في الجانب الثاني من التبر فرمى فيه بنفسه ليعبره
 ساججاً . ولم يعنني من أمر القصيدة كلها شيء ، ولم أجد ذاكراتي
 لاستظهار شيء منها . وإنما عنيتني الايات التي قالها البطل ساعة
 التي بنفسه في الماء ، وعنيتني فيها نعمة المتعبد المقدس إذ يقول :

« ايها التبر ، يا أبانا التبر ومن يسبح الرومان بحمده ، اليك حياة
 روماني وعدة حربه خذها اليوم في رعايتك » . ذكرت هذه الايات
 وألقيت على النهر نظرة طويلة وجاهدت كي أجد فيه ما يبعث لنفسى
 مثل القداسة التي كانت وما تزال تلك الايات التي حفظت صغيراً
 مبعثها عندي . وأعترف أني لم أصل من جهادى الى شيء ، لأنني

لم احاول اجهاد ذاكراتي لاستظهر ما عرفت من تاريخ الرومان
ولأجد فيه هذه النقداسة التي شاد البطل الروماني بها على لسان
الشاعر الانكليزي . لكنني مع ذلك ما أزال أرى في هذه الايات
نفسها قداسة تجذبني الى ناحية التبر وتدعوني لاستشف من
مجره ومن تاريخه ما أوحى للمؤمن من الشعراء والكتاب بالقصائد
والصحف الخالدة .

وليس نهر السين في اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر في
اختراقه روما . لكنني إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه
أشعر في عمق نفسي بما يجعلني أشارك هؤلاء الشعراء في محبة نهر
باريس واجلاله . ذلك أني عشت الى جوانب السين سنوات وعرفت
من مجراه وتاريخه وكان لي فوق لجته ما يجعل له في حياتي أثراً
يدعوني للاشتراك في شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه
والى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعرونثر ،
وبكل ما تقع عليه عيني من صور لا ما كن فيه ، وبخاصة اذا كنت
قد قرأت عنها شيئاً يجعلها في حكم ما عرفته بنفسى

وشهدت في سويسرا جمالا وروعة جعلاني أقرأ ما كتب
عنهما لأزداد لها تذوقاً وبهما سروراً . وأشهد لقد كنت ، كما
تزايد ما قرأت ، أشد لجمال سويسرا وروعها حباً . وليس في
شيء من هذا كله أى عجب . فكلنا أكثر بالجمال في مختلف صورهِ
استمتاعاً كلما كان معنا رفيق يشاركنا المتاع . والمتاع يزداد كلما
كان الشريك أكثر للجمال قدراً وبدقائه معرفة . فانت في صحبة
شاعر أكثر استجلاء لما في منظر من مناظر الطبيعة أوفى حادث من

الحوادث من شعر . وأنت في صحبة موسيقار ترى بعينيك أنغاماً
يشيرها في الجو جمال الصور . وأنت في صحبة مصور تحس بما في
الشعر وما في الانغام من صور رائعة واضحة الحدود . ممالك اذا
كان ما تقرأه في قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب عن
نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع
فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقي فيه الفنون الجميلة كلها . أنت
إذن تود لو تعود الى هذا المنظر . وأنت إذا عدت اليه لاشك
واجد فيه حديثاً أشهى وأعذب من حديثه اليك قبل أن تقرأ عنه
ما قرأت ، وتسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت .

وعدت الى مصر من روما في العشرة الاخيرة من أغسطس
سنة ١٩٢٩ وأتيحت لي يومئذ أن أشهد فيها منظرًا لم يتح لي المتاع به منذ
سنوات . ذلك منظر النيل في فيضانه . واتيحت لي أن أشهد هذا
المنظر في أروع صورته وأكثرها مهابة وجلالا . فلم يبلغ فيضان
النيل من العظمة والرهبة منذ عشرات من السنين ما بلغه ذلك العام .
وما كادت عيني تقع على النهر حتى تحركت في نفسي كل عواطف
الاكبار والتقديس وحتى ذكرت من مناظر النهر التي شهدتها
بالاقصر واسوان والسودان ما زادني بحماله وجلاله وروعته شعوراً
وما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس أجدادنا القراعة الاقدمين
الذين كانوا يرون في « البحر الاعظم » معبودهم الذي أتاح لهم
الحياة وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة . ولذلك جعلت كلما
سنحت لي الفرصة اذهب الى شواطئه أملاً ناظري وقلبي وجواني
إعجاباً به وتقديساً إياه ودعاء أن يكتفي من فيضانه بما يغمر البلاد

من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون وأهلها من
المغرقين .

وأفضيت يوماً بخوالج نفسي الى صديق من الذين زاروا أوربا
وتنقلوا في مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها في تباين صورته واختلاف
أوضاعه ، وذكريات له عميق شعوري بجلال النيل عمقا لم أشعر به
حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعه أثناء
بدائع سويسرا فوق موج بحيرات الهاديء وبين شوامخ جبالها
الساحرة السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء
يزيد في روعه جلالها بما يجعلها دائماً المتغير والمتوج كلما تغير الجو
ومتوجت السحب . وتبسم صاحبي ضاحكا من قولي معتقداً اني
امزح ، ثم كرر هذه الانشودة التي نسمعها دائماً وقد نكررها
احياناً : وماذا في مصر من جمال وماذا لطبيعتها من روعة وهي
ليست الا مسطوحاً من الارض يملك تشابهه الذي لا يعبس ولا
يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكا . وكيف تقرن هذا
الوادي المحصور بين الصحاري الجذباء المحرقة الى سويسرا جنة
الله على الارض ، أو الى ايطاليا مهد الفن والجمال ، أو الى اية بلد
يكفيه دلالة على جماله ان ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن في حين
لم تلهم مصر احداً اذ ليس في تشابهها ما يلهم شعرا أو يقيم فنا .
ليس صاحبي ، مع شيء كثير من الاسف ، هو - الذي يفكر
هذا التذكير أو ينظر الى بلاده هاته النظرة الخاطئة المملوءة غروراً
وعقوقاً ، بل ان الاكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون
باعتبارهم بما رأوا وما لم يروا من بدائع الجمال في أوربا زهوهم بما

تبعته مناظر بلادهم الى نفوسهم من ملال . ثم أن كثيرين ممن لم تتح لهم اسنارهم وقراءاتهم المفخرة بهذا الزهو لبعثونك في أبلغ الاعجاب بجمال صحراء العرب وما انجبت هذه الصحراء من حب وحماس وكرم تجلى في الشعر العربي القديم ولينزون بهذا زهوهم باملال بلادهم إياهم . وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التي تسمى جماعة المتعلمين في مصر . وقد يكون هؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتابا ولا رجال فن ، وأن أحداً لم يحرك في نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكمينة في نهرهم وواديهم وفي صحارى بلادهم . وواحترام المنقطة النظير كلها في بهر روعتها وسحر جمالها وقداستها جلالها . لكن العجب هم أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها . هؤلاء كذلك يشعرون أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال يمثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر . فقل منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال الى حد يبرز شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازاً يخرج من نفوسهم صيحات صادقة كلما تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه ، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو خيالهم هذه الاناشيد التي تدفع بالنارس ليلتي بنفسه في غمار التبر متغنياً : « أيها التبر ، يا أبانا التبر ، يا من يسبح الرومان بحمده ، اليك حياة روماني وعدة حربه خذها اليوم في رعايتك » . بل إن أحدهم ليحس أحياناً بأن واجبا عليه أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك ولكنك وجدته خلواً من الشعور الصادق والاحساس العميق . وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له .

وسر هذا الجود في تقدير جمال بلادنا ضعف الايمان في نقوس
شعرائنا وأدبائنا وكتابتنا وذوى الفن فينا بالجمال . وسبب ذلك أنهم
يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة . فالجميل هو
ما تغنى به غيرهم على أنه جميل . أما ما لم يقفوا على أن الغير تغنى به فلا
يمكن أن يكون جميلاً . وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين
أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم وقيمون لهذا الجمال أعياده
ويقدمون له فيها قرايبه ، وما دامت الكتب التي فيها تلك الاغنيات
قد أصبحت في غير متناول الاكثرين منا وأصبحت قراءتها لا تلهي
فبحسبنا أن نقرأ ما تعودنا قراءته تلاميذ عن جمال صحراء العرب
وأن نتقل بعد ذلك لقراءة ما تعودنا قراءته طلابا عن جمال أوربا
وروعة تاريخها . فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسوراً ، وليست قراءته
مستحبة . ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة . وإذن
فصر لا جمال فيها وهي بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول
وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والأدب .

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب في سربقائهم على التقليد
وحبسهم نقوسهم على ما سبقهم اليه غيرهم رأيتهم يجيبونك بأن لا جديد
تحت الشمس ، وكل ما تحت الشمس قد دون وحوته المكاتب ،
وانهم لهذا يكتفونهم أن يقلدوا سابقهم وأن ينقلوا عن معاصريهم
من أهل البلاد الأخرى . هم في ذلك متورطون في أخش الخطأ .
وأى خطأ أخش من ايمانهم بأن لا جديد تحت الشمس ! . بلى !
إن كل ما تحت الشمس جديد لانه دائم التجدد . والشمس نفسها

تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه . وكل انسان منا جديد ، وهو كل يوم متجدد . وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجديدا . واذا كان حسنا وواجبا أن يمتزج الانسان بالماضي وأن يده هذا الماضي طي الكتب فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين وليجد بذلك للمستقبل صورا أقوى مافيهما من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة اذا كان هذا الماضي هو ماضى بلادك ، وكان هذا الحاضر هو حاضر بلادك ، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال . فاذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتتمثل مافيهما من جمال وتجليه على غيرك ، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الانسان كلها وترنمت عن ايمان صادق بأناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الالهام . لكذك على كل حال لن تجد في قصرك نفسك على الكتب إلهاماً صحيحاً ولا وحيّاً صادقا . إنما الالهام الصحيح والوحي الصادق في اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك مافيهما من جمال هو الاساس الاول لكل ايمان صحيح .

وكيف لانسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل اليه عن طريق حسه هو ، وإنما وصل اليه من طريق حس غيره !
كيف له أن يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه وإنما هو يذكره لأن

غيره ذكره ويحس به لأن غيره أحس به . إن العواطف لتختلف
مظاهرها ، وإن اتفقت في النفس مصادرها ، باختلاف الوسط الذي
تبدو فيه . وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة
غير التي تتجلى بها عند أهل الشمال . ولذلك تختلف أناشيد الحب
من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر . ما بالك بالصور التي يقع عليها
الحس ويتأثر بها في صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم ،
لأن الأشخاص يختلفون في قوة كل حاسة من حواسهم وحس من
إحساسهم وعاطفة من عواطفهم .

كنت أتصفح يوماً مجموعة من الشعر الفرنسي نشرت في مجلة
الحوليات Les Annales في ملحق لها وجعلت عنوانها إلى جانب
المدفأ Au coin du Feu وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى
ما يشبه المدفأ في نفس أكثر الشعراء بل كلهم من الخواطر وما يجيش في
نفوسهم من العواطف . وفي هذه المجموعة كثير من الغراميات
الرقية يذكر فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبة في هدأة الغرفة
التي يقيم فيها ، أو كيف ذهب هو إليها في غرفتها ، وكيف جلسا
على مقربة من النار يصطليان بينما تهطل التلوج وتكسو الطبيعة
الحديقة بهما بثوبها الناصع البياض ، وكيف تبادلا حلو الغرام
وتأجيا أغاريد ، وكيف تاهت عليه صاحبة ودلت ثم زادت تيمناً
ودلاً بينما زاد هو استعطافاً وضراعة ، وكيف جثا عند قدميها راجياً
أملاً ، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشاً من الأحلام
والمنى العذبة اللاذعة ، أو كيف جعلاً يقرآن ويتحدثان ثم إذا
القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلوبهما حتى يمزجاها مزجاً ، وما

الى ذلك من صور حلوة يزيد لها حلاوة أنها تعبر عن احساس صادق
 وشعور فياض ، وهى مع ذلك وفى تعبيرها انقوى هذا بسيطة كل
 البساطة فى نفسها وفى روايتها ، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا اغراب .
 وذ كرت حين قراءتى فى هذه المجموعة من الشعر الفرنسى
 التى ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر فى الفن وفى الادب
 عند أهل أمم الشمال كافة . وليس أحد يعرف الادب الانجليزى
 شعراً ونثراً الا يذكر جوار المدفأ The Fireside وما ألهم
 الكتاب والشعراء . بل أن لجوار المدفأ لأثراً عملياً فى حياة هذه
 الامم الشمالية كلها ، وهو لاشك له مثل هذا الاثر فى الامم
 الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط فى الشمال وحيث يضطر
 الناس للاحتماء بالجدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل
 أهل الشمال سواء . وأنت إذ تقرأ شيئاً عن حياة أهل هذه
 البلاد ترى هذا الاثر واضحاً ظاهراً فى عيشهم وفى توزيع ثروتهم
 وفى ألوان طعامهم ولباسهم وفى صور سرورهم وملذاتهم . فالى
 جوار المدفأ تجلس الجدة العجوزة تقص على أطفالها قصص الماضى
 وخرافاته وأساطيره . والى جوار المدفأ تجلس الاسرة تتناول
 طعامها فى النهار وفى الليل . والى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرءون
 والنساء يطرزن والاطفال من حول أمهاتهم وآبائهم فى شغل
 بلعبهم وما أعد لتسليةهم . ويجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده
 ويكتب الكاتب رواياته ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف
 فى خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره . فلا عجب ، وذلك أثر المدفأ
 فى حياة تلك الامم ، أن يكون المدفأ وما يلعب فيه من بصيص

النيران وما يرسل من ضياء لا يضيء ، لا عجب أن يكون مصدر وحى
والهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف وأن يكون بعيد
الآثر في الفن والتفكير عند الذين يقضون حظاً عظيماً من وقتهم
في جواره .

١٨ / وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التي تلهي الشعراء
شعرهم في بلاد الشمال . لسكن الثلوج وقر الشتاء وبداية الربيع
وتفتح الأزهار وكل ما في الطبيعة المحيطة بهم يلهيهم هو
الآخر . وهو يلهيهم بذاته عن طريق إتصالهم به . وليس
إلهامهم إياهم مقصوراً على ما يقرأون عنه في الكتب التي سبقهم بها
غيرهم ، بل لها نحن أولاً تحيط بنا طبيعة ساحرة ومع ذلك لا يظهر
لها في شعر شعرائنا ولا في كتابة أدبائنا من الآثر إلا قليل . ولذلك
تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد ، لأن الذين ألفت الطبيعة
عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها . بل نرى شعراءنا
وكتابتنا وذوى الفن منا لا يتصلون ، كما قدمنا ، بالحياة إلا عن
طرق غيرهم ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه . وهم
في هذا ينسون أنهم القيثارة التي تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال
مائلة في مختلف مظاهر الطبيعة ، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام
سبقهم غيرهم إليها وبذلك وقضى على كل أمل في أن تكون لهم
شخصية قائمة بذاتها حين يشدون هم بها ويحاولون تجديدها . وهم
لا يكادون يجدون شيئاً لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر في وصف
مصر والتغنى بسحر جمالها ، فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئاً
من أمرها . فإن هم ذكروا منه شيئاً لم يزد على بريق حسن بدا لهم فلم

يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به واكتفوا بأن سجلوه في فراره،
كأنما ليس له في حياة مصر قرار. ولو أن ربة الشعر والفن
والكتابة كانت تلهيهم لآمنوا بأن الفن ليس هو اثبات هذا
البريق الفرار، وإنما هو الوقوف عند الجمال والاعجاب به وأخذه
الى مجامع النفس في مختلف صورته والعود اليه مرة ثم مرة ثم مرة
والوصول بالنفس الى حدود الفناء فيه حتى تمتليء به وتجمع اليه ما
تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه، ثم اذا هذا الجمال يفيض عن
ذى الفن، واذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة
أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذي تمثلته نفس إنسانية ممتازة
روحاً إنسانية تخالط النفوس كلها فتشعر في أعماقها بمثل ما شعر
به رجل الفن، وتحس في الأشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم
يكشف هذا الرجل عنه ولو لم يخلقه في الحياة خلقاً يجبل للانسان
على الارض من المجد مثل مجد الله في العلا.

ولنعد الى النيل، الى هذا « البحر الاعظم » الذي كان أنشودة
العالم منذ القدم، الى النهر الذي تأله على الدهر وجل في كل العصور
وتقدس عند كل الاديان. ألم يكن رباً من أرباب الفراعنة يرمزون
له بأبنيس إله الخير والبركة؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة وأنه
فيها ينبع من أنهار العسل؟ ما أشك لحظة في أن الشاعر أو الكاتب
أو المصور يجد في هذا النهر اذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدنه
إجلاله وحبه، وحيّاً لا ينضب وإلهاماً يكتفيه مدى حياته، بل
يكفي شعراء وكتاباً وأرباب فن على تعاقب الاجيال جميعاً. إن في
تبدل مياهه وتغير مجراه في كل فصل من فصول السنة، وفي إرتفاعه

بالفيضان جباراً رحيماً : يغرق ويسقى ويطنى ويخصب ، وفي خضوعه
للسابحات من الفلك فوق ظهره تجرى بالتجارة حيناً وبالمسرة واللهو
حيناً ، وفي هؤلاء الذين يتغنون في سكينه مطمئنة حين هو يحملهم
في أناة ومن غير عجلة الى حيث يريدون ، وفي تعاريجه وشلالاته
وسدوده وفي انبعاثه من هناك هناك عند خط الاستواء ماراً
بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو الى مصبه ، وفي شواطئه الخصبة
بطميه الدائمة شكر النعمة ، وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعا
وقنوت والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذي يمد بالحياة كل
ماحوله ، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائم
التجدد والجمال ، في هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد
والكتب والصور وما لا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها
الى يوم أزها إلا بعضه ، لأن مصر وتاريخها ليسا إلا بعض هدايا
النيل واعطيائه .

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الاله كل ماملاً به نفسي من نقديس
وإجلال في كل مرة صحبته فيها ، ولن أنسى منظره الذي أشرت اليه حين
عج بفيضانه في صيف سنة ١٩٢٩ وحين أخذني اليه أخذاً إثر
عودتي من أوروبا بعد مشاهدتي انتمس والسين والتبر في مختلف
عواصمها في الساعات الثلاث التي قضيت ما بين الإسكندرية والقاهرة
وبعد أن تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلات نفسي بروعة جلاله .
يومئذ تحرك في نفسي الفلاح القديم الذي ورث عن آبائه وأجداده حب
هذا الثرى المقدس واجلال هذا النهر المبارك والاعجاب الى غاية
حدود الاعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملاي بحياة كلها البهجة

والنضرة . نعم ! تحرك هذا الفلاح في نفسي ، فصرت لا أبصر الا بعينه ولا أسمع الا بأذنه ولا أحس الا بقلبه ولا أشعر الا بشعوره ، فكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذاً بمنظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثر مما يأخذني أي مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسي على أشده لمشهد مياه النيل في فيضانه تتقلب موجاتها الحمراء بعضها فوق بعض في الترع وفي النهر العظيم . يا لها ذات جمال لا يعد له جمال وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة ! اني لأشعر ان هذا الماء المملوء حياة وخصباً يجري في حنايا نفسي ويجري في عروقي مع دمي أكثر مما يجري في النهر وفي الترع المتفرعة منه . واني ما زال لذلك أراه أمام نظري وأنا أكتب في غرفتي أمام كتي ومكتبي . نعم ! هاهو يموج حلواً جذاباً ساحراً بلونه الطامى وموجه المتدافع في طمأنينة بين جروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والاشجار ، وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية الى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترايبية اللون تأوي اليها اليد العاملة التي تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التي يجود الله بها على أهل مصر . وها هو يموج في عظمة وجلال وقوة تدافع في مجرى النهر الذي اتخذ منه أجدادنا القراعنة الهاك يعبدونه ، والذي جعل من مصر جنة فيحاء بدل أن يذرهما تندمج فيما يحيط بهما من صحروات جرداء . أين أنت يا أنهار أوروبا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات ؛ ومع ذلك يقدر سكان روما القبر وسكان باريس السين وسكان برلين الاسبري وسكان لندره

التمس ! ما أكبر مالا جادا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة
النعيم منابذك الالهية .

أى منظر من مناظر بحيرة ليمان وسحرها البديع يعدل منظر
نهرنا فى سحره وبره ؟ وأى جبال فى سويسرا أو غير سويسرا
تعدل هذه المستويات الذاهية إلى الأفق تكسوها زروع مصر
واشجارها وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة !! أنظر الى مزرعة
الذرة ماتزال فى اول صباها زاهية خضرة اوراقها غضة سيقانها
تلتف حولها عقلها وكأنها قصبات الناي يثير منظرها فى أذنك ألحانا
لا تدرى أهى عيدان الذرة ترتلها أم هى اصوات الموسيقى المصرية
الحنون تموج على أوتار فؤادك لتكلم فى نفسك جمال هذا المنظر
المصرى الفذ الجمال . ثم انظر الى اشجار القطن مناط آمال اهلنا
الذين تراهم سمر الوجوه سود العيون حادى النظرات تلمع عيونهم
ذكاء وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة . وسط
هذا الوطن الذى نشأت فيه والذى نسيت معه كل مارأيت مما
سواه ذكرت أننى أستطيع أن أجوب أقطار الارض ماشئت ،
وأشهد من صور الجمال فى مختلف مظاهر الفن ما حلالى أن اشهد ،
وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويطرب ، وأن أقرأ من
أدب العرب وأدب الافرنج كل ما يتسع وقتى لقراءته . أستطيع
أن أصنع هذا واكثر منه من مثله ثم أبقي بعد ذلك وفوق ذلك مصريا
وأبقي أكثر من مصرى ، أبقي فلاحاً قحاً صمياً ، أقدم كل ما فى
مصر ومزارعها من جمال ، وأقدم النيل الذى حبا مصر الحياة
وحباها الجمال .

لو أن رهطا من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودونوا وحيه ، لرأيت صاحبي الذي هز كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله أشد بنيل بلاده إعجابا منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالنفس يسكب الجمال حتى في النفوس الجامدة أمام الجمال . وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس الى العمل للمزيد من هذا الجمال . ذلك بأنه يجب اليهم الحياة ويدعوهم الى زيادة تجميلها والى معاونته الطبيعة لاستظهار زينتها وبهرجتها . وما أشك في أن سويسرا مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الانسان بعد أن دله الفن واربابه على مبلغ ما جلست الطبيعة به هذه البلاد . ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا كل ما في وسعهم لزيادة جمالها جلالا وروعة ، ولرأينا هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة في جلال سهولته وقد رأوه باهراً بارعا من خلال ما عمل الانسان لاستظهاره فأمنوا به ايمانهم بجمال سويسرا ، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر ، بل لكان تقديسهم وايمانهم أقوى وأعمق لانه تقديس جمال متصل بنفوسهم جار مجرى الدم في عروقهم .

ولست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هي وحدها ذات السحر والفتنة ، بل إن تاريخها القديم والحديث ليحتوى من ذلك أكثر مما يحتوى أى تاريخ غيره كما سنبين في الفصل التالى . وهذا التاريخ وذاك الوادى ونزهره كلهما جديرة بأن تكون مصدرالوحي لأدب قومى يصور مصر فى ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع فى نفس أبناءها وفى نفس الأجانب عنها ممن يقرأون هذا

الأدب فيعرفون مصر كما هي حقاً ، لا مصر التي شوهت شر تشويه
بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية . ويومئذ تنتقل النفس
المصرية خطوة واسعة في سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها ، وتنتقل كذلك
خطوة واسعة في سبيل تمثل الجمال والخير والحق ، وتسمو بذلك
إلى المكان الانساني الصحيح الذي ألتى على عاتق الأدب في مختلف
العصور أن يمهّد له فيعد الانسانية عن طريقه لبلوغ الكمال .

التاريخ والادب القومى

بين مصر الحديثة ومصر القديمة إتصال تقسى وثيق ينسأه كثيرون يحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور القراعنة من تطورات فى نظم الحكم وفى العقائد الدينية وفى اللغة وفى غير ذلك من مقومات حياة الأمم قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلاً حاسماً جعلنا إلى العرب أو إلى الرومان أقرب منا إلى أولئك الذين عمروا وادى النيل فى ألوف السنين التى سبقت المسيحية . وهم يعلمون ما يحسبونه من ذلك بعظم هذه التطورات . فكيف ترى المصريين الذين يتكلمون العربية المصرية اليوم ، والذين يتصورون الأشياء على ما تريد لهم لغة العرب أن يتصوروها ، تتصل حياتهم النفسية فيما يتعلق بالتصوير والخيال بحياة الذين كانوا يتكلمون الهيروغليفية بما كانت تحمله الفاظها وعباراتها المتوارثة إلى القلوب والعقول من صور . وكيف ترى المصريين الذين يدين أكثرهم بالاسلام وأقلهم بالمسيحية والذين تكونت عقائدهم على ما فى كتب الأسلام والنصرانية المقدسة — وبين هذه الكتب المقدسة صلة كل الصلة — كيف تراهم يعتقدون ما كان يعتقد عباده آمون ورع وآلهة مصر القديمة المتعديدين ؟! بل كيف تراهم

ترتبط عقائدهم بتلك العقائد القديمة أى ارتباط ؟ ثم كيف ترى
المصريين الذين خضعوا لنظم الرومان ، ثم لنظم المسلمين ، ثم للنظم
الديموقراطية الحاضرة فى صور الحكم ، يفهمون من الحكم ما كان
يفهمه أولئك الذين خضعوا فى سكينه واستسلام لبناء الاهرام
والكرنك وهذه المعابد الضخمة العظيمة الخالد على التاريخ مجدها ،
والتي ما كانت مع ذلك لتشاد لولا استسلام الشعب لألوان الاستبداد
التي فرضت عليه ؟! أو ليس اقول ، وهذه هي الحال ، بوجود الصلة
النفسية بين مصر الحديثة ومصر القديمة أقرب الى الخيال منه الى
الحقيقة التاريخية ؟.. ولئن أرضى هذا الخيال فكرة قومية تريد
أن تصل مجد مصر الحاضر بمجدها القديم فهو لن يرضى الواقع
الذى يجب الاعتراف به ، والذي يفصل بين المصريين القديمة والحديثة
فصلا حاسما .

كذلك يقول الكثيرون . ولقولهم ظاهر من الحقيقة . لكنه
لا يعدو هذا الظاهر من الحقيقة فى قول القائل بانقطاع الاتصال
النفسي بينك وبين أجدادك لأنك تعلمت غير تعليمهم وفهمت الحياة
غير فهمهم إياها ، وخضعت لنظام من الحكم غير الذى خضعوا له ،
وصرت تتكلم بلغات غير اللغة التي كانوا يتكلمون ، وتنظر الى
العقيدة بغير العين التي كانوا ينظرون . أنت فى الظاهر تختلف
عن هؤلاء الأجداد جد الاختلاف . وقد يحسب من رأيهم ويراك
أنك لست منهم وانهم ليسوا منك . لكن ذلك لا يزيد على أنه
الظاهر . أما الحقيقة العميقة التي تشعر بها أنت ويثبتها العلم فهي
أن بينك وبين أجدادك إتصالا وثيقا لا سبيل الى إنكاره ، وأن

جهله الناس ، وإن جهلته أنت . فهذا الدم الذى كان يجرى فى عروقهم يجرى فى عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التى كانت تدفعهم فى حياتهم هى التى تدفعك فى حياتك . وأنت محكوم عليك طائعاً أو كارهاً أن تخضع للوراثة التى أورثوك إياها .

فإذا أنت دخلت يوماً الى نفسك تحاسبها على أعمالها ، وإذا أنت امتحنت يوماً خلقك وحلت فطرتك وتعرفت سجيته إذن لرأيت جوهر أجدادك قد انتقل اليك . فإذا خضعت بحكم الحياة المحيطة بك لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم ، فسك الذهب عملة مختلفة الاشكال لا يغير من أنه ذهب وإن المعدن الاصيل باق فيه بقاء معدن أجدادك فيك .

وبعد ، فهل تحسب هذه المظاهر التى يظنونها كافية لقطع الاتصال النفسانى بين مصر القديمة ومصر الحديثة من الجسامة بما يكفى لقطع هذه الصلة بل لضعافها ؟ أليست هذه الاديان التى تتابعت على مصر وهذه النظم التى خضعت لها ، وهذه اللغات التى تبدلت عليها ، هى الاديان والنظم واللغات التى تداولت على مصر وعلى البلاد المجاورة لها ؟ ! أليس الاسلام والنصرانية واليهودية هى الاديان التى يعرف كل واحد منها الدين الذى سبقه ويعترف به ؟ ! أليست جميعاً قد نزل الوحي بها فى مصر وفلسطين وبلاد العرب وكلها متجاورة أقرب التجاور ؟ ! أليست اليهودية ، وهى أقدمها جميعاً ، تتصل بالفراغة وبمصر القديمة اتصالاً متيناً . والنصرانية تتصل باليهودية وتعترف بها . والاسلام يتصل بالنصرانية وباليهودية ويعترف بهما ! . . . ثم أليست لغات الفراغة والعرب

والشام تصور حياة هذه البلاد المتجاورة حياة متشابهة في التاريخ
انقدم قريبة الشبه في التاريخ الحديث ؟ ! وأما نظم الحكم فلا تغير من
الحقائق التاريخية شيئاً لأن نظم الحكم تتأثر بالزمان الذي تكون فيه
في مختلف انحاء العالم فهي أضعف من أن تترك في نفسية الامم أثراً عميقاً
فاذا ذكرت كذلك أن الوسط الطبيعي لم يتغير في وادي النيل
منذ آلاف السنين وأن هذا الوسط الطبيعي هو الذي يصلح
اللغات والقائد والانفس ، وان الذين أغاروا على مصر ثم
استوطنوها أجيالاً فقدوا كل صفات اجناسهم القديمة وخضعوا
لحكم الوسط الطبيعي وأصبحوا وكأنما أبائهم واجدادهم في مصر
منذ عهد الفراعنة — اذا ذكرت هذا أيقنت إذن أن بين مصر
الحديثة ومصر القديمة اتصالاً قسماً وثيقاً، وان واجبا على المصريين
أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال، وان خير ميادين البحث العلمي
هي الادب وكتبه والقائد وطقوس العبادة .

ولقد يدعشك أن تعلم أن كثيراً من طقوس العبادة في مصر
هو اليوم كما كان منذ ستة آلاف سنة وكما كان من قبل التاريخ لم يتغير
بتعاقب الأديان المختلفة على مصر . وأنت ترى أن كثيراً من
الحفلات التي تعتبر دينية عند الاقباط وعند المسلمين كحفلات
الزواج وحفلات الجنائز تشابه أشد الشبه وبخاصة في بلاد الارياف
حيث الوراثة سليمة لم تصف بمظاهرها أعاصير الحضارة . هذا مع أن
هذه الحفلات تختلف عند مسلمي مصر عنها عند مسلمي الدول الأخرى
كالغرب وتركيا وتختلف عند اقباط مصر عنها عند نصارى الدول الأخرى .
فهل تستطيع ان تجد لذلك تفسيراً إلا ان هذه الحفلات سابقة في

الحفلات

مصر على المسلمين وعلى الأقباط وعلى الاسلام وعلى المسيحية، وأنها
 ترجع إلى تواريخ ربما كانت سابقة على كل ما كشفت عنه التواريخ.
 أشار بعضهم إلى أن تلقين الميت عند مسلمي مصر عادة ليست
 شائعة عند أكثر المسلمين. وأشار إلى أن عبارة هذا التلقين وما
 جاء فيها عن منكر ونكير وسؤالها وتحديد الاسئلة والتحدث إلى
 الروح والنصح لها بالجواب على صورة معينة كل ذلك يعيد إلى النفس
 صورة طقوس الدفن والحساب عند قدماء المصريين وما كانوا
 يتحدثون به إلى الروح لتنجو. ولست واقفاً على تفاصيل هذه
 الطقوس القديمة لاؤكد ما يؤكدون من مشابهة بينها وبين التلقين.
 لكن هذه المسألة تدل على كل حال على أننا ورثنا حتى في العبادة
 طقوساً تسلمت إلينا من الأزمان القديمة وأنا اقتبسنا من الدين
 الاسلامي ما أسبغناه على هذه الطقوس وصبغناها به. ومن يدري
 إذا لم يكن عند اخواننا الأقباط مثل ما عندنا من ذلك أو أكثر منه.
 ومظاهر الحزن على الميت عند المصريين المسلمين تختلف اختلافاً
 عظيماً عنها عند أهل الأمم الأخرى وتتفق وهذه المظاهر عند سائر
 المصريين كما تتفق وما كان عليه الحال عند قدماء المصريين. فكما
 ترى النسوة من أهل الميت وخدمه وتابعاته قد انتقلن مع جنازته
 في الأزمان القديمة ناديات مولولات لاطحات خدودهن مجللات
 بالسواد أيديهن إذا بك ترى مثل هذا تماماً عند المسلمين من المصريين
 وبخاصة في الأرياف التي ما تزال خاضعة لأحكام العادات القديمة.
 ولعلك إن بحثت عن سبب الإفراط في الحزن وعدم النظر إلى انتهاء
 الحياة بشيء من السلوى وجدته فيما كان يعتقدونه الأقدمون من بقاء

الروح أو بعبارة أدق الشخص الباقي (الكا) يرقب ماسيحل بالجسد من ألوان الألم ساعات الحساب . وكأنا تجسدت هذه الصورة أمام المصريين القدماء فكانوا يرون بعين تصورهم هذا العزيز الناهب خاضعاً لآلهة الحساب وقسوتهم فيولولون ويندبون ويتألمون مع الميت عل في ذلك مايلين قلوب الآلهة ، كما يلين ألم النظارة والحاشرين قلب الحاكم الذي يحاسب رجلاً أمامه على سيئة اجتريها . وبرغم تداول الأديان بد ذلك بقيت هذه الفكرة أشد حياة في النفس المصرية فكانت لذلك أشد فزعا مما بعد الموت من سائر الأمم الاسلامية ، ولم ينهض من كتابها وأدبائها من تعشقوا الحياة ولذا أئذنها على نحو ما تعشقها عمر الخيام وغيره من المسلمين في الفرس وفي بلاد اسلامية أخرى .

٥ بل لقد ترى من مظاهر وراثة المصريين اليوم لتراث أجدادهم الأقدمين ما هو أبلغ في الدلالة على متانة الصلة النفسية بينهما . ذكر غير واحد من المشتغلين بدراسة الطقوس المصرية القديمة ان ما يخلعه المسلمون المصريون اليوم على بعض أوليائهم المحبوبين من مقدرة وسلطان وما يقومون به لهذا الولي من طقوس وفرائض في «مولده» هو بعينه ما كان يقوم به المصريون الأقدمون في هذه المنطقة لآله محلي من آلهتهم من طقوس وفرائض وما كانوا يخلعون عليه من مقدرة وسلطان .

١٠ ولا أريد أن أقرن الى ذلك ما يوجد من شبه عظيم بين قصة موسى عليه السلام من حيث وضعه في التابوت والقاء أمه به في اليم

وانتمقاط فرعون له ، وقصة أوزوريس وخيانة سخت له بوضعه في تابوت والقائه في اليم وعثور إيزيس عليه عند جبيل من أعمال الفينيقيين ، فقد لا يكون الشبه هنا دليلاً على أن القصة واحدة إختلفت عليها أيدي الرواة ، وقد تكون عادة الالتقاء في اليم بعض عادات ذلك العصر فأصاب أوزوريس اله المصريين القدماء الأعظم كما أصابت موسى عليه السلام بعد ذلك على المنحدر الممين في الكتب المقدسة .

(١) لاسبيل إذ ذاك انكار ذلك الاتصال النفسى الوثيق الذى يربط تاريخ مصر منذ بدايته الى عصرنا الحاضر ، وإلى آخر العصور المستقبلية التى يمكن أن يعرف التاريخ. ولئن تبدلت أسباب العيش ما تبدلت ، ولئن قربت سكك الحديد والبواخر والطيارات وكل ما يمكن أن يتمخض عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين اجزاء العالم ما قربت ، بل لئن تهدمت الحدود الدولية وفنيت العاطفة الوطنية ، فسيبقى أبداً هذا الاتصال النفسى الوثيق الذى يجعل من مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة ، فيما يصل اليه عقلنا من تصور الازل والخلد ، بما ورث أجداد هذا الوادى الاحفاد ما سكبته طبيعة الوادى فى وجودهم من حياة نفسية إن تأثرت بتظاهر العيش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل أبداً طبيعة لهم التى لم تتغير منذ خلق الانسان الى يومنا هذا ، ولا شيء يدل على انها ستغير ما دام الانسان انسانا .

٢٠ واذا كان الانسان أقوى سلطاناً على الحياة وحكامها كما تمثل

ماضيه في شخصه وكلما تمثلت الامة ترات آباءها وأجدادها جميعا بالغا
 ما بعدوا في غيب الماضي أي مبلغ ، فن حق المصريين ومن الواجب
 عليهم أن يستثيروا دفن أجدادهم جميعا وأن يربطوا بين حاضرم
 وماضيهم رباطا ظاهراً لئلا يسهل عين . وانهم إذن ليضيفون الى قوتهم
 قوة وليضاعفون مجدهم أضعافا وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعا
 ولها ذوقا . ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك مالا يدع
 مجالاً للشك فيه . فكلنا صفق طربالا اكتشاف آثار توت عنخ آمون ،
 وكلنا ملأ ماضيه فخراً بمدينة هذه الاسرة الثامنة عشرة الفرعونية
 على ما بيننا وبينها من آلاف السنين ، وكلنا حدثته نفسه : إذا كان
 أجدادنا قد تنموا هذه الذروة السامية من ذرى المدينة قلم
 لا تنسبها نحن كما تنسبونها . ولم يك منشأ هذا الطرب والفخر والامل
 ما لهذه الآثار النفيسة من قيمة لذاتها ومن قيمة على التاريخ وكفى ،
 بل كان منشؤه في غور النفس وأبعد أعماقها . كان منشؤه اعتزاز
 النفس بذاتها واعتقادها القدرة على ملك الحياة بديأس من هذه
 المقدره . أرايت الى الفقير البائس الذي لا يمتز من آباءه بجاه ولا
 بمال كيف يجاهد الحياة وتجاهده ولا أمل له الا في الحظ الحسن
 وهو من غدر القدر ابدأ على حذر . ثم أرايت الى الممتز بجاه بيته
 وماله كيف ينظر الى غدر القدر باسمه وهو ابدأ يؤمن بأن له آخر
 الامر الذلب . هذه العواطف هي التي تحرك الامم بقوة مضاعفة
 ملايين المرات اكثر مما تحرك الافراد . ولذلك يعتمد المستعمرون الذين
 يريدون أن تذلل لهم أمة الى أن يلقوا في روعها انها كانت على
 التاريخ عبدة ذليلة فحتم عليها أن تظل عبدة ذليلة

١٢ فاذا جاز لنا أن نامل ما يامل المعتز بجاه بيته وماله وكان لنا من آثار الاقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة ما يطوع لنا أن نجد مصر القديمة، كما جدد الغريون اليونان والرومان، وكان لنا من وراء ذلك مطمع في أن نقر في مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التي أقرها الغريون في أوروبا. فمن الجريمة على أنفسنا وعلى الوطن أن ننى في ذلك أو أن نقصر فيه أى تقصير.

١٤ والسبيل الى ذلك كله هو البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة. ولقد فتح الغريون أمامنا الباب واسعاً في هذا المضمار. فبند كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد لم تن البعثات الغربية من أوروبا وأمريكا عن البحث والتنقيب في الآثار المصرية وبعث ما تنطق به أحجارها الصامتة وما تنطوى عليه أوراق البردى القديمة، وهذا فضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه، لكنه يحملنا نحن وزراً كبيراً، وزر الالهمال في تمثل هذا التراث المجيد الذى يضم حضارات باهرة زاهرة يمكن أن تكون لنا اليوم نبراساً لاقامة حضارة لا تقل عن هاتيك بهراً ولا تقل عنها ازدهاراً.

(١٥) وإنى ليخيل إلى أن المصريين الذين يتقدمون الى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة أدنى الى التوفيق فيه من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون اليه. ذلك بان غير المصريين انما يترجون مالا يتصل بحياتهم ومالا تسرى روحه في قلوبهم وأفئدتهم، فلمهم إن أخطأوا عذر المترجم الذى ينقل من لغة الى لغة. أما المصريون الذين يوفقون

الى مثل ماوفق اليه أولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على أسرار المصريين انقدماء فانهم حين يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والاخيلة والمعاني فيؤدون بها الاداء الأوفى .

ولقد وفقت في مطالعاتي الى مراجعة بعض كتب مما خطه بعض الاقدمين من اليونان عن المصريين المعاصرين لهم وعن عقائدهم فألفت فيها روحا وحياة أكثر مما ألفتها في كتب أخرى وضعت حديثا . ولا عجب فاليونان ومصر متجاورتان وروح العصر كانت تربط الفريقين جميعاً بأوثق رباط .

ولست أقصد من ذلك الى قصر التجديد في قوميتنا الادبية على آثار الحضارة الفرعونية ، فذلك محال لأنه مخالف لخلد حياة الامم . وانك لتري هذه الصور الوسطى في أوروبا، والتي يسمونها العصور المظلمة ، ذات أثر في تاريخ الادب الغربي غير منكور . والذين يزعمون أن مصر خضعت من بعد الفراعنة لحكم الاجانب فتاريخها لذلك ليس تاريخها يزنون تاريخها . انما خضعت مصر لناموس ما تزال أكثر الامم الملكية خاضعة له بجلوس اسرة أجنبية عنها على العرش الذي يعتبر تاجها وعنوان مجدها . ثم أن مصر أيام اليونان والرومان والعرب والى عصر قريب جداً كانت ذات أثر كبير في سياسة العالم وفي توجيه دفعة حضارته . وكل هذا الماضي المجيد تراث يحق لنا أن نفخر به وان نعبد الى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره لنزداد به على الحياة قوة وعزة وليزيدنا بالحياة متاعا وفيها سعادة . وإنما أريد أن لا يقل النشاط في الكشف عن حضارة

الفراغة وتمثلها وإحيائها عن نشاطنا في الكشف عن كل عصر آخر من عصور تاريخ مصر، وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا ليمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد فيجمع ذهنه وعقله وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر في ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة تنقلت في تاريخ مصر على كاهل القرون من الفراغة إلى البطالة إلى مقاومة مصر استعمار روما إلى الحضارة الإسلامية التي ازدهرت عن شاطئ النيل وأضاءت العالم بنورها قرونا متوالية إلى عصور التدهور أيام الحكم الثماني ومقاومة ما كان من ظلم تلك العصور إلى هذه النهضة الحديثة التي تنهض مصر كما تنهض الأمم الشرقية جميعاً. وليس ريب في جلال هذا التاريخ كله جلالة يوحى للطلاب ويلهمه أقوى إلهام في ميادين الأدب القومي بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثاراً شامخة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ الفراغة إلى عهدنا الحاضر.

١٨ / ولست أغلو في تقدير قوة هذا الإلهام القومي الذي ينبعث من تاريخ مصر لسكل من غنى بدراسة هذا التاريخ وأطواره ومواضع الاتصال بين مختلف عصوره. ولقد أشرنا في الفصل السابق إلى قوة إلهام الطبيعة المصرية وجلال وحي النهر الإله وأحسب ما تقدم في هذا الفصل يزيد في قوة هذا الإلهام بما يصور من تاريخ من أقاموا إلى جانبي النهر يتعاقبون على ألوف السنين. ويضعف في قوة هذا الإلهام كذلك خلد هذه الآثار الباقية منذ الفراغة إلى عهدنا وإلى من بعدنا حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هذه الآثار التي ترك الأقدمون

منذ بناء الأهرام الاولى الى أن أقام الرومان مقابرهم بعد ان مهد لهم
 الفن اليونانى حين دخل الى مصر مع البطالسة ، وما اقامت المسيحية
 بعد ذلك من كنائس وبيع ، ثم ما كان بعد ذلك من آثار الفن
 الاسلامى الدقيقة البديعة التى ما تزال تشهد بها المساجد والتكايا
 وسبل الماء وما إليها . هذه الآثار وحدها قد ألهمت كثيرين من
 الأجانب عن مصر ممن زاروها فهى جديرة أن تلهمنا ابناء مصر
 اضعاف ما ألهمت اولئك . وهى ليست إلا مظهراً لحياة آبائنا
 واجدادنا من فجر التاريخ فنحن وحدنا الذين نستطيع ان نكشف
 عن صلتها بهذه الحياة وان نجتلى من خلال هذا الكشف حياة الروح
 المصرى الذى بعث الى نواحي العالم فى غير فترة من حياته حضارات سعد
 بها العالم قرونا وقرونا . وأينا لا يقف كمصرى صادق الاخلاص
 لوطنه وتاريخه أمام أى من الاهرامات أو من آثار طيبة أو من
 الآثار الأخرى الكثيرة التى تعمر الشاطئين ، أو أمام أثر من
 الآثار الرومانية أو المسيحية ، أو فى مسجد من المساجد الاسلامية
 المملوءة هيبة وقداسة ورهبة - أينا لا يقف كمصرى صادق الاخلاص
 لوطنه وتاريخه عند أى من هذه الآثار أو عند أكثر من واحد
 منها يستلهمه صورة أهلنا الذى شادوه وصورة عباداتهم وعاداتهم
 وميشتهم ثم لا يخرج بعد وقفته هذه وفد تجسد الوطن بمناه
 الكامل فى نفسه فدفع الى فؤاده وروحه من صور الالهام أرقاها
 وأسماءها . وأينا يقف هذه الوقفة ثم لا يحس بنفسه جزءاً من هذا
 الوطن باقياً بقاءه خالداً خلده ولا يدفعه ذلك الى أن يتغنى بأناشيد
 بقاء الوطن وخلده فى رعاية الله وعنايته . وهل أدب قومى يصدر

عن هذا الالهام كله يمكن أن يعدله أدب قومي لأمة من الأمم مما عرف العالم أو عرف التاريخ . وقصص هذه الآثار وقصص آبائنا الذين شادوها وقصص حياتهم المادية والنفسية والروحية كل ذلك حاضر تحت أيدينا لمن أراد أن يكلف نفسه مشقة التنقيب فيه . فإذا تمثلنا هذا التاريخ واستنطقنا هذه الآثار وقدمنا كما يجب أن تقدس هذه الطبيعة المصرية الخصبة المحسنة وهذا النهر الذي أنشأ الله به مصر وأنشأنا بفضلها عليها فألهمنا ذلك الأدب الذي نرجو فلن يقف هذا الأدب عند تحقيق رسالة الأدب من تجلية الخير والحق والجمال . بل إنى لا أعتقد أنه يصل إلى أكثر من هذا وأن قبساً من نور هذه الأديان التي شهدت مصر وتوجت بالاسلام سيضيء ظلمات هذا العصر المادي التي غمرتنا حضارة الغرب بآثاره، وسيقدم للعالم بذلك غذاء روحياً يلتمسه العالم اليوم في مختلف انحاءه في الشرق والغرب فيفضل سعيه ولا يجد إليه سبيلاً .

ولا يحسن أحد أن هذا النشاط المادي العظيم في الاختراع مما هو بالأيوم في كل انحاء العالم يحبنى على فكرتنا هذه شيئاً . فان هذا النشاط سيصل يوماً إلى فترة يستقر فيها . ويومئذ يشعر العالم بظلمة أى ظلمة إلى الحياة النفسية الفتية الممتعة . ولعله واجدها في هذا البعث الذي نطلب إلى مصر أن تقوم اليوم به .

محاولات في الأدب القومي

منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا وفي مقدمتهم كبارهم عما إذا كان هذا العصر الذي نتخطاه منذ الثورة العرابية إلى وقتنا الحاضر عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذي نشأ بين القديم والجديد في الأدب ، يرجع إلى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هذا الحوار وأساسه في الحالين نضال ما بين الحضارتين ، حضارة الغرب الحاكمة اليوم والحضارة الإسلامية التي حكمت العالم زمنًا ثم جاء دورها في الاستحجام انتظاراً للبعث . فأنصار الجديد هم الذين لا يرون مفراً من أن تغزو حضارة الغرب أمم الشرق فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثاره متهيأة للوقوف أمامه في شيء من الكرامة والعزة ، وأنصار القديم هم الذين يقدرون ما آل إليه حال الحضارة الإسلامية وهم يخشون عليها كل جديد أن ينسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً في العصور الماضية . وليكفوا هذه الغاية هم يريدون أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكاً لهم يقولون فيما شاؤوا وأمنها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين

تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالاعدام أو بالموت الأدبي . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من عداهم أن يتبعهم . وهم ليبرروا موقفهم هذا يدعون بالسلف الصالح ويدعون أنهم وارثوا تراثه وانهم باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حربه بأنه خارج عليه وعلى دأله . ولا ريب في تعاليم السلف الصالح كثير من الحق . ولو أن خلفاء هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لآزاداد جانب الحق فيه وضوحاً وجلالاً . لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شيء كثير وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهاماً وأن يفرغوها مع ذلك في قالب رسمي لتصبح في حماية الدولة وليسبغ عليها القانون من القداسة ما يعاقب معه مخالفاً .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حراً والعلم حراً والرأي حراً والتعبير عنه حراً وأن تمتد الحرية في هذه الناحية إلى أقصى الحدود . وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم ، لتثبيت هذه الحرية أن ينقلوا عن الغرب وأن يترجوا علمه وأدبه وآراءه . وما دام كتاب الغرب وأدبؤه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملة لوائها فيجب أن ينشر هذا اللواء في الشرق كما هو منشور في الغرب ويجب أن نستعير من أساليب الغرب في الكتابة وفي التفكير ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التي يذيع كتاب الغرب وفلاسفته ، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه فنكون من بعد ذلك أحراراً ننعم من حريتنا في بمجوعة السعادة العقلية والفنية ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المماولة ينسدن

علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله وأن نقيم مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره جديدا .

شئ من التحيص يكشف عن أن جمود انقديم كل هذا الجمود و ثورة الحديث كل هذه الثورة إنما دفعت اليهما حرارة النضال ، وانهما ما كانا يندفعان الى الحدود التي اندفعا اليها لولا هذا النضال . وقد بينا في الفصل السابق ان الخصومة بين اقديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة ، لأن الحديث ينطوى على شئ من القديم بل على أكثره ، وانقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه اذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر في ارجائه . أليس نغار الأمم بماضيها لا يقل عن نغارها بحاضرها؟ ألسنا في مصر نقاخر بالقرعانة وبالعصر الاسلامي أكثر مما نقاخر بالعصر الحديث؟ فبحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل بالقديم الذي أثره ، أو نتصور قديماً لا يتطور مع الحديث وينضم اليه . فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية ناشطة هي التي تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم واليهش في كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عديدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة وأن أسلكها سبيل الأدب القومي وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت على مس شلوك كاسلز مما أشرت اليه في فصل الأدب القومي . وقد بدا لي في وقت ما أن اجعل من بعض عصور مصر الاسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهواني من هذه العصور . لكنني وقفت يومئذ متردداً .

أفأقدم فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة
من صور الأدب القومى فإذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير
أن تزن بالقسط ما إليه قصدت متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية
أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص !!
خير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد .
وهو بعد ميدان طريف يلذ ببحثه ويلذ اتخذاه مادة لأدب قومى شهى
الثمرة خصب غاية الخصوبة . وليكن هذا الميدان ميدان انقراغة
وآلهتهم . ولنطلق الحرية للأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء
الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها موازين بينهم وبين
آلهة الاغريق الذين ألهموا من فوق الأؤلمب حضارة أوربا الحاضرة .
وقد بدأت مباحثى عن أيبس العجل الآله ونشرتها فلم أجد من
أحد تقوراً منها أو ازوراراً عنها مما أثبت لى أن فى النفوس الى هذا
الأدب القومى ظمأ وإنها صادية لورده اذا هى وجدت من يقدمه
اليها . وكنت قد جعلت بحثى عن أيبس فى صورة قصة لآخوان
ذهبوا الى المتحف المصرى فوقفوا أمام تمثال أيبس وجعل أحدهم
يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الاساطير الميثولوجية التى أحاطت
به شيئاً غير قليل . ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته
نجى أيبس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه
قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض فى الشعر فدعوته الاشيب وجعلت
منه رجل صلاح ونقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بآدىء
الرأى بعبادة أيبس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة فاكتمفت
تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الآخوان

في مناجاتهم لأبيس وفي مناقشة النجى أقوال العزماً ثم خرجوا فأنطلقوا
 مارين بشكنات قصر النيل الى فندق سميراميس ليتناولوا الشاي فيه
 إجابة لدعوة أحدهم الذي تسمى من بعد باسم الذي دعانا الى الشاي .
 فلما آتست ظمأ النفوس الى هذا الأدب القومي فسكرت في متابعة
 بحى . وما دام القوم قد دعوا الى الشاي في سميراميس فليكن حديثنا
 بعد أبيس عن هذه المملكة الالهة التي جلست على عرش بابل والتي
 غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم في بهو الفندق وقد جلس
 الى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين من بينهم فاتنة ذات
 دل ساحر عبث بالاشيب أشد العبث وبدله من ورعه وتقواه جنون
 الهوى وفتك اللوعة، وجعله يتساءل في حديث القوم عن سميراميس
 مقدساً للجمال في حيث يكون سعيداً بحكم النساء الرجال سامياً بشأنهن
 الى ما استهوى اليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنوا اليه بنظرات معسولة
 زادته هوى ووجدا . وفي خلال ذلك كانت قصة سميراميس تقص
 بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجاباً ودلاً . ونشرت هذه القصة هي
 الاخرى وكنت لما أطبع كتابي (في أوقات الفراغ) . وقد وجدت
 من الجهد في كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق في بحثهما ما جعلني
 أشك كل الشك فيما اذا كان وقتي يسمح بمداومة البحث والكتابة
 وتدوين (حديث الآلهة) على ما كنت قد اعترمت أن أسمى الكتاب
 الذي يجمع بين دفتيه هذه الأساطير . لذلك نشرت حديث أبيس
 وحديث سميراميس في كتابي (في أوقات الفراغ) . لكن هذا البحث
 استهوانى من بعد وعاد يجذبني اليه بقوة زادها إمعاناً تسكرار زيارتي
 للقصر واسوان ومشاهدتي مختلف آثار الفراعنة في وادى الملوك

وفي صحارى مركز الدر وجباله الممتدة ما بين اسوان وحلفا . وإجابة
لدعوة أجدادنا وآلهتهم عدت أبحث ودونت حديث ايزيس وهاتور
وأفروديت . وفي هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجى أبيس
والشاب والذي دعانا الى الشاى والاشيب وفاتنة سميراميس ، ويتصل
به حديث هوى وصباية كنت أرجو أن يظل متصلا حتى تباركه
آلهة مصر القديمة كلها مجتمة . لكنى عدت فوقعت من بحى عند
هذه الفصول الثلاثة التى تتصل أو ثقا اتصال بفصلى أبيس وسميراميس
وتتابع حوداثهما . ولولا ما سبق لى من نشر هذين الفصلين لكان
موضعهما لا ريب هنا فى هذه المحاولة التى قت بها فى سبيل الادب
القومى . أما وقد سبق نشرها فانى أكتفى بنشر فصول ايزيس
وراعية هاتور وأفروديت هنا راجياً أن تعود بى الآلهة الاقدمون
تحدثنى وأحدثها وتوحى الى بما بقى من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس .
ولست كفيلا بأن تستجيب الآلهة الى دعائى وقد اتجه ذهنى واتجه
روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة
الأقدمين مشقة ولكنه أجل منها مقاما وأروع فيما ينطوى عليه من
حق ونور وجلال وجمال .

٢) وأعتقد أن الذين يعنون أنفسهم بطالفة الفصول الثلاثة التى
تلى هذا الفصل سيقدرون ما كان للراعية الاقدمين من حكمة وفلسفة
قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها اشد حب وأخصبه .
ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى الصورة التى تذه
من صور الادب القومى . ولعله يشعر حين بحثه وحين تدوينه آثار
هذا البحث بما شمرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تباً لما

حدث في أوروبا واتباعا لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب
والفلاسفة ليس معناه اهدار تراثنا كمصريين وكشركيين وكسالمين
والانتقال الى تقليد الغرب في أدبه القومي كتقليدنا إياه في لباسه
وفي طعامه ، كما أن ابتكار طرائق جديدة في الزراعة ليس معناه
أن أترك الأرض المملوكة لي لأذهب أجيراً عند الندي ! ابتكر هذه الطرق
الحديثة ، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها
في الأرض المملوكة لي . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب في
بحث تاريخنا وإقامة أدبنا وفي ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة
وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ولا نصبح
عيالاً على غيرنا ننال من فتاته وننال عشرات الاضعاف من ذلك
من زرايته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبت بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين
من واقع حياتنا الحاضرة نقلت حوادثهما مما شهدت دور انقضاء
وما قصه على بعض زملائي المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة .
وهما صورة من أدبنا القومي عن حياتنا الحاضرة . وهما من
نوع الأقصوصة التي ازدهرت في هذا الزمن الأخير . وقد نشرتا
في مجلة الهلال في سنة ١٩٢٦ . وإنما أذكر أن وقائعهما نقلت الى
مما شهدت دور انقضاء لأن هذه الدور تشهد من المآسي الوجدانية
الشيء الكثير الذي يصلح مادة للقصص ولطبعة طابع مصري صميم
ويجعل الأدب الذي يستلهم مادته أدباً قومياً بكل المعنى القومي . وليست
دور انقضاء هي وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم
الكتاب القصص ويلهم الأديب أياً كان نوع الأدب الذي يريد أن يضع .

بل إن في الحياة المصرية فيضاً من مصادر إلهام الأدب في مختلف
نواحيه أغزر وأخصب مما في غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك
بما لا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا
أن يستمع ويبحث ويحلم ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما
يريد من صور الأدب القومي في الحياة الحديثة .
وها نحن الآن نعرض على القارئ محاولاتنا في الخمسة انفصول
التالية راجين أن يجد شبابنا فيها مثلاً لطيفة من طلائع الأدب
القومي المصري .

إيزيس

« ولد أوزوريس من الآله جب (الأرض) ومن الآلهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الآلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولما كبر تزوج من أخته إيزيس وجلس على عرش المصريين وصار ملكا على الآلهة والناس جميعاً . وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم إلى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

« وكان « ست » إله الشر أخا لأوزوريس . ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقاً فاخر الصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأي منهم طابق الصندوق حجمه ، فدخل إليه الأضياف واحداً بعد الآخر حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه — وكان قد صنع على حجمه — أسرع شركاء إله الشر وأقبلوا الصندوق وألقوا به في النيل ، فدفعه التيار إلى البحر وقذفت به الأمواج إلى شاطئ الشام وبقي عنده تحوطه شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين إلى أن جاءت به إيزيس إلى مصر بعد حزن وبحث . لكن ست عثر بأخيه ثانية في إحدى جولاته جوف الليل فمزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقى بكل منها في مكان . فعادت

إيزيس الى بحرها واستعادت أجزاء الجسم واستعانت بأختها وبابنها
الاله هورس وبطقوس الدين فردوا اليه حياة شابة خالدة لايحيها
على الأرض بل في السماء . وكذلك بعث «الاله الملك» ووعد بالبعث
كل من يفعل الخير حين حياته .

(أييس — ص ٢٨٣ و ٢٨٤ من كتاب في أوقات الفراغ)
« لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرأيتكم مبلغ وفائها لأخيها
وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون فاستقلت البحر
باحثة عن جثته فلما عثرت بها وعاد تيفون الى تقريق أجزاءها عادت
تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد
الى إله الخير حياة الخلد ، وعملها هذا آية في الوفاء من امرأة ، وهو
خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

... . وقتنا الى نزهتنا فأقلنا زورق وسمننا حمياً . ودار حديثنا
حول عبادة إيزيس في مصر وروما واليونان . »

(سميراميس — ص ٣٠٦ من كتاب في أوقات الفراغ)
تخطينا أبواب سميراميس فاذا أضواءها طرحت على الرصيف أمامها
وعلى الطريق بعده ضياء مبهم اختلط بصوء انقمر السابح في السماء
ولما تكتمل دارته ، فهو ثلاثة أرباع تعرج طرفه المشطور فجعل له
ذقاً وأتقاً وجبيناً وضاء . وكست الاشجار الرصيف المقابل للفندق
ظلاماً . فلما بلغنا الشاطئ ألقينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه
الندى فجعل منها مرآة له وحده . ونزلنا على الدرج إلى مرسى
الزوارق وقد اصطفت بعضها الى جانب بعض ومنها الصنير يسير
بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ما لفت قلوعه في انتظار من يستقله ،

ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيات منه معبداً للزهرة وآلهة
الهوى جميعاً. ووقفنا وتقدم الذى دعانا الى الشاى يتخير لنا زورقا
لاستور على جوانبه، خديث الرجال فى غير حاجة إلى ستر وان تناول
الجمال وآلهته والهوى ورباته. وتنادى أصحاب الزوارق، كل يكشف
من فضائل زورقه عما يحسبه مرغبا إيانا فيه، وجعل كل منا يدير
نظره فى هذه السوايح ليتخير الطفها وأنضرها. فأما الاشيب
فوقف فى شبه ذهول برهة لا ينظر الى الزوارق ولا إلينا. وتخيرنا
زورقنا وجاء صاحبه يعاوننا على التخطى إليه. فلما كانت دور
الاشيب وأمسك رب الفلك بيده سمعت الاشيب يهمس فى أذنه:
— أيا ن ذهبت السيدات الافرنج والسادة الذين سبقونا الى

هنا منذ هزيمة؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالاشيب ونظرت الى
« الرئيس » فاذا به يحيب فى جد من يدرك قداسة الهوى مشيراً الى
ناحية جسر عباس:

— هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك. وأحسبهم
يقصدونها.

أخذنا أما كننا وحل الرئيس قلع زورقه بعد مادفعه فوق لجة
الماء والنور بمجدافه. وسرى الى نفوسنا نسيم عذب بليل زاده
انقمر رقة وعدوبة. وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم فى قلعه وقد
وجهه الرئيس الى ناحية جسر عباس كأنما هداه سؤال الاشيب
طريقه. وسرحت بصرى نحو الجزيرة فاستوقفته احدى الذهبيات
وكانها بجماها قدس هوى أنبته الماء وانبت فيه أنوار الكهرباء

المظلة من نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدرت نظري الى سميراميس
فأذا هي بأضواءها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر جميعاً . وأشرت
أصحابي فيما جال بخاطري فكان الاشيب أسرعهم الى اجابتي :

— هي منارة هدى للقلوب والابصار

وابتسمنا . . أما هو فلم يبتسم لانه كان في شغل بالذهبية التي
ذهبت اليها الفتاة وأصحابها .

ثم قال الذي دعانا الى الشاي يداعبه :

— لعلك لاتشير الى فندق سميراميس بل الى سميراميس الالهة

التي جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى . ولعل الحظ الذي
هدانا الى الفندق والالهة فيه ، يهدبنا الى الالهة حيث تكون
وابتسم الاشيب لهذه الدعابة وابتهل الى الله أن يجيب الدعاء . ثم
توجه الى نجى أبيس بقوله :

— وأنت يا صاح خذ بنا في حديث ايزيس . فلعل الآلهة التي
عثرت على أخيها وزوجها أوزوريس تهدي هذا الزورق فيعثر على
صاحبها الالهة السيدة سميراميس

قال نجى ابيس

— لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التي امتد سلطان
ربوبيتها من مصر الى أثينا وروما ، ولتؤمن بأن لاسمها سرّاً
تغنوه القوى حتى اليوم . واذا كانت قد تغلبت إبان حياتها زوجة
لأوزوريس على كل العقبات بالجمال والعلم والطيبة فانها ظلت بعد
ما ارتفعت الى أثير الخلد تؤتي عبادها المخلصين من روح قوتها
ما تغلبون به على كل عقبة . لكنها تطلب اليهم أن يكونوا مثلها

ذوى صبر وإيمان. فلا تحسب يا صديقي أنها عادت بأوزوريس
 في صندوق الحياة الذى حبسه فيه أخوه إله الشر من غير عناء .
 بل لقد ركبت فى سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه همم الرجال .
 ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر ويغلب الرجاء
 اليأس لأسامت للتقدرو غنت لنكد الحظ . وقد كادت تضعف أول ما عرفت
 الخبر وكاد يقعد بها الهم والحزن دون النضال . وكفاها يومئذ أن
 قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد . لكنها عافت أن
 تستسلم لتيفون وأن تدع الخير دفينا فى محبسه غير مخلد فى السماوات .
 وسارت فألفت على شاطئ النيل عند مدينة فقط أطفالا سألتهم عن
 الصندوق وهل رأوه ؟ والأطفال ، كما تعلمون ، أحباب الله . وهم
 لذلك ملهمون من أمر الغيب مالا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم
 سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر وإلى جيبيل فى الشام . وكان
 أهل جيبيل قد بهروا بنمو الشجرة التى أحاطت به وحفظته فى جذعها .
 فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عمادا
 لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة ايزيس بذلك كله خبرا ،
 فجلست عند مورد ماء مكتئبة لا تكلم إنسيا . فلما مر بها خادمت
 الملكة عشتروت حيثهن وتحدثت اليهن ومشطت شعورهن وعطرت
 أجسامهن بالعطر الذى يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن
 إلى سيدتهن فتناقت إلى معرفة الغريبة التى ضوعتهن بالشذا العذب .
 وبعثت فى طلبها فبهرها جمالها وحكمتها واتخذت منها صديقة لها
 وعهدت اليها فى تربية ولدها وشفائه . وكذلك أتيج للالهة الخزينة
 أن تقيم على قبر زوجها الدفين فى عماد البهو تشدو حوله كلما سجدى

الليل بأغنيات الموت والأسي ، فاذا فرغت من شدوها عادت الى
الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض وانقضاء . . وفطن بعض
من في انقصر لها وأبلغوا الملكة خبرها . فراقبتها ليلة حتى اذا رأت
النيران تخرج من فيها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة . فسلبت
الالاهة من الطفل ما كان أصاب من أسباب الخلد وإن أبقته له صحته .
وخافتها الملكة وحسبتها ساحرة فعرضت عليها أن تأخذ ماتشاء
وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد وشقيقته وأخرجت منه
الصندوق . وما كادت تراه حتى علا نحيبها ، ثم حملته في قارب
وبعدت عن جبيل وفتحته وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه
وبكت أمر بكاء . ولما بلغت مصر نحت الصندوق في مكان وذبحت
تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفتيس ليعيدا للملك الآله حياته .
« فلعلمك ترى يا صديقي ان إيزيس تجشمت في سبيل العثور
على جثة زوجها أوزوريس من المشقة مالا تتجشم النسوة في سبيل
البحث عن أشلاء أزواجهن ، بل عن أزواجهن الأحياء . وانما هو
الوفاء الذي جعلها تستمرى المشقة ، وحرصها على غلبة الخير للشر
هو الذي هون على ربوبيتها أن تخضع (لملكندر) وامراته .
« ولما عثر (ست تيفون) أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه
مزق الجثة أربعة عشر شلواً التي كلا منها في مكان . وليس عسيراً
تصور ما تجشمته إيزيس للعثور من جديد بالأشلاء جميعاً .
 واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشر قد
ألقى به في النهر طعاماً للأسماك مما اضطر إيزيس الى أن تصنع مكانه
صورة له من الشمع ليتم لها الرجاء في إعادة الحياة الكاملة لاله الخير

الذى عبث به الشر وأعوانه شر عبث . وكأَنما كان الخير في عصور
الآلهة مثله في عصور الناس هياباً للشر متحاشياً إياه قاصراً عن دفع
هجماته عاجزاً عن مهاجمته . فان إيزيس خشيت بعد الذى لاقت من
نصب في بحثها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به فأقامت
أربعة عشر قبراً في أربع عشرة قرية من انقرى التى عثرت بالأشلاء
فيها وزعمت كل واحد منها قبر أوزوريس لتضلل بذلك أخاه في
مطاردته إياه . وما تزال هذه انقرى تدعى الى يومنا بهذا الاسم .
فأبو صير ليست إلا بوزيرى أو قبر أوزوريس . وإقامة هذه القبور
جهد مضمّن أشدّ اضناء . وهو بعض الوفاء الذى تميزت آلهة مصر
القديمة على غيرها من الإلهات الجمال اللأى ازدرين الوقار وسخرن
من العفة .

قال صديقنا الشاب :

— ظريفة أساطير القدماء . وأقر لكم الآن بخطأى حين سخرت
من عبادة أيبس . فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر
وللنور والظلام آلهة ، فمن حق ثمرات الارض أن تكون لها آلهة .
وللثور كما للنيل وللشمس حظ في انبات هذه الثمرات . فمن حق الثور
أن يكون آلهة كالشمس والنيل . ومن حقه أن يكون أوزوريس
أو غير أوزوريس من اكابر الآلهة رمزاً له
وقال الذى دعانا الى الشاى باسم :

— ما أسعد جماعتنا بعودك الى ذوق أساطير أسلافنا ، وما
أشدنا سعادة باجلالك عبادة أيبس . فهو وحده الذى اختص مع
النيل والشمس بعبادة مصر القديمة منذ أقدم عصور تاريخها . أما

سائر الآلهة فكان لهم شأن غير شأنه وحديث غير حديثه . كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه . وأحسب أن توزيع الاختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان وروما ونسبة الخير الى أحدهم والعلم الى غيره والشر الى ثالث وهلم جرا ، لم يكن الا بعد تطورات سياسية واجتماعية مربها عباد هذه الآلهة . وأحسب أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلها طائفياله كل صفات الربوبية عند أهل طائفته ، كما كانت أو ثان العرب قبل الاسلام آلهة كل منها لقبيلة ، ولكل في نفوس عبادهم كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت طوائف بأخرى فكان آله الطائفة المغلوبة على أمرها شقيا مثال النقص والفساد ، وكان آله الطائفتين الممتزجتين صنوان في الفضل بلغ من تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . واذكر على سبيل المثال أن آمون اله طيبة لم يكن اول امره ذا مكانة عند غير عبادهم ، وكان رع هو الاله المقدم في انحاء مصر الاخرى . فلما آل الى طيبة عرش مصر وكان لازما أن يصير لآمون مجد طيبة لم يكن الا ان امتزج برع فصار الاله آمون رع . ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود الالهية بين آلهة عشائرها المختلفة وخص كل منهم بعمل من الاعمال ووصف به . وأعمال هذه الآلهة هي ما قضت حاجات عبادها النفسية ان تكون ، وهي لذلك مظهر من مظاهر شهوات الانسان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير . وأن هورس

كان آله الشمس في هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتح آله منفيس
أكبر السلطان حتى جعلت طيبة آلهها آمون قريناً لرع وآلهها
للشمس كهورس وفتح . وكان لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من
حيوانات الأرض .

قال الشاب :

— وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلاً لآلهتهم ؟ أو لم يكن خيراً
أن يرسل كل إله للناس رسولا منهم من أن يرسل حيواناً أعجباً ؟
وأجاب الذي دعانا إلى الشاي :

— ما أحسب المصريين القدماء كانوا قوماً في بداءة الحضارة
حتى أصدق الرواية التي تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس
كانوا أول الخليقة أكثر من الآلهة عدداً وخبثاً حتى خشيتهم الآلهة
فتقمصوا أجسام الحيوان لينالوا عطف الناس عليهم وليطفئوا من
نار شرهم . بل أنى لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر
هزمت غير مرة في وقائع متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها
بالفرق الأخرى فاتخذت لكل فرقة علماً جعلت عليه رسم حيوان
كي يهتدى الجند به . فلما تم لهم هذا النظام سار النصر في ركابهم
مما أعز أعلامهم عليهم . وكما يقدر أهل هذا الزمان رمز وطنهم
وكما يفتدون بالروح علمه كذلك قدس قدماء المصريين أعلامهم وما
عليها من صور وقدسوا تبعاً الحيوانات التي تمثلها هذه الصور .
وبمر الزمان أصبح هذا التقديس عبادة لهذه الحيوانات وتأليها إياها
على نحو ما يفعل عامة الناس في كل بلد وكل دين بأزاء أوليائه المقربين
» ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلي سبباً ثالثاً في تأليه

قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا في ذروة حضارة كاملة . ذلك أن هؤلاء المصريين انما كانوا يقدسون في الحيوانات فائدتها للحياة الانسانية . والانسان لا يقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها . فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيرانا وأبقاراً للحرث والنسل ، ومن صوف الغنم يلبس الناس ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن . والكلب حارس أمين ورفيق في الصيد بارع . ومن الطيور ماعبده المصريون لقتله الثعابين والحشرات الضارة بالناس وبالزرع . أما صاحب الجلالة القدسية أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة اخصاب الأبقار لتنسل والأرض لتثمر . وفي نسل الأبقار وفي ثمر الأرض متاع للانسان وفائدة أي فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلاً للآلهة بل كانت هي الآلهة نفسها .

أتم الذي دعانا الى الشاى قوله وأراد نجى أبيس أن يتم حديث إيزيس . لكن الشاب استمهل به بتسامه وبإشارة لطيفة من يده وقال . — ليس أشهى يا صديقي من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب . ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تلميقاً . فقد رأيت حنقى أول الأمر على عبادة أبيس ومقاطعتي لقصصك عنه استخفافاً بأمره . أما وقد ملسكت شجون هذا الحديث الشجن على نفسى وفتحت أمام بصيرتى آفاقاً جديدة للفكر فاستأذنك وأستأذن إخواننا فى أن أقطع نهم قصة إيزيس لألقى بفكرة استشارها الآن عندي مارواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقلى . وإنى بعد ذلك لأذان كلى تلتهم رواية إيزيس التهاما .

« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب
الأعداء ولأنهم كانوا يقدسون في آلهتهم ما تقيض على الحياة
الانسانية من خير ، أليس هذا المعنى هو خلاصة الايمان الانساني
في مختلف مظاهره ؟ ! أليس هو إجلال اقوى الظاهرة والخفية التي
يمكن للانسان في الحياة ، تدبر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟ ! وهل
هذا المعنى إلا السليقة الفطيرة لسكل حيوان ، سليقة الاحتفاظ
بالحياة في خير ظروفها . فهل لهذا نتيجة إلا أن الايمان يحل من
الانسان محل السليقة من الحيوان ، وإما انفارق بينهما أن الايمان
يتطور لأن إدراك الانسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة على
حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل فيؤدى عجزها الى فناء
الحيوان الذي لم يؤت من فضل الطبيعة مرونة في السليقة
» هذه فكرة طرأت الآن على أرجو أن تعينوني على تمحيصها .
ويحيل الى أن جانب الحق فيها أرجح . فن الحيوان ما مرنت
سليقته فامكن تألف الانسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتا في
الحيوان الاليف وحيوان مثله لم يتألف فان اختلاف سلوك كل منهما
في الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف يقظة
المشاعر المختلفة عند كل منهما يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من
الحيوان أو يبيوستها . فأنت قد تتألف اسداً أو نمراً وقد ترى
سلائقة الوحشية تحتى . لكن هذه السلائق أغلب عنده مما ادخلته
عليها من تحوير . فما يكاد يحرك يحرك السليقة حتى ينسى الاسد أو
النمر ما طبيعته أنت عليه ويود الحيوان المفترس بكل شرسته ووحشيته .
فاما ان تألفت كلباً أو جواداً كان لتألفك إياه أثر في سليقته فلا

تتحرك فيه الغرائز الاولى ، الا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضا على هذا أن الاجيال التي مرت على هذه الحيوانات الأليفة هي التي جعلتها كذلك . فلو ان الانسان وجد في الحيوانات الأخرى التي ما يزال يعتبرها عدوة مثل ما وجد في الحيوانات الأليفة من مرونة في السليقة لتألفها هي الأخرى ولجعل منها عونا له في الحياة . والانسان أمرن الحيوان سليقة ، وقد تشكلت سليقته هذه على الاجيال وكانت اقوالب الاولى التي سبكت فيها لم تذهب وتبقى هي قوالب العقيدة . لذلك أرى جانب الحق أرجح في قولي : ان العقيدة تحل من الانسان محل السليقة من الحيوان .

بهتنا جميعا لهذه الفكرة الجريئة المفاجأة واشتملنا الصمت زمنا . ثم قل الذي دعانا إلى الشأى :

— لعلك يا صديقي تستطيع بعد سماعك بقية حديث ايزيس أن تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه اقدر على معونتك في هذا التحصيل . وأومأ الى نجى ايبس :

— عد اذن بنا يا صاح الى حديث إلهة الجمال والوفاء . قال نجى ايبس :

— نعم هي آلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها الظلام يوما فحسبت تيقون زوجها واسلمت اليه نفسها وأعقبت منه . ولولا علم اوزوريس بانها خدعت لما غفر لها خطأها

كان الاشيب الى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر في جميلة سميراميس ويمد ببصره الى الذهبيات كلها يريد ان يعرف ايها قصدت . فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

— ولن يضير وفاء أية حسناء ان يخذلها ظلام معبد الحب
فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث في الحياة
من ضياء حسن ما ينير جوانبها المظلمة . وهل الوفاء الا مظهر تجارى
لعقد مالى اساسه الفائدة هو عقد الزواج . وهل هو الاجابة على
الجمال وآلهة الجمال :

ابتهج نجى أليس بهذا الدفع الذى أوحى به جميلة سميراميس
الى الاشيب فأضلته ، وعاد الى حديث إيزيس فقال :

— استعادت إيزيس بمعونة ابنها هورس وصديقها الالهين
توت و نوبيس أشلاء زوجها أوزوريس وجعلت ههما أن تعيد اليه
الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالا
من الشمع ووضعت الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت
الاجزاء كلها أقامت إيزيس وأختها نفتيس حول الجثة وقد لبستا
ثياب الحداد وحللتا شعورهما ودقتا صدورهما ورؤوسهما بأيديهما
كما لاتزال النائمات اليوم تفعل ، وجعلتا تناديهن مستعيتين
بزملائهما الالهة لبعثه . فأما إيزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادية :
« عد إلى بيتك فأعدوك ليسوا هنا . عد إلى بيتك وانظر إلى فأنا
أختك التى تحب . لا تبتعد عنى وعد إلى بيتك حالا فانك كما غبت
عن ناظرى اضطرب قلبى وحارت عيناى تبحثان عنك وجريت فى
كل ناحية لى أراك . عد إلى من تحب . عد إلى أختك . عد إلى
زوجك . أواد يامن وقف قلبه فلا ينبض ، عد إلى بيتك ولا تبتعد
عنى أنا أختك ابنة أمك . ان الالهة والناس يكونونك جميعا ، أما
أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء أفلا تسمع صوتى !»

أنا أختك التي أحببت على الأرض بما لم تحب مثله . وأما نفتيس
وكانت عند رأسه فأعولت نادبة « أيها الأمير الجميل عد الى بيتك
لتسرى عن نسك فليس أحد من اعدائك هاهنا . انهما أختاك
الى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين . قم من سريرك
لترى أختيك ، لقد هزم اعداؤك ، وها أنا حارسة اعضاءك . قم
أنظر الى ابنك هوروس ملك الآلهة والناس . انه يقيم الطقوس من
أجلك ، فتوت ينشدك ويدعوك بترائيله وأبناء هورس يحرسون
جثمانك ، وروحك تؤدي لها طقوسها كل يوم إذ يجيء الآلهة
يحملون الأوعية المقدسة لتعميد صورتك ، عد الى أختك ياأميرنا
يامليكننا ولا تبعد عنا »

وأمسك نجى أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن
إيزيس ، فقال الشاب :

— ما أشبه نواح إيزيس ونفتيس بنواح مصريات اليوم ! أو
ليس حل الشعور ودق الصدور والصراخ الذي يشق عنان السماء
من طقوس حزن نسائنا على اختلاف طبقاتهن ؟! أفترانا رغم تناسخ
العصور والأديان والحكام والأجناس التي قطنت الوادي خاضعين
لحكم ما نبت الوادي من عقائد وعادات وتقاليد ؟
قل الذي دعانا الى الشأى :

— وما طقوس الحزن الى جانب ما لانزال نؤمن به على انه دين
انقبض أو المسلمين وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين !
روى هيرودوتس أن الرجال في غير مصر يقصون شعورهم آية
الحزن بينا يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى ، وذلك

مانصنع اليوم ! وأن المصريين وحدهم يهتمون أن تعيش الحيوانات
على مقربة من الناس وفي دورهم ، وما يزال ذلك شأن مزارعينا !
وانهم دون غيرهم يهتمون أبناءهم ، فمنهم ورث اليهود والمسلمون
الختان. وذكر غير هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض
آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء. وفي ذلك مصداق
ما ذكره كثيرون من أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضاً بل يضاف
بعضها الى بعض وأن كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم
انما هو بقايا متخلقة من أديان قديمة هي في النفس الانسانية أشبه بأثار
الحيوانات البائدة المتحجرة في الصخور، والتي لا يسهل لذلك
زوالها .

» وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تنمة لحديث ايزيس
وبعثنا لاوزوريس ما يعيد الى ذهنك كثيراً غير ما ذكرت من عادات
أهل هذا الجيل وعقائدهم

اتجهت الانظار الى نجى ايسس وكأنيما يريد كل أن يعرف ما لا يزال
في نفسه من آثار الفراعنة العظام . واستطرد هو في حديثه :

— ولما أدت ايزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنفثيس
وبالآلهة فتلوا من الادعية والاوراد لروح اوزوريس ما كنى لعودها
الى جسمه تمهيداً لبعثه. وهنا تختلف رواية البعث. فمن قائل انه كان
بعثاً زراعياً. ومن قائل انه كان حيوانياً. والذين يذكرون البعث
الزاعي يروون أن الجثة حملت بعد الاوراد والادعية الى شجرة جيز
ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام الى حياة
خالدة تحياها في السماء . والذين يذكرون البعث الحيواني يروون

أن الجثة وضعت بعد الاوراد والادعية في صورة بقرة صنعت من الحشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك ثم تم بعثها الى الخلد :
 « ثم عاد اوزوريس من العالم الآخر يوما وسأل ابنه هورس عن أجل الاعمال في نظره ، فكان جواب الاله الشاب : أن يثار لاييه وأمه ممن أساء اليهما . وأعلن الحرب على آله الشر وكانت بينهما موقعة دامت أياما وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً في يد ايزيس . لكنهما بدلا من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إيساره ، وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك ،

هنا تداخل الاشيب معترضاً :

— يلهورس من ساذج! أحسب أن أمه نسيت يوم خدعها الظلام وألقت بها في أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهي آلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر ، منكرة ما للشر في أحيان كثيرة من فضائل وحسنات ؟!

وعجبنا لضلال الاشيب بعد سحر الفاتنة إياه واتجهنا لسماع قصة إلهة الوفاء .

— انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه فغضب لذلك الآلهة هرمس وأبدل ايزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الالهة هاتور رمز ايزيس نفسها . ويذهب انقصاص الى أن هورس ازداد لذلك غضبا فقط رأس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليوناني فلوطرخوس . وهو يذهب الى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه في موقعتين نصراً حاسماً

وصارت ايزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير ، ولعلمهما
ارتقيا بعد ذلك الى السماء راضيين

هذا حديث ايزيس في مصر ، أما حديثها في اليونان وروما ..
هنا أشار الاشيب من جديد معترضا .

— امسك بربك وحق ايبس هنيهة . ألا ترون الى ذلك الزورق
المرخاة سدوله من حوله ؟ أقصد بنا اليه ياريس . انى لا أستحس
فيه همسا من نجوى الهوى لا أشك معه في أنه معبد سيدتنا
سميراميس . وهذا هو يتجه صوب دهبية صديقنا الخليل ، فلئن
صدق ظنى فما قولكم في أن نسبق السيدات والسادة اليها حتى
لا يحسب منهم أحد أنا تأثرناهم لغاية

وبدا على حديث الاشيب من الجدل الذي تلهب به الزهرة دماء
عبادها ما ردنا عن مخالطة . وردنا كذلك أنا شعرنا بالغبطة لرؤية
الفاتنة من جديد فأثرنا الى الريس كي يقترب من الزورق المرخاة
سدوله . فأخبرناهو أنه حقا الزورق الذى استقله السيدات والسادة .
واستحته الاشيب كي يسبقهم الى الدهبية . وألينا الخليل واقفا على
ظهرها كأنما ينتظر أحدا . فلما رأنا ساجدين نحوه أشار إلينا مناديا
— تقدموا فشاركوني في ليلة ساهرة هي جديرة بمثلكم ظرفا وأدبا .
ولما رأنا السيدات والسادة حين ارتقوا الدهبية بدورهم دهشوا
وألقت الفاتنة على الاشيب نظرة معسولة ردت اليه صوابه . وكانت
ليلة ساهرة أرخى كثير من فيها لانفسهم العنان وإن أبى نجى ايبس
إلا أن يتم حديث ايزيس في مصر وروما واليونان

راعية هاتو

صعدنا إذن الى دهية صديقنا الخليل ، ثم أدركنا السيدات
والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس اليها. وألقت الفاتنة على الأشيب
نظرة معسولة ردت اليه صوابه . وتلقى الخليل الفاتنة وأصحابها
باسما قرير النفس وتقدمهم الى أماكن وثيرة أعدت على ظهر السابحة.
وأدرت طرفي فيما حولى فألفيت مقصفا بلغ من الكمال أن كان بشيرا
بليلة قصف تشير في النفس أحلى المنى . وأخذنا من السيدات
والسادة مجلسا كجلسنا منهم في افندق ، ثم كنا معهم أقل كلمة
بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم . وسألت الفاتنة
صديقنا الأشيب باسمه ان كان قد نسي من تاريخ آلهة الاشوريين
حديثا أو خبرا . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أبا
عن جد حتى لا يتميز الا فرنج عنهم في قليل ولا كثير ، وحتى صارت
عريتهم الى العجمة أو كادت . وبينما نتحدث أقبل علينا آخرون
صعدوا من زورق ، وآخرون جاؤا من ناحية الشاطئ . ومع هؤلاء
جاءت جماعة يحمل أحدهم قيشارة والآخر رقا والثالث عودا والرابع
كنجبا . وعرفنا في العواد مغنيا رفيقا تعرفه مجامع الاصدقاء ولا
يعرف المحافل العامة . وفي أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة

ودل ، هن الساقيات الراقصات المحييات في لجة القمر وفوق لجة
الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت
الدهبية في عالم يموج بالرجال والنساء تغمرهم جميعا غلالة رقيقة من
ضياء فضي وهواء عذب يحمل معه قرأ منعشاً . وفي مثل هذا العالم
يتسرب الى النفس احساس الرضى والمسرة وتجري في العروق آمال
حلوة مبهمة ويستشعر الانسان بما سيكون من أسباب الطرب
والنعيم . ويزيد في هذه الاحساس والآمال والمشاعر ما يكون بين
الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى
الأشيب ملكه كل شبابه فضحكت عيناه وافتقر ثغره ونضح بالبشر
بحياه ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها الا لترتد
الى قرارة نفسه تزيده ذوقا لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب
فكان لا يستقر في مكان ، بل دائماً الانتقال يحبي من عرف ويقدم
نفسه لمن لم يعرف ويتبرع بأجل الشناء لكل ذات دل وسنا . وأما
نجبى ابيس فجلس الى أصحابنا السيدات والسادة يسمرون . وفيما هم
في سمرهم دلف اليهم الخليل يكرر ما يتوجه به لكل زائريه من شكر
ومديح . قال صاحب السيدات والسادة محدثنا الخليل ومشيرا الى
نجبى ابيس :

— لقد كان صاحبنا واخوانه يتحدثون في سميراميس بحديث
آلهة آشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا من أمر حديثهم
قبل اليوم فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليلتنا يتاح لنا
ذلك في وقت قريب
قال الخليل :

— ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية . أن لدينا في هذه الذهبية من العدة ما يجعل منها أن شئتم معبد الكرنك أو شئتم قصر الفرعون أو ما تشاؤون من صور حياة آبائنا الاقدمين . وبين هاتيك الفتيات اللاتي حضرن من تمت بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل ما فيها إلى عباد آمون بامتن نسب . راليها يرجع الفضل في عدة الذهبية كما يرجع اليها الفضل في غرام تأصل في نفسى بكل حياتنا المصرية القديمة . وسترون انا لن نجد نصبا في إعداد ذهبيتنا الا ما يجد معد المسارح في تهيتها لرواية جديدة قال الخليل هذا و أجل بصره في الحاضرين حتى استقر في ناحية ، ثم نادى :

— الى يا راعية هاتور .

— لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هل لنا في

ليلة فرعونية ؟

وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى إذ أقبلت اليها تشق موج الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل و حور وذات قسامة تعيد الى النفس صورة الفرعونية نقر تيتي ورأسها الساحر . والتقى نداء الخليل وجواب الفتاة وإقبالها صمتا خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور في نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء . واستقبلت الفتاة القمر في طريقها اليها ، فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة الفراغة رقة وسحراً . وتلفت الاشيب الى ناحيتها مع من تلفتوا ودارت حدقتها معها في بطء دل على ذوقه جمالها . وأدرت ناظري لمحة فاذا فاتمة سميراميس تمحج

الاشيب والراعية وكأنما دب من الغيرة الى نفسها أن تلتفت غيرها من نفس هذا المفتون بها حتى لتخشى أن تقتنه عنها . والصمت مخيم والفتاة تقبل والاعين مشدودة اليها والخليل يفكر في الليلة الفرعونية ويكاد ذلك يطول لولا أن بدأت الفتيات والنساء حديثهن وتهاقهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن الانظار من جديد اليهن ولكي لا يحسب أحدهن الرجال أنهن أقل من تلك الراحية سلطانا .
قالت إحداهن :

— ما أعظم سرور الراحية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية ! فهي لاتقن رقصا كالذي تقوم به في دورها هذا . وأكبر الحظ في اتقانها إياه أن ملابسه تخلع عليها شيئا من الجمال .
وأجابت جارة لها :

— يجب أن نحمد للخليل على كل حال . فالضيف أسير الحلى .
واردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة العذاب فأمتعت النظر كما امتع صوتهما السمع ، واستعاد هذا وذاك التفات من حولهما كما استعادت غيرها التفات من حولهن وتداول الخليل والراحية وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم وسار واياهم خلفها الى الدور الاسفل ، ثم اذا بهم يصعدون من جديد واذا ستور تمد واذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعونى مشيد وترى خلال جدر هذا القصر عمدا تذهب الى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من ناحية كما ظال يطل من الناحية الاخرى على النيل ورياضه النضرة . ودعانا الخليل لنهبط وراءه وأشار الينا جميعا أن ندخل الى غرف الدهيية كي يلبس كل منا

الرداء الفرعوني الذي يصادفه. وعدنا الى انقصر المطل على الكرنك
فاذا الحاضر الذي عرفنا يختفي واذا عصر سلف يبعث واذا الاحفاد
تتقمصهم ارواح الاجداد وإن ظلوا في ريعان الفتوة واهاب الشباب.
وجلسنا الى موايد التي عليها هي الاخرى بنسيج العصور الغابرة
ومدت عليها ألوان الشراب في أباريق من فضة . وبقي صدر المكان
خاليا تحظر فيه أوانس زانتهم راعية هاتور وقد اتشحت بثوب
أبيض انقذت أطرافه في صورة الوردية بين ثدييها وظل باديا من
خلاله تخطيط جسمها ، ولبست على رأسها شارة ايزيس قرص
الشمس مقتنعا قرني هاتور ، وأمسكت بيدها مفتاح الحياة
واحتذت بحذاء راقصة شد الى رجلها بسيور من فضة . ودار
الخدم يصبون الشراب في أكواب من بللور صنعت على صورة
زهرة اللوتس ، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها صندوقا صغيرا
على صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطاءه مومياءه ، وجعلت
الفتاة تكشف عنها كلما وقفت الى مائدة فرغ الخدم من صب
الشراب في أكوابها للمحتسين

قال الاشيب وقد لبس لباس الراهب :

— ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها
الى التفكير . فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة القياضة بالحياة
بين جمع مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكرون الناس وهم في ذرى نعمة
الحياة بصير الحياة الخفيف المزعج ! بهذا الفناء فاغراً فاه يبتلع فيه
الى غير عودة كل من ألقى به يم الحياة الى ناحيته ؟ أو ما كان خيراً
لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لا تشوبها صورة مريرة !

وسمع نجي أليس تساؤل الاشيب ، فأسرع الى جوابه خيفة
أن تظل حكمة الاجداد خافية على الاحفاد ، او أن يحسب أحد
أنهم في كمال حضارتهم كانوا يعرفون انفرع أو يهابونه . قال :

— ان أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف الى
تفكير . فأبسط معانيها في مجلس شراب أنا صائرون الى مثلها ،
فلنغنم كل ما في الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون
كهذه المومياء رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمانينة الى خلد السكينة
الابدية . وهذا معنى تناوله الناس جميعاً في شعرهم ونثرهم وتناوله
النداء في أسماهم . بل لقد أحسب أنه كان لابد سيدور بخلدنا
لنولم تنبها الصورة الفرعونية اليه .

« على انى أرتاب في أن يكون هذا المعنى هو مقصد اليه
الفراغة . ذلك بأن عقائدهم تنفر منه وتدلنا على قصدهم بخير من
هذا الخاطر الذي يرد الى اذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لا يرون
الموت آخر مراتب الحياة ولا يحسبون الانسان يحرم من متاع
الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل انه ليجد في العالم الآخر مثل
متاعه معنا أو خيراً منه ما بقى جسمه مصوناً من التحلل مستعداً
لأن تعود اليه الروح الشقيقة . وهذا سر تشييدهم المقابر كما نشيد
نحن القصور ، وهو سر وضعهم أدوات المتاع في قصور القبور .
أما الروح الشقيقة (السكا) أو الضعف على ما يسميه المؤرخون فتعود
الى المومياء حفظها التحنيط فتسمح لها أن تلد بمتاع كتاعها في الدنيا
من غير حاجة لاكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع .
وهي تبقى في خلدنا وتبقى أسباب نعمة الحياة الى جانبها مستمتعة

بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن . فلينهل الناس في الحياة كل
ورد النعيم فلمن يزيدهم ذلك إلا إمعاناً في المتاع بهذا النعيم بعد الحياة .
قال الاشيب :

— حكمة بالغة وحق إيزيس . إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها .
ولم لا ؟ ألسنا أبدأ نعيش على ميراث الماضي ، وغداً هو ابن اليوم ،
ومشيئنا ذكري شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل
نحياها وان على صورة أخرى .

وبينا كان السقاة يصبون الشراب وكان الاشيب ونجى إيس
يتحدثان كانت راعية هاتور في شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد
قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا
طقوس عبادة إيزيس ، وأوحت إلى غيرهم من ضيوف الحفلة أن
يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم في كل عملهم . واختفى الموسيقيون
خلف ستار وبدأوا يوقعون أنماماً أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا
انقصر ومن فيه واختفوا خلال عمد الكرنك يحيون فيه عبادة
رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ، هذه الانعام وكانت تزداد
حيناً بعداً تم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت
كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت في الصمت الذي مد رواقه
على المكان مهابة ورهبة . وظلت في ابتعادها حتى امتلأت نفوس
الحاضرين جميعاً قداسة دينية . هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً
مقترباً بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور في صفين راهبات
ورهبانا ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة
برهبة المكان ، وكانت بامتزاج أصوات الجنسيتين مثيرة في النفس

قداسة المعاني الانسانية جميعاً وفي مقدمتها معاني الخصب والانتاج .
وتقارب الصفان فاذا الاشيب الى جانب فاتنة سميراميس واذا
هو لذلك أشد إيماناً بإيزيس ورع وآلهة آشور وذل من كان له في
معرفة الفاتنة إياه فضل . وتباعد الصفان وختمت التراتيل وتابعت
الموسيقى أنغامها شجية في استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور
بين رهبانها راقصة رقصاً دينياً ، مقدساً هو الآخر ، بدت قداسته على
أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابكت أصابعها في دعاء واستغفار . وخطرت
في لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قواما لدنا يتثنى
في موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها .
وكان كافياً أن تقف الراقية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين
فلا يزداد إلا رشاقة وجمالا . لكن خطرهما بين صفى الراهبات
والرهبان وعلى أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع الى
النفوس أقدم معاني العبادة والاذعان . وهاتيك الفتيات اللواتي
تقسن على الراقية سحرها في الرقص الفرعوني كن أكثر الحاضرين
نهباً إياها بنظرات الاعجاب والاكبار . أليس لسكل امرأة ماتسحر
به الرجال ؟ فلم لا تكبر كل امرأة في غيرها سحرها التناهي الأخرى
من إكبار مآلديها ما يزيد الرجال سحراً واقتناناً !!

وبقينا في عبادتنا هذه زمناً ولت الراقية وجهها أثناءه صوب
المعبد ، فاذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً في نغمة كنسية بنشيد
إيزيس يحتم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل . وعاد الرهبان
والراهبات الى مواعدهم وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم عادة
المومياء ، واكتملت حلقتنا وحلقة إخواننا السيدات والسادة عدا

صديقنا الشاب الذي بلغ من عبادته مبلغ الذهول وأعلن على أثر انتهائها أن لا مقييل له من ذهوله إلا أن تباركه الراعية وتتلو عليه الأدعية والأوراد جميعاً . أما نحن إبيس فقد وجد في الخنسل انفرعوني المحيط به مادفعه للعود الى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، قال :

— هانحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس في ساعة متأخرة من الليل ، بينا عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهرأولا قصصاً ، بل كانوا يذهبون الى معبدها كل يوم لصلاة النجر قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الامام الأعظم رواق الطلبة حليق الرأس والذقن مرتديا ثوبا من التيل الأبيض بسيطا كل البساطة . وكان هذا الامام الأعظم يقضى حياته ناسكاً لاهم له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبادمان التذكير في انقديسات وتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الامام مراتب الأنبياء المقربين الى الآلهة المحدثين عنهم المتحدثين اليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتأثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقمشة أسود نصفها والنصف الأبيض لا مع للدلالة على أن مانعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات . وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثوبا أكثر بساطة من ثوب الامام الأعظم تبقى بادية من خلاله أذرعههم وصدورهم ورؤوسهم الحليقة . أما الراهبات فكان يلبسن معظماً تنعقد أطرافه على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ، ويحملن في إحدى اليدين وعاء فيه الماء الطهور وفي الأخرى (الستر) آلة تقدماء الموسيقى يهزونها ليوقظ صوتها الكائنات من

سبابتها. فاذا جاء عباد إيزيس الى قدسها ووجبت الصلاة صعد الامام
الأعظم الدرج الى تمثالها فآزاح عنه ستوره فظهرت باهرة في وقتها
بما عليها من حلي الجوهر الوضاء تمسك في إحدى يديها مفتاح الحياة
وفي الثانية الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويمسكون
به على الأتقياء ثم يوقدون النار تحرق مافي المكان من شر . فاذا
ظهر كل مافي المبد دعا الامام الأعظم الالاهة فلبت الدعاء فقدم لها
عبادها ماشاءوا من قرابين وضحايا .

« فاذا كان البصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة
ثالثة هي صلاة ختام اليوم يسدل الامام الأعظم على أثرها الستور
على إيزيس لتطمئن في لباس الليل حتى صلاة الفجر .

« أما أعياد إيزيس فكانت تقام في أول الربيع وفي أول
الخريف ، وكانت غاية في البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد
الخريف من أيام أسى على مصرع أوزوريس . ففي الثالث عشر من
نوفبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعوني) كان
الرهبان يلبسون على رؤسهم صور الطير والحيوان مما يبدد المصريون
فيذهبون إلى معبد إيزيس ويمثلون أمام الشعب المأساة الآلهية
انفاجحة يقهر فيها الشر الخير وتقوم على أثرها معركة إيزيس
وهورس ونتميس مع سخت لتنتهي الى بحث الخير من جديد من
غير أن يقهر الشر أو يقصى عن الارض .

كان الخليل قد جاء الى جمعنا يميننا مصطحبا صديقنا الشاب معه
حين كان نجى أبيس في ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس .
فلما سمع عبارة النجى الاخيرة أراد مشاركتنا الحديث فقال :

— ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة انقضاء . أخفق أن
ايزيس وأوزوريس وجماعتهم كانوا الخير والشر والصلاح وما إلى
ذلك من صفات ؟ أم أن تيفون كان البحر وأوزوريس كان النيل
وأيزيس كانت الأرض وخصبها وهورس كان النبات الذي تخلص
عنه ذلك الخصب ؟ وإن أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر
كانت في الماضي يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد في جبالها ومناجها
أصداف وآثار حيوانات بحرية، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه
وبطميه البحر إلى الوراء فأخصب الأرض وأثمرها . أم أن لهذه
الآلهة معان فلكية فتيفون هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو
القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون إلى أن ضوء القمر
مخصب يثمر الحيوان والأرض في حين تحرق الشمس الحرث والنسل ،
ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين إن البحر هو الذي أوقد
للشمس نارها ولظاها بيدنا تبعث مياه الينابيع والأنهر اغنياتها إلى
القمر وضياؤه . أم أن أوزوريس هو النهار وتيفون الليل وايزيس
القمر وهورس الشمس ؟ أم أن هذه كلها صفات الربوبية تجتمع
للآلهة متعددين وهي بعض صفات الأعلى ذي الجلال ؟ !

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب :

— والارباب جميعاً ! إني لعلى حق حين قلت لكم إن الإيمان
يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان
لأن في الحيوان للناس خيراً ومتاعاً . وأرباب هم علم النصر وغلب
الاعداء ، لأن في النصر احتفاظاً بكل ما في الحياة من نعمة وحرية ،
وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الأول على الحياة

وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح في الحياة ،
وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن اجدادنا ثم آمن آبؤنا .
واليوم وقد سخر الانسان لنعمته غير الحيوان وراض من قوى
الطبيعة الكهرباء والجو والاثير ، وراض هذه وغيرها من طريق
العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو في مظاهر ايمانه جميعاً انما
يبحث عن مكانة له بين كل مافي الوجود تحفظ عليه الحياة في انعم
صورها المادية والذهنية والروحية . وليست سليقة الحيوان وفطرته
في الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذي يتناوله ايمان الانسان . ذلك أنه
هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة في خير صورها ، فحق إذن أن
الايان يحل من الانسان محل السليقة من الحيوان

كانت فائدة سميراميس قد ألقت السمع أول ما حدث نجى أيبس
عن ايزيس وعبادتها وأعيادها ، فلما رآته بعيداً عن مثل حديث
سميراميس وجمالها ، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والايان
شاحت عنا بوجهها كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لا تغنى .
واستحس الاشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا الحديث ولا أعارنا
سمعه ، بل اندفع يهمس في أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة
هذا الليل وجماله . فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب
تطلب الساقى ليلاً لها . فأشار اليه الاشيب وسرعان ما حضر تتبعه عادة
المومياء . فلما فاض الرغاء على حافة الكواب اللوتس قال الاشيب :
— إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلنبتدل النخب من هذا
الشراب الشهى ولنذكر ايزيس كجميلة يهر جمالها أفئدة يطير بها
الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الطريف ولا نضيع هذه الفرصة

السعيدة في قصص الأساطير وفلسفة الايمان . وإذن هات يا نجى
الآلهة حديث الجمال وسحره .

وحانت من الشاب أثناء حديث الاشيب التفاتة فاذا راعية هاتور
مقبلة . فأسرع اليها وارتمى عند قدميها قائلاً :

— صدق صاحبنا الاشيب . لاخير في قصص الأساطير ولا في
فلسفة الايمان ، وإنما الخير كل الخير في الجمال وحديثه . وطلعتك
ومشيتك وحديثك وأدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال
بل هو أنغام موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يا نجى الآلهة ألا ما ذكرت
لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات
الليلة فيزداد ضياء وإشراقاً . وحق عليك وأنت نجى العجل المقدس
أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجى ملياً دعوة الصاحبين جميعاً :

— لا تحسب يا صاح إن الرمز بالبقرة لها تور معناه ان هاتور كانت
بقرة بالفعل . وإنما ذلك رمز الى أن هاتور كانت ربة الخصب كما
كانت كسكل ربات الخصب ربة الجمال . بل هي في رأى أكثر
المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة
وصورة الطيبة . هي من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان
وأفروديت عند اليونان وسميراميس عند آشور . وحجتهم في هذا
ان اسم هاتور معناه بيت هورس . فهي إذن من هورس ما كانت
إيزيس في أمومتها له . بل إن مؤرخين ليرون هاتور أقرب في نسبها
لآلهة السماء من إيزيس نفسها ان كان الجمال مصدر الخصب والخلق .
ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيراها أقدم الآلهة ومنبع الحياة

بل يراها الالهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها وكانوا يقرنونها الى الآلهة جميعاً في كل المعابد . على انها في كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرتهم المدن قوامه الثابتة أردافه وسيقانه كما كانت الالهة الزينة والتخلي . ولذلك كانت في كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقا هي أطواق الحب ولابسة من الحلي عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براءة وبراءة . وأمسك النجى برهة فاذا الاشيب تحركت نفسه الى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاي فقال :

— هاتور في مصر ، وأفروديت في الاغريق ، والزهرة في روما ، وسميراميس في آشور ، كل هاتيك كن في الانسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة . فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً . وهل مصدر لاهام الشاعر ووحى المفكر وفن الفنان وليسكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة . وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ماسواه من صفاتها .

وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها الى جانب الخليل وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه الى جانبها والليل محقق لذلك يكاد يتفجر من الغيظ لولا حقوق ضيافة يجلبها ويرعاها . على انه اذ رأى الشاب يدنو من الراحية يهمس في أذنها لم يملك إلا أن همس هو في أذنه : — لا يملك الشراب يا صاح عليك لبك فيحسبك أصحابك خموراً . ونالت هذه الكلمة من ألفة الشاب وأراد أن لا يلاحظ أحد على وجهه تغيراً فاندفع معقباً على حديث الاشيب :

— هاتور والزهرة وأفرديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير . وايزيس فى مصر كانت هى عشتروت فى فينيقيا وقبرص وكانت سيرس فى روما . وتوت المصرى هو المريخ اليونانى . هكذا أذكر أنى سمعت . أوليس هذا دليلا على اتفاق الناس فى تصوير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم فى طرائق النظر لما فى الوجود . بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال ايزيس الى جبيل بالشام باحثه عن جثة أوزوريس ان عبادة هذه الالهة انتقلت معها الى فينيقيا وقبرص وانها انتقلت من هناك الى اليونان ثم الى روما ، فكان هذا سبب تشابه الاساطير حول البحيرة الكبيرة التى أسموها بحر الروم ونسبها البحر الابيض المتوسط . وإذا اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فها نحن اليوم لانعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تحلو فى الشعر ولا ظل لها من الحقيقة برغم ما كانت تمثل الحقيقة الثابتة فى تلك العصور . أو لو فرميت من أبناء العصور الفرعونية الديلة وحضر مجلسنا هذا أفتراه يشك فى أن هذه الستور التى تمثل الكرنك وعمده وتماثيله انما هى تماثيل وعمد من حجر وأنه فى طيبة وليس بين أحضان القاهرة . وفى مكان هذه الاوهام التى كانت حقائق أهل تلك الاجيال أقنا نحن حقائقنا لتكون أوهاما عند أجيال تلتنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ، لان هذه الصورة هى التى تكفل طمأنينته فى الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التفاضل والتجدد . وإذا صح ان بقى شئ من الايمان القديم لم يتغير —

وهذا ما أشك أكبر الشك فيه — فلن يكون إلا ما يمس حياتنا
المادية من طعام وشراب أو يمس آمالنا المهمة في خلد هذه الحياة .
استراح الخليل الى عود الشاب الى فلسفته في الايمان أن
صرفته عن الراية وصرفت عنه الجميلات جميعا . ولم يعبا الا شيب
بهذه الفلسفة أن كان في شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات
والسادة وبالمناجاة أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس
الراهبة براعة وسحرا . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب
السيدات والسادة الى شرايه فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير
الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت في
حديث الاشيب الشهي ماملق زينتها وجمالها زادت عليه عطفاً بأن
زادت عليه دلا . ولم يصغ الى حديث الشاب إلا نجى أبيس . وإذا
رأى فيه تجديفا سببه عدم التعمق في إدراك حكمة الاقدمين قال :

— لا تصدق يا صاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور في تصوير
الايمان ، ولا تحسب ان الناس اتقلوا في بضع ألوف السنوات
القليلة التي يعرفها التاريخ بقدر ما رويت . فلو أنك عدت الى فلسفة
الاقدمين وقرنتها الى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الايمان والشك
والاحاد يعرفها حكماء الفراعنة والاعريق كما يعرفها مفكرو اليوم
وفلاسفته . ثم أنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها
أكثر مما تسمعه في أساطير الاقدمين وهما وخيالا . وبين هذه
المذاهب الفلسفية والاهام المحسنة للسواد في حياته كانت الحقيقة
وما تزال ، وان كانت لا تسلم نفسها إلا لمن أخلص في البحث عنها

حبا فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه اليها . وأنت اذا رجعت الى رأى
 حكماء الاقدمين من الفراعنة والاشوريين والاعريق والرومانيين
 رايتهم جميعاً يقولون ان الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون
 موضع عناية الباحث ، ومعركة هذه الحقيقة يجب أن تكون غاية
 حياة الحكيم . وكثيرون من المخلصين دلمهم إلهامهم على هذه الحقيقة
 فأذاعوها في الناس منذ تلك العصور البعيدة ثم لم تغير مباحث العلم
 مما أذاعوا كثيراً . وأحسب ان الناس ماداموا أناساً وما دامت
 أدواتهم في البحث هي حواسهم فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم
 وان اتسع ميدانها وان عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم
 كان اهل القصر القروي بعد نشيد ايزيس قد اطأوا الى مجالسهم
 وعكفوا على شراهم وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات . وكنث
 لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيساً لا تكاد تميزه . فلما دب
 ما احتسوا في كوبات اللوتس الى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات
 رقيقة محتشمة وتسمع نسكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وادى هذا
 الى زيادة في التعارف والتفاهم والى تقارب بين بعض الموائد وبعضها
 الآخر . وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا فأومأت الى الخليل
 فتركنا فتبعناه بنظراتنا فاذا به يرمس في أذن العواد ، وإذا بفرقة
 الموسيقى تحتفي وراء الستور من جديد . ولفقت هذه الحركة الحاضرين
 فجل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثاني من مناظر
 الليلة الفرعونية ، وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا مادوره
 فيه إلا كما يعلم ما تخفى له الحياة من مفاجآت ، وإن كان في مفاجآت الحياة
 ما يفزع ، بينا كان الجمع ينظر في مفاجآت هذه الليلة ما يلد البصر والسمع .

أفروديت

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور ذهبية الخليل انقلبت معبدًا
فرعونياً قديماً ، وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملابسه للمنظر
الثاني من مناظر هذه اليلة الساحرة . وسادت برهة صمت لم تطل
أن حل فعل الشراب عقدة الألسن وبعث الى النفوس من معاني
الابتهاج ما أعجزها عن السكينة . وأضاف ضياء القمر إزداد نحولا
ورقة الى برجة النفوس هياما بالجو السائغ ، وهياما أكثر منه بدل
الراهبات الباسمات بسمات نعيم ورضا . وظلنا على ذلك برهة لم
تطل ، ثم اذا بنا نحس بادىء الامر ثم نستيقن بعد ذلك ان أصواتنا
موسيقية بعيدة تجيء إلينا مبطنّة مبطنّة كما نأثر بطن من سابعة
السموات . ومبطنّة مبطنّة هي الاخرى وقفت راعية هاتورة تستقبل
هذا الصوت السماوى الهابط اليها مع شعاعة من ضوء القمر . فلما
كادت تنصب قامتها تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها الى ناحية
الصوت كأنها تستجدى من الآلهة مزيداً فى سعادة اليلة . وفي
ضراعة استجداء الآلهة رقصت الراعية رقصاً قدسياً ، فلم تترك وسيلة
لاسترضاء أهل السماء ، ولا تركت وسيلة للتأثير فيهم بها ، إلا لجأت
اليها . وما أحسب أن هذا القوام المدن المنثنى استعطاها الواهب
نفسه للأرباب هبة حلال إلا نال رضاهم وما يطمع فيه من نعيم .

فلم يكد هذا الرقص ينتهي حتى كانت دقات الموسيقى ترتفع في أنغام
طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا هم الآخرون
مبتهجين يشكرون للآلهة أنعمهم . وما دامت الآلهة قد بعثت من
سماواتها رقص الطرب فأما يكون شكرها بالاذعان لمشيئتها وبالامعان
في الطرب . على أن القوم لم ينتظروا طويلاً ليعرفوا هذه المشيئة .
فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشداً :

شكراً للارباب ، أرباب السما . قد منحونا غبطة وهنا . فانعموا
بالعيش في لج القمر ، عاشق القبة الزرقاء وهاب الثمر ، ثمر العشق لمن
جن غراما . شكراً للارباب ...

وعلى أنغام هذه الانشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء
الى رقص الشكر ، ومن التثني في ضراعة الى القفز في مرح ، كأنما
تريد أن تطير الى آلهة أجدادها الفراعنة تقبلهم تقبيلاً . أما الجمع
فاندفع يغني : شكراً للارباب أرباب السما . وفي نشيده اختلطت
أصوات الرجال القوية بالأنغام النسوية المشجية وان تميزت هذه
الأنغام كما يتميز الماس ركب على الذهب الأبيض . وفي أنشودتهم
وفي رقصهم ظل القوم زمناً حتى انقلبت الموسيقى مرة ثالثة الى
أنغام ردت النفوس الى الشعور الديني وعادت بالمنشدين لاحترام معنى
لباس الرهبان . ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الاول الى أن
يقفوا صفيين رهبانا وراهبات لتخطر بينهما راعية هاتور راقصة
رقصاً دينياً هو رقص التوبة والاستغفار خرت في ختامه ساجدة
وقد علا بالنجيب صوتها . وما كان أشد دهشتنا حين ألقيناها بعد
ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن اتجه كل الى مقعده يريد أن

يعود اليه وما تزال دمعته تنهل على وجنتها الحمراء اللون . فلما
سكن روعها قال الذي دعانا الى الشاي :

— كذلك الحياة : ضراعة الى النعيم فنهل منه فزهده فيه وتوبة
عنه . صبا يتوثب وشباب يستمتع ، وشيوخوخة تحشى وتستغفر .
رجاء ما نكاد نحسبه تحقق حتى اذا به حلم تطاير . هذا معنى نراه
كل يوم بأعيننا ، لكنه لا يترك من الاثر في نفوسنا ما كان لدموع
الراعية التي اذابت من قلوبنا وفتحت على هذا المعنى نظراتنا التي
لا ترى كثيراً مما تقع عليه .

وعاد كل جماعة الى مكانهم ، وعاد الاشيب مع السيدات والسادة
فجلس الى جانب فاتنة سميراميس كما كان . أما الشاب فقد ظل على
مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها وان كره الخليل هذا التحكك
الذي أثار منه غيرته . على انه في رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن
ينادى السقاة ليدوروا على الجمع بالشراب . وسرعان ما امتلأت
الاكواب أترعها السقاة تتبعهم عادة المومياة . فلما عاد القوم الى
شرابهم استصحب الخليل الراعية الى مجلسنا مع السيدات والسادة
آملاً أن ينصرف الشاب الى حديث غير حديث الهوى ، ولم يخطئ
الظن ، فما كاد يستقر به المقام حتى اتجه الى ناحية الذي دعانا الى
الشاي قائلاً :

— حق ماذا كره صديقنا نجى العجل المقدس : ان الناس اليوم
هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التي يعرفها التاريخ من تكبيرهم .
لكنى بازاء ما رأيت منذ لحظة أسائل نفسي : أصبح ان الحقيقة
المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم ؟

وهل صحيح أن في الوجود حقيقة مجردة غير هاته الحياة التي نحيا
بها فيها من شهوات وأوهام وأمال وبما تنتهي اليه من تقان وتجدد
يهبط بجيل الى غيابات الفناء ليطفو بجيل آخر الى عالم الشهوات
والأوهام والآمال ؟ وخير ما في هذه الأوهام من حقيقة هو ما نحن
الآن بسببه من نعيم كنا نهمل منه وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بأن
تعود الراعية الساحرة الى الرضا عن الحياة لترضى الحياة
عنا جميعاً .

فأسرع الخليل من خشية أن يعود الشاب الى ما يثير غيرته
فقال :

— لقد ذكرت أن هاتور في مصر هي سميراميس في آشور
وهي أفروديت عند الاغريق . وقد أسمعنا نجى أليس من أمر هاتور
حديثاً شهيماً ، نهمل لنا أن نسمع عن أفروديت مثل هذا الحديث ؟
وكأنما أراد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسى
الشاب وغير الشاب راعية هاتور لتبقى خالصة له من دون الرجال
الحاضرين جميعاً فلا يضطر أن ينه أضيافه الى فضل الراعية وحبه
إياها في إعداد هذه الليلة لمتاعهم ، وأن يذكر الشاب بأن لا يخرج به
الشراب عن صوابه .

وكان الاشيب قد نال من رعاية فاتنة سميراميس التي صدفت عن
صاحبها الأول لنسيانه إياها في شرابه ما جعله يلق جمالها بنظراته
من غير أن يستطيع قولاً إلا همساً لا يرى من اللياقة أن يسمعه أحد
غيرها . لكنه إذ سمع دعوة الخليل الى قصص حديث أفروديت ،
واذ كانت أفروديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معاني

الحياة محققة على الحياة ، فقد رأى في توليه قصص حديثها الوسيلة
لخاطبة صاحبتها في شخص الإلهة الرغبة. لذلك سارع الى هذا القصص
في لهجة مطمئنة تنطوي طمأنينتها على شيء من الايمان بأفروديت
يشبه إيمانه بسميراميس وفانتتها ، قل :

— ليست الالهة الجمال والرغبة أفروديت إغريقية الحسب . بل
هي فينيقية من قبرص . ولعلها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ
بزيارة إيزيس جبيل باحثة عن أوزوريس . على ان ازيود يذهب الى
أنها نشأت نشأة أخرى ، ففي معركة بين الالهين القديمين أو رانوس
و كرونوس قط الأخير رجولة الأول فسقطت هذه البقايا المقدسة
على لج الموج فحمل منها رغاؤه الذي ظل يجتمع حولها حتى كملت
منه ساعة بلوغها قبرص الالهة الساحرة ذات التاج الذهبي . ويذهب
هو ميروس الى أن الالهات أعجبين بأفروديت ساعة رأيها فأنشدن في
حضرتهما أغنيات المرح وزين آذانها بأقراط الذهب وخلعن ما كن
يلبسن في أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات . فلما تمت
زينتها خرجن بها الى الآلهة حافظات من حولها فأكادوا يرونها حتى
هام كل بسحرها وتحركت فيه لواذع الرغبة وتقدم يريد منها زوجها
له زينة لمضججه الالهى وكما لأربوبيته . وكيف كان لأى منهم بالنجاة
من سحرها وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها وكان يتضوع مع
عذب شذاها سحر الحديث وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر
المرأة جميلاً .

» على أن الالهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها
أن تسخر لها من رغبة كل آله ، وكانت من الكرم والنفطة بما

دعاها لتصل بين الالهة والناس بأوثق صلة . وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به هي الاخرى من كبرياء الالهة وحرصهم على أن لا تختلط أنسابهم بأنساب عبادهم فقد سخرت من هذا الحرص وتلك الكبرياء وجعلت تخدع الالهة في الناس والناس في الالهة فتدس في مضجع الالهة جميلة من بنات حواء وفي مضجع الالهة جبارا من بني آدم . وكأنا دفعتمها الرغبة آخر الامر لتذوق ما ألتحت لغيرها أمر ذوقه ، أو كأنا حنق عليها أبو الالهة زوس فأراد أن يخضعها لما أخضعت هي له الالهة غيرها . لذلك مالبثت أن رأت أنشيز يرعى أبقاره على سفوح الايدا حتى امتلأ جسمها بجماله الساحر سحر جمال الالهة غراما ورغبة . فأسرعت الى معبدها وأحاطت بها الشاريت حتى أستحمت ثم عطرناها بالعطور الالهية وأزينت ولبست ثيابها النمامة ، وخرجت قاصدة سفح الايدا حتى اذا رآها أنشيز جن بها مايجن كل من رآها من الناس والالهة طرا . على أن الخوف ملكه أن تكون الالهة فيصيبه من الاقتراب منها أذى . لكنها خدعته بقولها إنها ابنة ملك فريجيا وأنها جادت اليه بأمر أبيها لتصبح له زوجا . ولم يطق أنشيز أمام جمالها صبرا . وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع التي صادها فذهب بها اليه وهي كاسرة الطرف تزعم الحياء . ولما أفاق من غشيته وبصر بها وقد ارتدت ملابسها لم تبق لديه ريبة في ألوهيتها فتضرع اليها ألا يصيبه ما يصيب من تخالط الالهات الخالدات من ذهب الشباب . فطأته وإن لم تخف عليه أنه مصيبه الهرم الذي لا يرحم حين يهدم الناس هدمًا . ثم أنه سيعتاض من هرمه ومن مشييه أبناء من الالهة تخلد

فيه قوته . أما هي ، أما افروديت ، فسيصيبها من فعلتها معه
سخرية الآلهة إن هم علموا بشيء من أمرها . لذلك حذرت انشيز
أن يقول شيئا أو يفخر بما صنع والا أصابته الصاعقة بأذاعته سرا
يجب كتمانها .

« وإنما كانت صلة افروديت بالنشيز عمياء ساعة . لكنها
أولعت حبا بادونيس . وأولعت به حبا حتى لقد ذهب يوما للصيد
فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحا مميتا ، وكان هذا المنظر
بمراى من افروديت فطارت اليه ناسية أن تحتذى فوطئت قدمها
شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم ، وكان الورد
الى يومئذ أبيض اللون فاحمر لونه من دم افروديت ، وأقامت تبكي
محبها زمنا أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعابثة بكل
معاني الوفاء .

« ولا افروديت غير هذا من قصص العبت بالآلهة والناس
استيفاء لرغباتها ما يطول حديثه . على أن حكومتها هي وحيرا وهيلانة
الى الشاب البارع باريس لا يجهلها عالم بتاريخها . فقد تنافس النسوة
الالاهات الثلاث في الجمال فاحتكن الى باريس . وكيف كان له أن
يتردد في حكومته بعد الذي تضوع به جمال افروديت جمالا فاتنا
ذكيا . ولما حكم لها أرادت العبت بمنافستها هيلانة زوج أغا ممنون ،
فبعثت الى نفسها عشق باريس حتى تبعته تاركة مضجع زوجها
مرتضية الشاب الذي حكم ضدها خليلا لها . وكانت هذه الفعلة سبب
حرب طروادة . وفي هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين
لصاحبه فجر الزوج باريس من خوذته . لكن افروديت أسرع

الى معونة من قضى لها بحكومة الجمال فانقذته وفرت به . وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذي رأت من ضعف خليلها . لكن الإلهة الرعد هددتها ان هي فعلت أفست عليها وعلى زوجها الحياة وأرغمها بذلك على أن تظل في أحضان باريس برغم احتقارها إياه لضيقه وحنقها على نفسها .

« وكذلك يملك الجمال أفئدة الآلهة والناس جميعا انا وذاكرانا . وكذلك حكمت افروديت آلهة الاولمب كما حكمت الناس بكاء جمالها الساحر . وحق لكل من وهبت ما وهبت افروديت أن تجلس على عرش الجمال حاكمة على القلوب والأرواح والأفئدة مسخرة لرغباتها الآلهة والرجال تسخيراً يستريحون له ويرضون عنه ، بل يرغبون فيه أعظم الرغبة .

في هذا الموضع من حديث الاشيب التفت الشاب اليه وعلى شفته بسمة الساخر فقال :

— تحدث أخى تحدث . هات لنا من مثل ما ذكرت عن الآلهة والجميلات . حدثنا عن افروديت الآلهة البغي والفجور وقل لنا بعد ذلك انها الآلهة تستحق العبادة وأن تقام لها الصلوات وأن يحرق لها البخور . ولك أن تذكر أكثر من هذا ان الاغريقين انقدماء الذين امتازوا بالفطنة والذكاء والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب في الأخلاق قد شادوا لبغيها ولفجورها من المعابد مالا أدرى أى دافع يدفعك للتحدث عنه بكل هذا الاطراء والاعجاب .

أتم الشاب حديثه فأدار الاشيب اليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها

على شفاهه ابتسامة ازدرء وإشفاق ، ثم أشاح بوجهه وتوجه به الى ناحية صاحبه الفاتنة وقال :

— يخطيء الذين يحسبون افروديت الالهة البغي والفجور ،
انما هي الالهة الخصب تريد أن تهدي العالم أجمل ثمرات الحب وابهاها .
ولذلك كان الاغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون
لها من الابناء في مثل جمال افروديت وذكائها . وكيف تريد بالالهة
الجمال والرغبة ألا تهب من هذه الفضائل لكل مختاريسها ؟ أو
لوضن آله الحكمة بحكمته على الناس يبقى مع ذلك جديرا بالربوبية !
ولوضن آله الحصاد أو آله الخصب بالخصب وبالحصاد وتركوا الارض
جرداء فاحلة ليموت الناس جوعا أو ليظعموا الزقوم أفيكون أيهما
قينا بقليل أو بكثير من حب الناس واحترامهم حبا واحتراما هم
مطالبون بهما لكل آله ؟ ! فإذا يستطيع إذن أن ينقم نقم من
افروديت أو من سميراميس أو من كل إلهة من آلهة الجمال والخصب
إذا هي اتصفت بالكرم أول صفات الآلهة وخلعت من جمالها ومن
رغبتها على العالم لتزيد العالم جمالا ولتزيد الناس في العالم رغبة .
ولسميراميس ولأفروديت في العالم رسل من بنات حواء هن مثل
جمال هاتيك الآلهة ويمسكن من وحن الرغبة ما كانت الآلهة تملك .
وهاتيك الرسل يباركن العالم ويبعثن الى جوه شعرا ونعمة .

وفي هذا الموضع من حديثه زاد توجه الاشيب للفاتنة ولمعت
حدقاته بندي بللها وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة اليها لتردها
الى حنايا فؤاده . وشعرت هي منه بهذا فتندت نظراتها هي الأخرى
ونسيت صاحبها العاكف على شرابه فما يسمع مما يدور حوله من

الحديث شيئاً ولا يتعفف عن أن يجيل عينيه في الراهبات حوله
لا يفضل منهن واحدة على أخرى . وبدأت من الفاتنة حركة دلت على
حرصها على أن تبدى جمال ذراعيها ، كأنما تريد أن تبين عنهما
للأشيب المسحور بجمالها لتقول له : هما لك يطوقان كل جيدك فلا
يعرف بعد دارتهما شيئاً . وتابع الأشيب حديثه وقد تندى صوته
كما تندت حدقتاه فقال :

— تبارك هاتيك الرسل العالم ويبعثن الى جوه شعراً ونعمة .
واذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب خصبهن فضلاً أن يوحين
لغيرهن من هاتيك الأوعية حرصاً على أن يثمرن ثمرات جميلة . أستم
ترون الى كل امرأة لم تؤت من الجمال الحظ الذي ترضى عنه تجاهد
لتبدو جميلة وتجاهد أكثر من ذلك لتتسل نسلًا يخفض من نسبة
القبح في العالم . ولو اقتصرت رسالة هاتيك الرسل من ذوات وحى
افروديت ، وعددهن على مالا يزال عليه من قلة ، على أن ينفعن
العالم بثمرات جميلة ولم يكن المثل الذي تجاهد غير الجميلات ليكون
ثمرهن مثله لكانت تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالهالم الى نواح
الكمال كما تدفع رسالتهن الافروديتية القدسية اليوم به .

ومع أن الأشيب كان متجهماً بكل حديثه هذا الى فائقته فقد
افترت ثغور الراعية وحاسداتها عن بساط الرضى لسماع قول هذا
المفتون بالجمال ، ومالت كل منهن عند ختام الحديث الى ناحية
الصاحب الذي يملقها . وكان الخليل قد نسي الشاب ونسى انه صاحب
الليلة وترك نفسه لعواطفها وجعل يحدث الراعية حديث هوى
ورغبة . أليس قد أخذ هو الآخر من الشراب الحظ الذي ينسى

الحكيم قيود الحكمة ! ثم انه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كل في شغل بنفسه وبعين يستلین فؤادها . وكان ذلك كله يحدث في رهبة المعبد الفرعوني الذي ازداد رهبة أن اطفئت رويداً رويداً بعد انتهاء المنظر الثاني كل الانوار الساطعة فلم تبق الى جانب شعاعات القمر التي تحترق الستور سوى اضواء مستورة بحجب مختلفة الالوان تزيد جمال كل جميلة وضوحا وتخفي من عبث الزمن بالوجوه ما يلبس السكل حلة الشباب .

ونسيت فاتنة سميراميس نفسها لحظة في عذب حديث الاشيب وحلو هجسه ، ثم أدارت النظر فيما حوّلها فاذا صاحبها الاول قد غادر المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة ، أو كأنما وصلت المشوة من غور نفسه حتى نسي كل ماحوله فهبط الى احدى غرف الدهمية تغطي فيها . وأحس الاشيب تغيراً في بسمات الفاتنة لم يرتب في أن الأسف على ما حل بهذا الصاحب كان سببه . لكن هذا التغير لم يدم إلا قليلا ، وما لبث أن انقلب الى زيادة في اقبالها عليه وزيادة في صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه . وزاد هذا الرضا في إشراق وجهها وضحك عينيها وفتنة ابتسامتها وضياء كل جمالها ضياء زادت الرغبة ذكاء فضاغت جماله . وعقد لسان الاشيب ازاء ما رأى . لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر ايضاحا عن كل ما يدور بنفسه من المعاني من كل كلام يمكن أن يعبر به عنها . وأى كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار قدسية يمكن أن يبر عن التفاني في عبادة الجمال والاخلاص الصادق في العبودية لفنتته . وذلك الاخلاص وهذا التفاني يتضاعفان اذا حلا نفسا كنفس الاشيب أولمت طوال

حياتها بتقوى الله وتورعت عما عد عباده ، ولو كان ما عند عباده هو الجمال . وطال بهما الصمت وإن نطقتهما النظرات أعذب منطق بكل ما تهتز به أعصابهما وأرواحهما وقلوبهما ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان .

وبعد زمن رفر ف فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته ، بعد زمن لم يدر هؤلاء الرهبان أطال أم قصر ، عاود الخليل رجوع من واجب المضيف فاذا به يهيب من جديد بالسقاة ، وبغادة المومياء ، ثم اذا به ينادى العواد وأصحابه .

— هلموا يرافق فأوقعوا لنا دوراً . ولعل الصبح جميعاً يغتبطون أكثر الغبطة إن أنتم أنشدتم : غننا في الشوق أو غن بنا . وأصلح الموسيقيون آلاتهم وغنى العواد أنشودة كليوباترة وعادوا تجمع يقظة الوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام آلهة الجمال والهوى . وردد الليل الصامت على نسائه الرقيقة وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الاوتار وألحان المغنى الذى استثار من طرب الحضور واستحسنهم ما زادهم عرفانا للخليل بفضله . فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانباً قال الذى دعانا الى الشاى :

— ألا يشهد هذا اللحن من ألحان كليوباترا بان ملوك مصر القديمة وآلهتها كانوا يعيشون فى حياة شعرية لا تنقل عن حياة أفروديت كما وصفها لنا صاحبنا ؟
قال نجى أيبس :

— كلا : لم يلمع قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذى

خلعه الاغريق على آلهتهم . واذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث
 الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية فلعلمها من بين ربات عرش مصر
 وأربابه الوحيدة التي خرجت على حكمة الأقدمين . ولعل لها من
 العذر أن آباءهم لم يكن دمهم مصريا خالصا ولم يكونوا عبادا مخلصين لآلهة
 الفراعنة الأقدمين . أما التاريخ فلم يحفظ لنا في قصص إيزيس ولا
 هاتور ولا أية إلهة أخرى مثل ما يقص تاريخ اليونان عن آلهته
 وإلهاته . ولعل ذلك يرجع الى الفرق الكبير بين طبيعة مصر
 وطبيعة اليونان . فبينما مافي هذه من جبال ووديان يجعل سماءها
 عرضة لتغيرات كثيرة تبعث الى النفوس ألوانا مختلفة من الشعور
 والحس وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون اذا مصر ساكنة الى
 حياة واحدة هي الحياة على ضفتي النيل في نضرة الوادي الدائمة
 تنفرج عنها الصحراوات الى آفاق الآفاق تظلمها سماء دائمة الصفو .
 هذا النوع من العيش أدعى للتفكير في القدسيات وأولها الموت
 ثم ما بعد الموت من تلك الحياة الاغريقية التي ينسى حاضرها
 مستقبلها ويجعل أهلها يكبون على المتاع بهذا الحاضر أشد
 إكباب . وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من
 نسيان المستقبل في الحاضر . وليست حياة باكوس آله الخمر ولا ديمتر آلهة
 الحصاد إلا بعض هذه الصور . فأما آلهة مصر الفرعونية ، فكانت
 تزين جباههم جميعا سكينه هي سكينه خلد الوادي المطمئن الى حاضره
 طمأنينة تبعث بخياله وتفكيره الى المستقبل الرهيب الذي ينتظرنا في
 الأبدية . هاته السكينه ترونها على جبهة أبيس كما ترونها على جبهة
 أوزوريس وايزيس وهاتور من آلهة الخير ، وترونها كذلك على جبهة

إله الشر نفسه. جباههم جميعا مطمئنة كجباه المصريين جميعا ، بينما
تشتعل في حناياهم نار دائمة السعير هي نار المستقبل والتفكير فيه.
وهذا هو مادعا الفراعنة الاقدمين لينقروا في الصخر قبورهم وليعدوا
فيها كل معدات الحياة الاخرى كي يكفلوا من طائفتهم ما كفلاوا
من طائفة الدنيا. وهذا هو ماجعل صحارى مصر مأهولة في عصور
كثيرة بمحزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صوما وصلاة لينالوا
الرضى في الحياة الآخرة. وهذا كذلك هو ماجعل مصر مهبط وحى
الحكمة أكثر منها مهبط آلهة الشعر وشياطينه

كان الشراب قد أخذ بلب صديقنا الشاب . لكنه كان من
قوة الارادة بما يجعله يغلب فكره على نوازع غريزته كلما خشى أن
يجد الناس في هذه النوازع موضعا لنقده. لذلك ترك المحبين يعودون
لتبادل الاسرار ، واندفع مقبلا على قول النجى :

— لست اعتقد أن الفراعنة من اجدادنا قد قصروا انفسهم على
الحكمة وحدها ، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التى لاتعنى
الا بالموت وبما بعد الموت . فلقد كان لديهم الى جانب الهة الخير
والشر آلهة الزينة كهاتور وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من الوان
الحياة . ثم أن فى اقليل من القمص الذى قرأنا عنهم شيئا كثيرا
عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها . ولعلمهم كانوا ككل العالم الوثنى
فى حرصه على المتاع بالحاضر وفى تعلقه به تعلقا اجتمع له من الحكمة
حظ كبير . فنحن إذ نذكر المتاع على أنه اس من أسس الحياة ترانا
نتنقل به الى النظام الفكرى الذى الفناه والذى يتوهم أن فى العالم
حقيقة واحدة يجب التوفر عليها . فاذا كان المتاع هو هذه الحقيقة

وجب التوفر على الحاضر الى حد الافراط فيه افراطا يخرج به عن
معنى الخير الصحيح الذى له الى النقيض منه ويجعله شراً بحتاً. أما
هؤلاء الاقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم
من سبل القصد فى المتاع ما تلميه غريزة الاحتفاظ بالنفس والاحتفاظ
بالمتاع نفسه . هذه الغريزة التى تدلك فى غير منطق ولا تفكير
على ان دوام المتاع لا يكون بالتوفر عليه توفر إيمان وادمان
ولكن بالنهل منه الفينة بعد الفينة لتدوم غبطتك به ، كما أنك انما
تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعتها كل يوم بالنوم الى الحد الذى يريح
النوم جسمك فيه الى يقظة جديدة . وكما أن اليقظة حقيقة والنوم
حقيقة على أنهما ضدان متناقضان فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة
وهما ضدان . وأنت بحاجة للامتناع وللمتاع حاجتك للنوم وليقظة .
وهذا شأن كل حقيقة انسانية . يجب أن تجتمع من الضدين اللذين
يكونان الحياة . أى أنها يجب أن تكون الحياة فى كمالها . فاما هذه
الحقائق التى نسميها حقائق لانها ترضى منطق العقل وحده فخطها
من الحق ضئيل ، أو قل انها ليست من الحق فى شىء .

ومضت على حديث الشاب برهة صمت أعقبتها ضحكة حلوة
جاءت من إحدى نواحي المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل
وتفكيره . ثم عاد التهامس الى مثل ما كان تكلؤه افروديت
برعايتها . وكان الليل تولى مدبرة اعجازه . وكما ولى بعضه ولى معه
بعض الحاضرين ينحدرون الى حيث يخلعون لباس الرهبان ثم يستقلون
السيارات الى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر . ولم يكن أحد

يدري في أى سيارة جاء، وإنما كان يعود الى حيث يريد في السيارة
التي يدعى الى العودة فيها .

واعذرت فاتنة سميراميس لاصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها
متمط في الذهبية ولا بد لها من انتظاره . لكنها لم تكذب
المكان خالياً إلا من الخليل والراعية، وترى رجال الخليل ينزلون ستور
المعبد الفرعوني لتعود الذهبية كما كانت حتى أشارت الى الاشيب
فائلة في ابتسام :

— هل لك في أن ترى مطلع الشمس على وجه أبى الهول عند
سفح الازهرام؟

ولما أجابها في طرب واغتيباط الى ما أرادت استأذنا الخليل والراعية
وخلعا لباس العبادة ثم استقلا سيارة صاح الاشيب بسائقها

— هيا بنا الى الازهرام

وصاحت الفاتنة :

— هيا بنا ، الى بيت منا

حكم السروي

كان لنا في قرية ... من قرى مديرية اغربية صديق ذو كرم
وشهامة تكتظ داره ابداء بمشايع الفلاحين ومن عداهم من اصحابه
وغير اصحابه ومن العظماء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من
اصحابي نمضى عنده كل عام اسابيع نظمئن فيها إلى نفوسنا وننسى
فيها متاعب الحياة . فاذا ذهبنا اليه استقبلنا بالبشر والترحاب ونزلنا
منه في رحب وسعة وقضينا وقتا بين التزه في رياض حدائقه
ومشاهدة ملاعب الخيل التي تقام لمسرتنا وبين المزارع الواسعة
تقطع شاسع مسافاتها سعيا على الاقدام أو ممتطين متون الجياد .
ولقد غرس صاحبنا في مزارعه كثيرا من الشجر أعان خصب الارض
على نموها وكثرتها فكانت للسائرين تحتها ظلا رطيبا يبعث الى
النفس أنسا ومسرة ويقيها حر الشمس أيام القيظ

وكان لصديقنا ثلاثة أبناء لا يزالون ، على تقدم سني أيهمهم ،
يتمتعون بلذائد الطفولة ويرتعون في نعمة حريتها . وكان أبوهم
يحبهم حب العباداة . فاذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها
الحنان والعطف ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم . واذا
اقرب أحدهم منه اخذه اليه في تلمظ وقبل جبينه النقي وصدق

به طويلا ثم اجلسه على ركبته وملس على شعره وشمله من حنايه
بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد. وكذلك كان غلوه في محبة أولاده
موضع دهشة الكثيرين ممن يحلون فناءه

وقد انتقلنا يوما ونحن عنده من غرف دار الضيافة الى فناء
رحب لنشهد ملعب خيل اجتمع اليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم
من فرح كانوا يتسابقون فيه . وجاء أوسط ابناء صديقنا ووقف الى
جوار ابيه فرفعه اليه وقبله وأجلسه الى جانبه . وسرعان ما انتظمت
الحلقة حتى دق الطبل وتقدم الى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر
البطن والساق طويل شعر الذنب مشوال . وراض انفارس جواده
حتى اذا تمكن من تتبع ايقاع الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح
يترنح ويميل ويدل ويعجب . يرفع رأسه طورا فتمسح اصداعه
« كرايت » رأس الجمامة . ويتقدم الى الامام مسرعا تارة فيضيئ
الى نعمة المزمارة نعمة صريف الالهة انفضية التي تزين واسع صدره،
ثم اذا به كأنه ثمل انتشى فتثنت سيقانه حتى كاد يمسح الارض بطنه
الضامر . وما هي الا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة
ويسرة في كبر وخيلاء . وانا لكذلك مأخوذون برقص الجواد اذ
أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحبونه وأجلسه رب الدار
الى جانبه وقام الابن فوقف مع الاطفال الواقفين . وعاد الجواد
يدهش الناس بميله وتنزيه وبدله وكبره وبلعب أبدى فيه من جمال
قوامه ما تحرص كل راقصة على ابدائه حين تفتن في لين الحركات
وتثني القدر وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من انعام الجمال .
فلما أتم دوره خرج يتبعه الاعجاب والطف . ودخل الحلقة جواد

اشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره . وما كان اكبر الفرق
بينه وبين سلفه . احتاج فارسه الى ان يعمل فيه السوط والركاب
لينال منه بعض حركات تعجبه . وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم
الاول . وليت هذا الاشهب ما خرج . فانه لما امضه السوط ومزق
جنبه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ونال ابن صديقنا
المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشياً عليه . فقام أبوه كالجنون
يجرى اليه ليرى ما حل به . وجعل يحدق به فاذا عيون مغمضة
وخدود مصفرة ولون ذاهب . فصاح « يا بني » ، صيحة سمعها الناس
وما زالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم في كلمة عزاء لهذا الاب
الذاهل يشاركه بها في ألمه بعد اذ دعا هو الناس ليشاركوه في غبطته
ومسرتة . واحطنا نحن بصديقنا . ومن بيننا طيب أراد أن يستخلص
الطفل من يده فاذا الاب ممسك بانه حريص عليه تحتلج قلبه الزفرات
وتجول في عينه العبرات حتى كأنما بدا له اليأس منه فهو يريد أن
يعانقه عناقاً أخيراً طويلاً . ثم ذهبنا الى دار الضيافة واقتدناه معنا
اليها . فلما احتوتنا أمسك الطيب يد الطفل ونظر الى وجهه
وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أذناها من أنفه فاذا الطفل يفتح
عينيه يحيلهما في الغرفة وما يزال به أثر الدهول . فلما رآه أبوه
رجع الى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زایل
الولد دهوله وعاد الى الحياة وعأوده تورده الجميل

بعد أيام وقد انصرف اصدقاؤى لبعض رياضتهم ولزمت البيت
لبعض شأنى وبقى صديقنا معى يحادثنى جاء هذا الابن الينا وجلس
معنا . فقلت لايه فى ابتسامه :

— لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه ، ولا أنكر أن أبا يحب أبناءه حبك أبناءك لجدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .
فتنهط طويلا وقال :

— أي هم وأي شجن رأيت . لقد قضيت طوال السنين وحياتي في شجن وهم حتى ابيض شعري وشاب مفرقي . ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الابناء الذين ترى . افتتراني بعد ذلك مغاليا اذا بلغ عندي حبه الجنون .

لم أفهم كل ما اراد أن يقول . لكنني ادركت ان له في الحب حديثا طويلا وانه قاسى في سبيله اكثر مما يقاسى الرجل ثم حصل على من أحب وبني بها فانجبت له هؤلاء الابناء فشاقني أن أقف على همه الاول وشجنه الماضي فقلت : أي هم تريد ! لعل لك حديثا لا تضن على بذكره ؟ قال :

— انه يا صاح حديث حياتي . وما ذكرته مرة وذكرت كيف توج القدر جهادي بالظفر الا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها . وانك لصديق وفي لا يرضن عليه بشيء فاستمع الى :

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبي . وكان لهذا الجار ابنة أصغر مني بنحو ست سنوات جمعت الطفولة بيني وبينها برابطة المودة . فلما كساها الشباب بديع حلتها أخذت بقلبي محاسنها وقتنتي جمالها وجعلت اختلس اللحظات لاخلو بها احدها متعارف القول وما فوق

الحديث وأشعر بكل ما في ذلك من نعمة ومتاع وحياة. ثم أحسست
أن لي في نفسها مثل ما لها في نفسي ففاتها حديث الحب وتعاهدنا
على الوفاء .

ومضت سنون وهذا الحب ينمو في نفسي، ونزداد نحن
إحساساً بعظيم ما له من سلطان علينا حتى بلغنا من ذلك أن كنا
لا نتفارق إلا على موعد للقاء ، وإن كنا نقضى ما بين اللقيين في شوق
وهلف ما أشدهما . فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا
أن حجز ابنته عن الخروج من الدار . فها إلى الأمر وأزعجني وأدخل
الهم على نفسي وكدت أجن من فرط ما بي . ثم عولت على أن
أستعيد وإياها عهدنا الجليل الظاهر . ففقت لي الحيلة أن أستعين
بعجوز تتردد على بيتنا لاستطلع رأى محبوبتي فيما اعزمت وجعلت
أحابي العجوز بالاحسان وأسبغ عليها نعمة ضئيلة القيمة لكنها
ذات شأن في نفوس هاتيك الريفيات . فلما استوثقت منها سألتها
أن تكلم صاحبتي في أمري لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدي .
فلما اطأنت إلى حرصها على لقيائي فكرت مع العجوز في وسائل
هذه اللقيا وطرق الخفية فيها . ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت
السنين يريد المحبين ومستودع سر المشوقين . وكانت لقيانا كل ليلة
في نثرة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا في الجامع يصليان
الفرضين ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته . في هاته الساعة
كنا نلتقي فنجدد عهدنا وتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التي تمر
بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضي . فاذا أذن المؤذن بالعشاء
جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب . وما

كان أمر ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل في اللقاء
ثم تحدثنا : أمر الزواج كما ينتهي ما يوجب الفراق . لكن
الشعور بان الحياة الزوجية ، وإن أسعدها الاخلاص ، تخمد سحر نار
الحب الزاكية الحارة ، جعلنا لا تتمتع بهذا الزواج ولا نفتح أحدا
من أهلنا أمره . وبقينا قانعين بتلك السوية بين الغرضين كل يوم
مستمتعين منها بكل ما يؤويه من سعادة

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس
النعيم . وانا ذات يوم جلوس تتناجى اذا قبلت العجوز قبل مر عدها
مذعورة تنادى بصوت محتق ، مخافة أن يسمع ، منذرة بالويل
والثبور قائلة إن أبا محبر بتى عاد قبل عادته وكأنا كان على علم بما
ينبئنا . فنه ما لبث أن تخطى عتبة الدار حتى سأل عن ابنته وألح في
المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها أنها تستحم ولا منتظر مجيئها
من حيث تكون

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولاني الجمود . أترانا
سنفتضح ؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبتي بسببي ؟ لا . لا .
أنى لن احتمل هذا . ولا بد من درء الخطر بأية وسيلة . . ولم تمر
لحظة حتى ملكنتى فكرة اللحاق بابي وصحبته طوعاً أو كرهاً إلى
أيها وخطبتها اليه زوجاً لي وملازمته حتى يذعن لما أريد . وأخبرت
صاحبتى بعزمى وطلبت إليها أن تبقى حيث هي حتى تجيئها العجوز
بخبز دخولنا إلى أيها فتدخل هـ الى الدار خفية بينا يكون
أبوها مشغولاً بنا عما هو فيه من الهياج
وهرولت مسرعا الى أبي وناديت به وكان لا يزال في المسجد

فخرج الى وتبعني من غير تفكير ومن غير أن يسألني عن سبب مناداته
مكتفية عواطفه بما رأي عليهِ من الاضطراب لتسوقه كي يتبعني
ويقضى طلبتي وغرضي . ولم أجد كبير غناء في إقناعه بالذهاب من
فورنا الى جارنا فخطب اليه ابنته . ودخلنا منظره الرجل وبعثنا له
الخبر بقدوم أبي اليه فما لبث أن جاء متكلفاً بالبشاشة مطرحاً ما استطاع
مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبي وإن لم تخف على
نظرات منه كانت تتجه أحياناً الى وبها شيء من الحق بل من
حب الانتقام .

وحضرت القهوة فقمنا من حضرتهم تأدياً وتلفت ساعة خروجي
من المنظره فرأيت العجوز توميء الى كي أطمئن . وأزالت حركة
العجوز مخاوفي فجعلت أفكر في أمر ما سيتم هذه الليلة وأنا مضطرب
بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت الى المنظره فوجدت أبي
وحده فسألته عن جلية الامر فأخبرني ان صديقنا دهش لهذه الخطبة
الغير المنتظرة وطلب اليه أن يمهله حتى يدخل الى أهله فيشاورهم في
الامر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعد انه أول ما دخل سأل
زوجه ؟

— هل جاءت البنت ؟

— نعم انها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأنادي
بها اليك ؟

— ان جارنا يخطبها لابنه . فأرايك وهل لك علم برأيها في ذلك ؟

— ومن لي بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة .
دعني أسألك .

فصاح الرجل بغنة :

— يا فاجرة . من لك بان تعلمي ؟ أو ما عرفت ما بينهما وكيف

يلتقيان ؟

— كيف يلتقيان ! هدىء روعك يا صاح . إن ابنتك من يوم
احتجبت لا تعرف ما وراء بابنا . فاني لك بتصيد أخبار كالتى
ترميها بها ؟

— كفى كذبا يا خبيثة . وادخلي البنت على لتوها وإلا فاني
قاتلها . لن أرضى إلخنا تحت سقف يظله الشرف . أين هي ؟

فظهرت على الأم سياء الجد وقالت بلمهجة الحازم القدير :

— الا هدت من حديثك فان تراها . اقتلنى إن شئت . لكنى
لن أدعها تدخل على أب دائش الحلم يرمى فتاة طاهرة باقبح سبة
من غير سبب . . فاما أن راجعك صوابك وأعطيت على تنسك
موتقما أن تقابلها ببشر الاب الزين فستراها بين يديك قبل أن
يرتد اليك طرفك

فاطرق الرجل ثم خرجت الأم ولم تك الا برهة حتى عادت
تصحبها البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناندا براققان
وخدها حمر . فلما رآها أبوها كذلك وجهه هنيهة احتقن أثناءها
الدم فى رأسه ثم سأها :

— إن جارنا يخطبك لاذنه . فماذا تقولين ؟

خفضت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :

— الأمر لك . وما كان لبنت أن تراجع أبها أو ترد عليه

قولا . .

ثم أشارت لأبنتها أن تخرج . فلما قاربت الباب نادى بها
أبوها مغضباً :

— لعلك مرتاحة لهذا الخبر . ألا فاعلمي أن الطلاق يلزمني
ثلاثاً إن أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها الفاجرة . قومي من وجهي .
أخرجاً . أخرجاً . واعلمي أنني رقيب عتيد
ورجع الرجل من حرمة إلينا وهو في هياجه . وسكت زمناً
ثم لك فيه غضبه ثم قال لاني :

— إسمع يا أخي . ما كنت لأعز عليك شيئاً وإن جل ، ولا
كنت لأمنع عنك ما طلبت . لكنك تعلم أنني حجرت ابنتي بسبب
ابنك الذي لا أسميه كيلاً أغضبك . ولقد حلقها اليوم بالطلاق
ثلاثاً أن لا أزوجه مني ولن أحنث في يميني . وما لك عندي من
الحب والاحترام لن يؤثر فيهما امرتافه كهذا . لكن بحق هذا
الحب الذي بيننا الا عقلت ابنك عما قد يس بيتي وما يقيم بيننا
ثاراً لا تمحوه يد الزمان . وفتيات بلدنا كثرات وبينهن من يفضلن
ابنتي . فما عليك الا تزويجه من احدهن وفي ذلك
لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتني حمى صحت معها :

— الا لعني الله إن لم أتزوجها ! وتعمس لك أيها الشيخ وللزمان !
وخرجت هائماً على وجهي قد تولاني اليأس فاضل صوابي وضيق
العيش أمامي وجعلني أرى كل مافي الحياة عدواً لي وخيلاً لي
لحظتُ أن لا بد لي من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتي
وانزعاجها من بين أهلها وانفرار وإياها لنقيم معاً دائماً وإلى الابد
وكانت ليلة قر ، لكن السماء كانت صفوا وكان البدر المتألق

يبعث في لجة الليل خيوطاً من فضة تنير دجاء بضياء رقيق مطمش .
لذلك خشيت بعد ما سكن هواء تلك الساعة روعى إن أنا هممت بتنفيذ
عزمي أول الليل أحس الناس بي وكان الفشل نصيبى . فعرجت الى المسجد
ومكثت فيه ردحاً من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع . وإنى لكذلك إذمر
بخطايرى ان مباغمة الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذى أنوى ربما
أدخل الجزع الى نفسها وجعلها تعترض ما أريد . لذلك رأيت أن
ألجأ الى العجوز المدبرة أستعين بها وأتدبر الأمر معها . وألقيتها
عند مجاز الدار مكتئبة بأسة . فسألتها عما أصابها وفاقحتها ما اعزمت
ومنيها كبار الأمانى . فما زادت جراباً على ذلك كله أن قالت :

— قضى الأمر يا مولاي . فقد أقفل بابهم فى وجهى فلا أستطيع
أن أدخله بعد اليوم

قلت : — واليوم . الآن . هل فى طاقتك الوصول اليها ولو
عن طريق الشياطين

فأطرقت طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت : لا سبيل . فامنتها
وخرجت قاصداً بيت محبوبتى لأتم فلتى ولو كلفنى ذلك من الثمن
ما كلفنى . فلما كنت أراء بيتنا بصرى أبى فنادانى اليه فأفقت
حين سمعت صوته وذهبت نحوه فجعل يطمئننى بكلمات رفاق وصحبى
حتى أمسى الليل وغلقت دونى الابواب . لكن ذلك لم يزدنى
إلا عزماً . فخرجت بعد هجمة الناس وتسلفت جدار جارنا ووقفت
ألى جانب الغرف أسمع . فلما أيقنت أن لا حسييس دلفت الى
غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب فاتبته الأم وفتحت . وإذا
تئينت وجهى فى ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة ، ثم أقبلت إلى

ثانية وأدخلتني الى الغرفة وأوصدتها وقالت بصوت تننقه العبرات:
 — بربك يا بنى ارحم عائلة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت
 بها الى حضيض العار . بربك يا بنى . بحق هاته النائمة المهذودة
 انهكها التعب . بحق أنا وبحق الجوار ! لا تحن عليها ! لا تقتل أباهما
 المسكين . ابنتى تحبك ، ولكن تقذ انقضاء . ارجع وأنت واجد
 من النسيان خير تعلقة وفي غيرها من تبدلها مرات ارجع يا بنى .
 أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتة صليداً منتظراً أن تفرغ من
 خرافتها كي أحتمل فريستى وأذهب بها . وفيما أنا فى انتظارها
 استيقظت الفتاة وحدقت بى . فلما تبينتنى على ضوء المصباح الضئيل
 انتقلت من مرقدتها وأقبلت إلى وتعلقت بعنق وجملت تبكى ثم قالت:
 — الوداع . . .

— كلا بل فلتذهبي معى الآن الى حيث أريد

فارتجفت الفتاة ثم تمتمت :

— رحماك حبيبي بأسمى وأبى ورحمة بى أنا الاخرى . الوداع
 الآن ولكننا سنلتقى فى المستقبل . بالله إلا مارجعت أدراجك وبحق
 هذه الزيارة لن يكون لغيرك فى قلبي مكان ماحييت .
 وأغلظت فى الايمان وألحت وبكت فأخذت عبراتها عزيزتى
 وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجى

بعد هذا الحادث باشر زوجها ابوها من احد اعيان القرى
 المجاورة . وكانت ليلة عرسها ليلة ما تم عندي . لزمت البيت وانفردت
 فى غرفة من الغرف وذرفت الدمع وترلانى القنوط . وفى الصباح

رأيتها خارجة من القرية في هودج وقد أحاط بها رجالها ورجال
العروس وساروا جميعاً وفي يد كل منهم نبوته ومع البعض طبنجات
سمعت طلقات منها تذهب في الهواء . فلما ابتعدوا رجعت الى
نفسى أفكر والحزن يفيض عني . واني لكذلك اذ جاء
أبي وصديق له . فلما رأيا ما أنا فيه من الهم أخذاً يرفهان عني وأكدي
أبي انه سيزوجني من فتاة متى عرفتها نسيت صاحبتي ونسيت ما كان
بيننا من ماض طويل سعيد .

وصدق أبي وعده . فعقد لي بعد أسابيع على ابنة عمدة أكبر البلاد
الحبيطة بقريتنا . وأقيم لي ولها عرس نادر المثل . فلما حضرت
زوجي عندي رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت
أن أنسى فيها نفسي وأجعل منها موضع حبي وأسدل على ما قبل يومها
عندي حجاباً كثيفاً يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لي فيه
سعادة وهناء . فما مضى انقضى وليس الى إحيائه أو استعادته
سبيل . وعملت لذلك باخلاص وجد ووجدت من زوجي نعم المعين .
وكان أكبر ما وجهت اليه عنايتي أن أخلق بيننا في وقت قصير ماضياً
طويلاً . فأكثرنا من التريض والأسفار وواصلنا ليلنا بنهارنا لنخلق
أكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء
واسعة الحيلة . سرعان ما فهمت مواضع الضعف مني فاستفادت من
فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفى وميلى وجعلتني أعتقد اني
سأجد فيها ما ينسيني كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمانت
هي فيها واطمان كثير من أهلى الى اندثار كل أثر لمحبوبتى الاولى
من نفسي وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبي . والحق انه اشتمل

ففسى هدوء صادق وذهب غنى ذلك اليأس القاتل الذي كان آخذاً
بتلايبي الى ما بعد زواجى وسكنت كلوم طالما استثارت مني صيحات
الحزن والألمى .

وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معا
الى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وأن موعد السفر أقبل جمع غفير
من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أنى محبوبتى
وزوجها . وبقي الناس فى هرج الوداع ومرجه أياما . فلما جاءت
ليلة البرزة خرج المسافرين ومعهما جمع غير قليل فنصبوا الخيام
خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . . ألا سقيا لك ياليلة بروز أبى
للحج . لقد جرت على مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها عاتق لككنك
توجهها جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج الى خيمة النساء محبوبتى . وفيما أنا اطوف
والناس فى زحمة العشاء لمحتها خارج الخيمة فوقفت مبهوتا أحلق
بها . ورأتنى هى الأخرى فبهتت . ثم اذا قوة قاهرة دفعت كلا منا
نحو صاحبه فتقاربنا حتى وضعت يدها فى يدى من غير أن ينبس
أينا ببنت شفة . فى هاته اللحظة الرهيبة الرغبة ، لحظة اللقيا بعد
طول الفراق ، فى هاته اللحظة الجميلة المهوبة خيم علينا الصمت
وتولانا الدهول . . . وبعد زمن خيل الى فيه أن وجودى تلاشى
فلم يبق لى من الحياة إلا هذه اليد الممسكة بيدي ممعت ملاكى تتسم
وكأنما خنقتها العبرة .

— هكذا تنسانا

لوان الارض انشقت والسماء هدت والجبال دكت لكان ذلك

أهون على وقفاً من هذه الكلمة . نعم نسيها أنا الشقي . فم عساي
أن أ كفر عن ذنبي وأى جواب أرد به عليها ؟ وبعد لائى قلت :
— غفرانك صاحبتى . لقد أحييت من نفسى لوعة لا بد لى
بعدها من الظفر بك أو الموت فى سبيلك . وموعدا غداً بعد
عودتى من السفر حيث كنا نلتقى فى رقابة العجوز
وتتار كنا ...

تتار كنا وقد نفر من كلومى ما كان سكن وجشأت نفسى
وجاشت وثار وجودى كله وصرت لا أعى شيئاً مما يدور حولى
ولا ابصر الا موعد الغد . وقضيت ليلة نابغة ملؤها الهم وقابلت
زوجى لبعض شأنى ، فما وقع نظرى عليها حتى رأيت الثعبان الذى
نقث سمه فى حياتى ودفعنى لارتكاب جريمتى !

ولم يتسع الوقت لأصب عيها جام غضبي فاخطففت من يدها ما
قدمت وأسرعت إلى الباب فتبعتنى تريد أن تعرف ما بى فزجرتها
بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابها منى :
— ارجعنى يالعينة أو أنت طالق !

رجعت . وسافرت أنا الى السويس وانزلت أبى الباخرة وعدت
قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن
يعلم أحد بعودتى . وقطعت الطريق بين المحطة وقرينتنا راجلا سالكا
اقرب الطرق رغم دعورتها ويممت موعدى فاذا حبيبتى تنتظرنى
فلما رأتنى بادرت بالسؤال

— كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما احب وتحب
— نعم يا صديقتى . ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟

كيف أنا ؟ .. آواه يا صاحبي لو تعلم . لقد قضيت أيامي منذ
تزوجت وأنا أقطع نفسي حشرات من أجلك ... ولكن ! ... مالك
أنت وهذا ... متعمك الله بزواجك ومد في أيام سعادتك ... والله أيام
انقضت في هذا المكان حين كان البدر يغمرنا في سابع ليلته وحين حدا بنا
الميل والعطف الى أسباب الهناء والنعيم . أتذكر يا صاح تلك الايام ؟
أتذكر عهودنا ومواثيقنا ؟ أتذكر مجيء العجوز تنبهنا الى الوقت
وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود ؟ أتذكر مجيئك الى أبي تخطبني ؟
وهل تذكر تسنمك دارنا وتعرضك نفسك واياي للخطر ؟ ثم هل تذكر
آخر وعدي إياك ان لن يكون لغيرك في قلبي مكان ما حييت ؟ أقسم
بهذه اللقيا على غير انتظار ! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعاراً !
أقسم بحياتك أنت ما خنت في الوعد ولن أستطيع أن أحنث فيه ..
لكن .. كل شيء يا صاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمي
أنا الأخرى غفور رحيم

.. وأنهدت يهزها البكاء . أما أنا فقد صغرت امام نفسي ، وتضاءل في
عيني قدرى ، ورأيتني مجرماً بالأسف شقيماً . هذه السيدة أمامي تبلغ
من علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادى أنا أن أسدل على ما تذكره
الساعة حجاباً كثيفاً ! .. وأنسى موثيقى وعهودى وأنسى قلبي وروحي
وأنسى كل ما فى الحياة من جميل وعظيم وأرضى ذلك العيش السخيف
الذى ألبسونى : كلا : كلا : لا بد من استعادة هذا الماضي ولوضحيته
بالحياة فى هذا السبيل

وصح ذلك العزم عندي فهدأت جأش صاحبتى وقلت لها :
 — ما نسيانا لعهد سلف ولا فتورا في حب يملأ وجودى حصل
 ما تقولين . لكنى خشيت ان انقص عليك عيشا ربما وجدت فيه
 الطمانينة . والآن افتعديتنى ان انا طلقتك من زوجك أن تسكونى
 لى زوجا ؟

فالت وما تزال العبرة مخنقة وعيناها مغرورقتان بالدمع :
 — وهل رأيتنى يا صديقتى رجوت فى الحياة خير هذا ؟
 وقضينا ما بقى من الليل فى حديث طويل تخللته الذكرى والعتاب
 والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هى الى الخدع الذى
 اعد لها وقت أنا الى المسجد نلت فيه اغفاءة ما كان أحوجنى اليها
 بعد ليلتين مملوءتين بأقوى الأحاساس واقساها . وبعد سفر يوم طويل .
 فلما خلوت الى نفسى ساعة الضجى أخذت افكر فى الوسيلة لتنفيذ
 ما اعترمت

عملت جهدى ، وافنيت كل وسائل السلم لاقناع زوجها بتسريحها .
 فكنت كلما ازددت أصرارا ازداد هو ضنا بها وامسا كاعليها . ثم
 أصبح الامر بيننا عنادا وصار هو يرى عملى هذا جريمة انقص بها
 عيشه وأفسد عليه حياته واجنى بها على الفضيلة والمروعة . وشاركه
 رأيه كثيرون بلغ من حنق بعضهم على ان خاطبنى مواجهة بان ما أجتريه
 أكبر الكبائر

لم يكن ذلك ليغير من رأيى ولا ليرجعنى عن عزمى . بل جاءت
 محبوبتى الى بيت أهلها بإشارة منى وتبدلت وسائل السلم مع زوجها
 وسائل وعيد وتهديد . ولقد ساورتى يوما نفسى ان أدس عليه من

يجيء على أيامه، وكنت مقدما على هذا لولا ان وقفت هي دونه مخافة ما فيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد

وأنا لفي شغل بتدبير أمرنا اذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التي تقل أبويننا عائدة من الحجاز فانقلب الفرح مآتما وارتدت النساء ثياب الحداد وأصابنا الفاجعة موضع الألم من نقسى ونفس صاحبتى وصارت تجمعنى وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المتبادل

وانتهى الماتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدى لزوج صاحبتى وذهبت افكر فى وسيلة أخرى لبلوغ غرضى ، واتميت الى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بأنه طلقها . وكم تهملت هي حين عرضت عليها هذا رأى من غير أن تفكر فيما تحتاج اليه مثل هذه الدعوى من الجهود لتكون نتيجتها على ما تريد

على ان هذه الجهود لم تكن شيئاً أمامى . ودعى الزوج للمحكمة الشرعية كي يسمع حكاها بأنه طلق زوجته . واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استندت منى من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال انسان . فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به ولا كاتباً فى المحكمة إلا رشوته ولا قاضياً إلا وصلت اليه . ولقد كاد الملل من هذه الجهود يصل بى إلى اليأس مرات . فلکم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى ما وصله غير كاف وأراد المزيد . ولكم طلب منى باسم حضرة القاضى فلم أجد حيلة الى رد طلبه . وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ما ثبت على لسان بعض الشهود . . . ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعنى للوصول منتصراً هان على أن أترك كل شىء

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق فطرت فرحا وحملت الخبر الى صاحبتى وعانقتهما عنقا طويلا . ولبثنا يومين ثم لمين بلدة النصر في هذه المعركة الطويلة مهملين للمستقبل الذى يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الايام دس الى نفوسنا ما شغل بالنا . ذلك ان المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق ، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلا عند الله ؟!

هنالك ذهبت الى زوجها وعرضت عليه جلية الامر : وقلت له :
— يا شيخ ! لقد أرهقناك من أمرك عسرا . لكنك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزرا . وأنت تعلم أنا لم يدفعنا الى ما عملنا الوقعة بك أو المساس بشرفك . وإنما دفعنا اليه مالا قبل لنا بدفعه . فهل لك فى مشورة من الله فتنتطق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضميرنا ؟

فاطرق الرجل طويلا يفكر ثم قال :
— لقد والله حملتاني هما طويلا . أما وقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما . وهى طالق . طالق . طالق ...
فشكرت له منته ورجعت الى أهلى وبلغت صاحبتى الخبر ثم ناديت زوجي وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون وقلت :
— وإني لا أخشى بعد زواجى الا أعدل بينكما ، فان شئت راضية سرحتك سرا حميلا

وانقضت أشهر وتزوجنا . وكان يوم زواجنا حافلا جاء فيه الذين كانوا يعيبون عملي يهنئونني وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق ورزقت من زوجتى ابناء ثلاثة . بنتا وولدين . وهؤلاء الابناء هم عندى زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذى

أنقذه أبوه السعيد بهم . افتعجب بعد ذلك لما رأيت من ذهولي
حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟

الى هنا انتهت قصة صاحبي . وهي قصة القت للهوى بزمام
الحكم حتى في دور القضاء . وقد غادرت صاحبي بعدها فغادرت
رجلا من السعداء القليلين الذين رأيت في حياتي . غادرته وأنا أغبطه
على مامتعه الله به من نعمة سابغة وهناء مقيم ...

الشيخ حسن

انقطع الشيخ حسن عن معايشة أهل بلده . وبعد أن كان لا يفوته أداء الفرض جماعة في مسجد القرية الساكنة المطمئنة كان الناس لا يرونه بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . وارتسمت على جبينه الذي كان نقياً إلا من آثار الورع والتقى تجاعيد الهم والآلم . أما نظراته التي كانت مملوءة بالآيمان وتتم عن راحة الضمير وسكينة القلب فقد انقلبت نظرات مضطربة تنعكس من خلالها هواجس تعماسة قلق لا تدري أياها تستقر ، وغارت عيناه وغاض لونه وبدا عليه نحول عصبي نكره لنفسه ولكل من عرفه . مع ذلك كانت حركاته أكثر بطأً وكأنما أمسك الهم الذي أثقله بكل عصب من أعصابه ، أو كأنما شل القلق الذي تولاه سلطان إرادته حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل

طراً هذا الانقلاب على نفس الشيخ حسن في أوليات الشتاء . وطراً عليه بعد أن كان مثال التقى والحكمة وبعد أن كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى ولي من أولياء الله الصالحين . ذلك أنه قضى حياته بين أهل القرية مضرب المثل في كمال الخلق وصدق الآيمان وسمو النفس . وكان من أهل العلم الذين يعملون بالعلم ولا يتخذونه متجراً . فكان يعظم بعد كل صلاة

ويعلمهم ويفقههم في دينهم . وكان سمح النفس سريعاً إلى
المواساة يشارك الناس سرأهم وضراءهم ويفيض عليهم من
إيمانه بلسماً لجراحات آلامهم وأحزانهم . وكان نساء القرية يجدن
في سلطانه على أزواجهن ما يحمين من عسف هؤلاء الأزواج
وما يقف حائلاً دون التلاعب بأيمان الطلاق . وكان خاصة أهل
القرية وعامتهم في احترامه وتبجيله سواء . بل لقد كان كثيرون
من أكابر اقرى وأعيان البلاد المجاورة يرون زيارته فرضا
عليهم كما زاروا واحداً من أعيان أهل بلده . وكذلك كانت
حياته وكان عيشه مرضيين عنده راضيين عند الله والناس .

وقد ظل متمتعاً بطمأنينة الايمان منذ نشأته فلم يثقله من
الهم إلا ما كان منذ سنوات ست حين ماتت زوجته تاركة
وحيدتها فاطمة في العاشرة من عمرها . فقد كان يوم موت هذه
الشابة الجميلة المحبة المحبوبة أشد الناس فجيعة وأهولهم جزعاً .
جمدت الدموع في عينه ودب المشيب الى فوديه وتجاوبت في
قلبه كل أصداء الحزن والألم . ويومئذ سارع الناس من أهل
بلده ومن كل البلاد المجاورة الى تعزيتة • ويسير على قلب يملؤه
الايمان ان يتعزى . فهو على شدة جزعه لوقع المصاب لم يلبث
أن ذكر ان لله في كل أمر حكمة، وأن تلا قوله تعالى « وعسى
أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . عند ذلك قشعت حرارة الايمان
سحب الهم وحمد الشيخ ربه اذا سبغ عليه نعمة التقى واستبقى له
فاطمة كي يسبغ على هذه الطفلة الجميلة كل ما في نفسه من حنان
وعطف وحب أبوى

وبعد انقضاء المأتم بقيت في الدار وإياه أخت له تحبه وتبجله.
فلما انقضى الاسبوع الأول فآتته في أمر زواجه من جديد
وكانت على ثقة من أنها لن تحتاج إلى أي مجهود لاقتناؤه
بضرورة الاسراع إلى القيام بواجب يفرضه عليه مركزه ومقامه
بين الناس ويدعوه إليه قلبه المشوق لاشك إلى ابن له يخلفه
ويخلده. ثم إن النساء جميعاً مؤمنات بأن ليس بين الرجال من يطبق
عليهن صبرا أو يستطيع عنهن بعداً. لذلك كانت دهشة أخت الشيخ
عظيمة حين بدا منه التردد والاحجام. وكانت بعد ذلك أشد
دهشة حين رآته التزم عيش العزوبة قانعاً بهذه البنت التي أبقاها الله
له. لكن حبها إياها وتبجيلها إياه منع عليها الامعان في الاحراج
بعد أن أمرها بالكف عن الكلام في أمر زواجه وجعلها تدرك
ضرورة بقائها للقيام معه بشؤون داره وعلى تربية فتاته.

وكانت فاطمة طفلة اجتمع لها تيه الوحيدة ودل الجميلة. وبرغم
صغر سنها حين ماتت أمها بدت عليها رقعة الأنوثة ودمائها مع شيء
من الانفة في غير كبرياء. ولم يبعث بها أبوها للمدرسة ولا للكتاب
أن كان يعتقد أن المرأة إنما خلقت ربة للدار، وأن حكم الدار
حكماً صالحاً في غير حاجة إلى درس شيء غير ما تتوارثه أجيال
النساء خلفاً عن سلف، كما أن القراءة والكتابة وما يتبعهما من
معارف كثيراً ما تجني على الخلق وعلى الفضيلة التي يجب أن تكون
زينة المرأة وحليتها. على أن كثرة معاشرته البنت لأبها وسماعها
ما يفيض من علمه في حديثه العادي فتقا ذكائها لكثير مما لا
يجود به الحظ على غيرها من بنات أعيان الأرياء والناس الطيبين

فيها ، فكانت تعرف شيئاً عن المدن وعن المشايخ من أهل العلم الذين يقيمون بها ومن الذوات الذين يزورون هؤلاء المشايخ ويؤدون لهم فرائض الاجلال والاحترام بسبب علمهم وورعهم مما لا يفتأ الشيخ حسن يقصه عليهما ليشعرها بآله ولها من سمو المسكنة ورفيع القدر ، وليدخل بذلك الى نفسها معاني الالباء والكرامة فتشرف اخلاقها وتعظم نفسها .

وتتابع الا شهر والسنون وكل سنة تمر تزيد فاطمة جمالا وتزيد أباهما تعلقاً بها . وكانت الفتاة محبة لجمالها شغوفة به أي شغف . لذلك جعلت من مرآة خلفها امها خير صديق لها . فكانت لا تمل التحديق فيها بصفحة هذا الجبين النقي المصقول فوق حواجب نونية واسعة قوست على عيون دجاء مملوء بريقهما الندي حياة واحلاماً ، وبأنف رقيق يستوى والجبين حين انحداره منه ثم يرتفع قليلا ليرتد عن وجارى منخرين اتسعا لشميم كل ما في الحياة مما يحملهما اليه الحسن والهوى ، وليفصل بين خدين متمئين في استدارة جميلة تعلوهما حمرة تنطق بما في الشباب من صحة ورغبة ، ثم تذوب في سمررة قحجية جذابة . وكان أشد إعجاب فاطمة بهذا انهم الذي تراه في المرأة كأنه وردة لم تبرز من أكامها الخضر إلا بتقدير ما تنبعث القبله من بين هذه الشفاه فتبتسم له مسرورة به راضية عنه فتتم ابتسامتها عن أسنان فلج ناصعة البياض وعن ثغر تجرى مع سلافة ريقه كل ما توحى به سنى فاطمة من أحلام وآمال ورغبات على هذه الصورة كانت فاطمة ترى وجه صاحبها المطل من خلال المرأة المحبوبة فتزداد به شغفاً وإعجاباً . أما قوامها فكان

لقدنا غضباً كأنه قوام ناعمة نؤوم الضحى . ارتفع ثوبها فوق صدر
ناهد في غير اغراق وأخذ بتلابيب خصر ريان في غير بطنة . وكانت
ساقها وقدمها كمال هذا الجمال الشاب المتطلع للحياة بنظرات الأمل
الجاهل كل ما في الحياة من غدر ومن ألم .

وكان أبوها ضنيناً بها على الحياة ورغائبها والشباب وأحلامه . فقل
أن كان يسمح لها بمغادرة الدار الا تحت جناح الظلام وفي ستر الليل .
لكنه كان يعلم من أخلاق أخته وجدتها ما جعله يتسامح في ذهاب
فاطمة من طريق سطوح الدار إلى منزل أعمام لها واخوالها كابر
أهل البلد والتأمنون فيها بالعمدية والمأذونية . وكان يسره أحياناً
أن يعرف منها أسرار أقاربه ودخائلهم مما قد لا يتاح له الوقوف عليه
وهو في عزوبته وفي تقاه

وكان لها ببعض أقاربها في البيت الكبير صداقة نشأت منذ
الصغر . وخشى أبوها عواقب هذه الصداقة فأسر إلى اخته أن تحرم
عليها ملاقة أحد من الشبان . وكأن ما كان من فرط حذر عمه فاطمة
قد نبه فيها لأول ما كملت لها حياة المرأة معاني نسوية ما كانت لتتنبه
بهذه السرعة . وثار وجود الفتاة ثورة لم يفكر عقلها في كبجها إذ
كانت ثورة الجمال المهان . فكانت لا تباي تحيات أ كابر أقاربها ممن
سمح لها بالجلوس اليهم والتحدث معهم كما كانت لا ترضى بابتسامة عذبة
على ذوى الود منهم . وسحر بجمالها غير واحد كان يجد فيه قدس
إعجاب وعبادة . وكانت ثورة الفتاة تزداد كلما ازداد أولئك المسحورون
تمليقاً لها وتديلاً . ولكل ثورة نفسية لا تجد من سلطان العقل ما
يكبح جماحها انفجار لا وسيلة لمقاومته الا اذا استطعت مقاومة

انفجار المرجل الثائر جوفه ببخار ماتقتأ النار تزيده ثوراناً . لذلك
لم تطل مقاومتها ابن عم لا يها له مالا بن عمه من مظاهر التقى وللناس
به من الثقة ان كانوا يأمنونه على أموالهم واعراضهم
ومرت أسابيع بدا على صحة الفتاة فيها من التغير ما أدخل
الريبة إلى نفس الشيخ حسن فحاول بادىء الامر ان يقنع نفسه بأن ما
بابنته من علة لاصلة له بعفافها . لكن للنساء فى القرى السنأ طوالا .
وما هى إلا أيام حتى كان هذا الحديث موضع همس أهل القرية
رجالا ونساء . والهمس اذا عم صار حسيساً ، وصار له صوت
وكيان . وأحس الأب البائس هذا الصوت بل رآه رأى العين فى
نظرات كانت توجه له وفى بعضها من الاشفاق عليه وعلى ورعه وتقاه
ما هو أشد قسوة من نظرات الحقد والكراهية . لذلك انقطع عن
معاشرة الناس وعن الذهاب الى المسجد وارتسمت على جبينه تجاعيد الهم
والآلم واضطربت نظراته وغارت عيناه وغاض لونه وضعفت حركته
فكأنما شل الهم أعصابه وأخذ سلطان حركته حتى قعد به عن أن
يريد أو أن يعمل

وكان أول مقام بنفس الشيخ حسن ، حين هزم اليقين منها كل
هو اجس الشك فرسم أمامه صورة ابنته عارية وأراه رأى العين كل
عرق منها وكل نسيج من أنسجة بشرتها القمحية المتوردة تجرى
فيه لذا ئد الأثم والعار ، أن يذهب اليها ويقتحم الباب عليها ويقتلها
ويدفن معها عارها واثمها . ولم يك ذلك منه عن روية أو عن تفكير .
بل أن سلطان الوسط وفطرة الجماعة التى يعيش بينها فطرة تكونت
على الزمان من عقائد وعادات ثوارتها أجيال بعد أجيال هما

الذنان دفعاه إلى ما أراد القيام به . لذلك لم يكن بحاجة إلى وقت يتدبر فيه أمره أو يقدر فيه نتائج فعلته . بل غلا الدم في عروقه وثار ثائر نفسه وملكته فطرة القضاء على هذه الأثيمة المجرمة وتم ذلك كله في أقل من لمح البصر . وهم يريد التنفيذ . لكنه لم يلبث أن بلغ باب غرفته حتى أمسكت به قوة عاقت حركته . تلك عاطفة الأبوة التي جاش بها قلبه وهزت أعماق وجوده . أتراها يقتل ابنته الوحيدة التي كرس لها حياته ووقف على سعادتها وجوده ؟ ابنته الوحيدة الباقية ذكر الزوجية المحبوبة ولأيام سعادته وهنائها ؟ ولو قتلها فهل تراه يظهر من أئمتها ومن عارها ؟ وهل ترى الناس ينقطعون عن أن يوجهوا إليه نظرات الاشفاق القاتل والحقد البغيض ؟

وقف عند الباب برهة لجلجت فيها عاطفة الأبوة فطرة الجماعة ثم عاد إلى مخدعه وارتقى إلى جانب وسادة كان يتخذها متكا بعد عوده من الصلاة وحين تسبيحه وانحط مهدود القوى عاجزاً عن التفكير وعن الإرادة لا يرى شيئاً مما أمامه ولا يدرك الوقت وممره ولا الاشباح التي تبدو من خلال نافذته . وظل في ذهوله حتى بدأت الشمس تندرك إلى غيب الغروب . ثم دخلت عليه أخته تسأله إن كان لا يريد أن يذهب إلى المسجد لصلاة فرضي المغرب والعشاء ، وكانما أزعجه صوتهما من حله الأليم فما يدرى أيهما أشد لنفسه وخزا : أهذا الحلم المبهم الذي أنهكه والذي نسي فيه الحياة ونسى الألم ، أم هذا الصوت الذي نبهه إلى الحياة وآلامها وأعاد إلى نفسه ذكر أخته وذكر ابنته وذكر عاره الذي لا يمحي ؟ !

وارتدى الشيخ جبته ولبس عباءته وعمامته ومركوبه وخرج

قاصداً المسجد . لكنه ما لبث أن اقترب منه حتى شعر كأن شيئاً
يصد عنه . فقد خيل إليه أنه إذا تخطى بابه فسيحججه من فيه جميعاً
بنظرات الاشفاق والازدراء أو الحقد ، وستبدو هذه المعاني في حدق
تلك العيون المتجهه نحوه واضحة ناطقة تحترم نياط قلبه وتنفذ الى
أعماق نفسه . فكرر راجعاً كأنما يريد العود لداره . لكنه عرج بدافع
من وجدانه لا شعور له به ولا حكم له عليه عند أول منعطف يسير
به بين المزارع . وهل في الدار الا الأثم والعار ؟ وهل الدار أقل
إيلاًماً له من نظرات المصلين ؟ وساقته قدماه إلى شاطئ غدير قامت
حوله أشجار كسا المغيب أوراقها الخضرتوباً قتما لا يخلو من بهجة ،
قانعطف والشاطئ حتى بلغ مصلى بعيداً عن السكة العامرة بالناس
والدواب . وهناك ألقى بنفسه فوق الحلفاء المفروشة بها أرض
المصلى وعاد إلى مثل ما كان فيه في الدار من ذهول

وظل في ذهوله حتى إذا انترب موعد صلاة العشاء تنبه إلى فرض
ربه . ومثله ليس في ملك نفسه بل هو في ملك دينه وإيمانه . وهل
أصابه إلا ما كتب الله له . وهل كان ما حل به الا من عند
الله ولله الشكر والحمد على السراء والضراء ؟ فقام فتوضأ وصلى
المغرب ثم صلى العشاء ، ثم رفع أ كف الضراعة الى الله أن يهديه
سواء السبيل .

عاد الرجل الى داره بعد ذلك يحميه ستار الظلام من أعين الناس
ونظراتهم وان لم يحمه من هجمات جيوش الهموم والآلام . وذهب
الى غرفته وحاول أن ينام . لكن الهم والنوم لا يلتقيان في نفس قبل
أن يذيقها الهم ويضئها الألم . فبات يتقلب في مضجعه الى ما قبيل

الفجر إذ أسعدته سنة ساورته أثناءها فظائع الأحلام . لكنها كانت مع ذلك مسعدة أن جددت له بعض قواه ومكنته من القيام بعدها مبكراً ليؤدي لله فرض الصبح ويستغفر من عظيم ذنبه

وتعاقبت الأيام بعد ذلك والرجل يزداد كل يوم نحولا وأعصابه تزداد ضعفاً . وقل أن كان يفكر بل كانت نفسه ميدانا لحرب مرعبة قائمة بين فطرة الجماعة وعاطفة الأبوة . فطرة الجماعة تناديه الأسبيل للخلاص من العار الا بالخلاص من ابنته ، وعاطفة الأبوة تحول دون ارتفاعه ليظهر بالدم المراق دنس العار ورجسه

وفي الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها كانت عاطفة الأبوة تتغلب عنده على فطرة الجماعة ، وكانت تعاوده هزات حنان واشفاق على نفسه ، وكان لا يرى جرماً في التحدث الى بارئه يسأله ماذا جنى لتحل به نعمة الله ولتفجعه فيما هو أعز من السعادة ومن الحياة ومن الشرف ؟ في عرض ابنته الوحيدة التي كان يرجوها ملاك طهر وعفاف فأبى القدر القاسي الا أن تكون شيطان رجس وفسوق

وجعل المسكين يفتش في ماضي حياته عما اجترح من أثم ومعصية . فيحال أن يقضى عليه أعدل الحاكمين بغيا بتلك النكبة النكراء . ولم يززع من إيمانه أن كان يرى ماضيه طاهراً تقياً ، بل كان أكبر ظنه أن نفسه الأمانة بالسوء دفعته يوماً الى كبيرة لم يظن لها أن زين له الشيطان سوء عمله وجعله يراه خيراً . ولم يدر بخلده لحظة أن ربح القدر الطحون تدور فتختطف الأطفال الأبرياء من أحضان أمهاتهم وماجنوا إثمًا ، وترمل نساء من أزواج كانوا ملائكة حب ورحمة ، وتيتم أبناء من آباء وأمهات كانوا مصدر بر وعطف وحنان

لا يفنى . وهى فى دورتها وفى طحنها هذه الذرات الانسانية التافهة
فى حياة الوجود العظيم ليست أكثر بها عناية منها بحجر أو بنبات
أو بحشرة كالملة أو كالدودة شأننا . وكيف يدور ذلك بخلمه وهو
يقيس عدالة السماء التى يؤمن بها بعدالة الأرض التى يعيش عليها ويتوهم
أن عدالة السماء تخضع لما تخضع له عدالة الأرض من عقائد وعادات
ومن أوهام وترهات ومن أباطيل وخرافات

على أن هذه الأوقات القليلة التى كان يفكر فيها والتى كانت
تغلب عاطفة الأبوة على فطرة الجماعة فى نفسه لم توجه فكرته لحظة
نحو ابنته وما قد يكون لها من عذر فى اتيان ما أتت . بل صارت
أبوة وصار اشفاقه سببا فى عطفه على نفسه ورثائه لحاله . فاذا تخيل
فاطمة أرستمت أمامه صورتها ساعة ثورة معانى الخصب والتخليد
فى جسمها الشاب البديع . هنالك يفيض تفكيره وتتوارى عاطفته
وتلبسه عقائد الجماعة فتتملا وجوده وتتحكم فيه وتجعل منه شخصا مفترسا
يريد أن ينقض على هذا الاثم الذى خرجت به ابنته على شرائع
الجماعة ونظمها والذى يوشك أن يثمر نغلا لا تعرف الجمعية له أبأولا
تطبق عليه قوانين الحضارة والنفقة والميراث ، ثم يزيد فى حيوانيته
وفى افتراسه هذه المئات بل الألوف من الاعين التى امتلأ بها الفضاء
حوله والتى تنظر اليه نظرها إلى أب فاجرة لطمت وجهه الطهر والكرامة
واحملت الشهوات الدنيئة منها محل العفاف والشرف

مرت الأيام والأسابيع والشيخ يزداد نحولا وأعضابه ضعفاً
وفسكرة ذهولا وقد جالت بنفسه مرات فكرة الانتحار فراراً من
هذا العار الذى لحقه، ولكى لا يقتل ابنته فيأثم فى حق بارئه بان

يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق . لكن هذه الفكرة انهزمت
كما انهزم غيرها من الافكار . وكان الرجل كلما زاده الهم نحو لا صار
أضعف تفكيراً وأكثر خضوعاً لفطرة الجماعة وتمثلاً بإياها في خلایا
ذهنه وفي شعاب قلبه وفي ثنايا نفسه ودخائل فؤاده . عند ذلك بدأت
هذه الارادة التي شلها التردد بين الفطرة والعاطفة تتحرك بدافع
الاتفعال وحده كما تتحرك ارادة السبع والتمر وكل حيوان مفترس ،
وبدأت شهوات الرجل تتنبه للطعام ولشرب تقوى فيها هذه
الحيوانية التي أخضعت كل قوى الانسان وحسه وشعوره ، وتحكمت
فيه فكرة ثابتة كان يؤمن بها ولها يخضع ، تلك أن لا سبيل لمحو
العار الا بمحو مصدره . وخلقت هذه الفكرة الثابتة لنفسها منطقاً
وسلحت الرجل بكل وسائل تنفيذها . فهذه البنت الفاجرة لا يمكن
أن تكون ابنته وهو التقى الورع القوى الايمان بالله البعيد عن
مواتاة الرذيلة والنقص . ومن يدري فلعل أمها خاتته في غفلة منه
فكانت الاثيمة الفاجرة ثمرة الخيانة والاثم . بل لا شك عنده في
هذه الخيانة التي أورثتها الأم لابنتها ، فما كان الله ليقتص منها
فتموت شابة في قوتها وفي نضرتها لولا أن ارتكبت معه معصية في
حق الله . لكن البنت تنسب اليه وقد أسبغ عليها من نعمة العيش
ما كفرت به حين اسلمت نفسها لهذا الاثم فكان من كفرها ما جعل
الناس ينظرون اليه هذه النظرات القاتلة

وهب البنت ابنته وأمها كانت طاهرة نقية فذلك يزيد في جريمة
فاطمة ولا يخفف منها . هي زانية فنصيبها القتل جزاء وفاقا . واذا
كانت القرانين التي سنّها الناس غير شرع الله تبيح لهم التمرغ في حمأة

الشهوات وهم من القصاص بمنجاة فما كان لمؤمن بالله وشريعته
أن يدع الآثام التي حرم الله تركها وهو عنها لاه ولها مطمئن .
أو لم يقل الرسول عليه السلام : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،
فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان !
وهذه البنت قد أصبحت منكراً يراه الشيخ تحت سقفه ويحسه في
أعماق نفسه فوجب أن يزيله بيده ويومئذ يكون قد أدى لله
وللفضيلة وللأبوة حقاً مقدساً ، ويومئذ ينظر إلى هؤلاء الناس الذين
يزدرونه اليوم فيرد إليهم ازدراءهم ثم هم يكونون بورعه وتقواه
أشد إيماناً

وشجنت فكرته الثابتة عزمه فلم يبق إلا أن ينفذه فيزيل هذا
المنكر ويرضى بذلك إيمانه الثابت ويرضى فطرة الجماعة التي تحكمت
فيه ، وسيان لديه بعد ذلك ما يكون حكم شرائع الناس عليه . ولم
يرض خياله المفترس إلا أن يذبح ابنته ذبحاً ويشوه وجه البغي تشويهاً
ويقطع أوصالها أرباً أرباً فلا يبقى بعد ذلك عالقا بنفسه من إثمها ولا
من عارها باقية . وانتظر الشيخ حتى إذا كان يوم السوق ذهب بنفسه
إلى أحد باعة السكاكين فابتاع سكيناً مرهف الحدة لامع النصل متين
القبضة وحمله إلى داره وجلس بقية يومه ينظر إليه ويصور لنفسه
الدم يقطر منه فيبسم لهذه الصورة وتبرق عيناه بريفاً شديداً ثم
يعتريه شيء كأنه المس أو الذهول ، فإذا عاد إلى نفسه استعاد . نظر
الجريمة التي قدر عليه أن يرتكب ، كما قدر على ابنته من قبيل أن تخضع
لسلطان الهوى ، فاغتبط بأثمه اغتباطها يوم سقطتها بأثمها وشعر بلذة

تَمَلُّاً حَوَاسِهِ حَتَّى لَكَانَ مِنْظَرُ الدَّمِ وَرَائِحَتُهُ وَطَعْمُهُ وَصَوْتُ تَفْجَرِ
الْقَلْبِ بِهِ كَانَ يَمَلُّاً عَيْنُهُ وَأَتَقَهُ وَفِيهِ وَأُذْنُهُ بِمَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ
سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ

وَأَرْخَى اللَّيْلَ سِدْوَلَهُ وَسَكَنَ كُلَّ مَنْ فِي الْقَرْيَةِ إِلَى أَهْلِهِ وَذَهَبَتْ
فَاطِمَةُ إِلَى مَضْجَعِهَا وَبِهَا مِنْ عِلَّةِ الْحَمْلِ وَسَقَمِ الْهَمِّ لَمَّا كَانَتْ تَسْمَعُ
مِنْ عَمَّتِهَا مِنْ تَقْرِيعٍ وَتَأْنِيبٍ مَا ذَهَبَ بِحُمْرَةِ خَدَّيْهَا وَإِنْ لَمْ يَذْهَبْ
بِحِمَايَاهَا وَلَا بِابْتِسَامَةِ خَالِدَةَ بَدِيعَةٍ كَانَتْ تَطُوقُ ثَغْرَهَا الْعَذْبَ السَّاحِرَ .
وَفِيمَا هِيَ تَحْتَمِي بِالنُّومِ مِنْ عِلَّتِهَا وَهَمَّهَا قَامَ أَبُوهَا مِنْ غُرْفَتِهِ وَبِيَدِهِ
ذَلِكَ النَّصْلُ الْمَرْهَفُ وَسَارَ إِلَى مَضْجَعِهَا بِخُطْوَةٍ ثَابِتَةٍ حَتَّى إِذَا كَانَ
عِنْدَهَا وَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهَا شَعَرَ أَنَّ قَلْبَهُ يَرِيدُ أَنْ يَضْطَرِبَ بِنَبْأَةٍ مِنْ
حُزَنِانٍ فَرَفَعَ يَدَهُ لَمْ يَخْلُ رَغْمَ ثَبَاتِ جَنَانِهِ مِنْ بَعْضِ الرَّعْشَةِ ثُمَّ أَغْمَدَ
النَّصْلَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ فِي قَلْبِ الْفَتَاةِ الَّتِي فَتَحَتْ عَيْنَهَا تَحْتَ أَثَرِ الطَّعْنَةِ فَرَأَتْ
أَبَاهَا تَلْمَعُ عَيْنَاهُ بِالْشَّرِّ وَيَرْتَجِفُ جَسَدُهُ وَتَتَمَتَّعُ شَفَاهُ فِي صَوْتِ خَفِيِّ
وَلَكِنْ بِحَرَارَةِ وَقُوَّةٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى قَضَائِهِ !

وَأَرَادَتْ أَنْ تَتَنَصَّلَ أَوْ تَدَافِعَ عَنْ نَفْسِهَا . لَكِنَّهُ وَضَعَ يَدَهُ
الْيَسْرَى عَلَى فَمِهَا وَاسْتَلَّ النَّصْلَ مِنَ الْقَلْبِ فَأُتْفِجَرَ الدَّمُ حَاراً قَوِيّاً كُلَّهُ
الشَّبَابَ وَالْحَيَاةَ وَأَحْسَ الرَّجُلَ رَشَاشاً مِنْهُ يَصِيبُ وَجْهَهُ وَيَدَهُ فَزَادَهُ
اِقْدَاماً وَافْتِرَاساً . وَبَيَّدَ ثَابِتَةَ ذَهَبَتْ عَنْهَا كُلُّ رَعْشَةٍ وَزَايِلِهَا كُلُّ
خَوْفٍ حَزَّ الرَّجُلَ عُنُقَ الْمُسْكِينَةِ الَّتِي جَاوَلَتْ أَنْ تَتَخَلَّصَ بِكُلِّ مَا فِيهَا
مِنْ قُوَّةِ الْيَأْسِ . لَكِنْ أَبَاهَا كَانَ أَشَدَّ مِنْهَا يَأْساً . وَبَعْدَ مَا انْفَصَلَ
الرَّأْسُ عَنِ الْجِسْمِ لَدَى هَذَا الْمَخْلُوقِ الْمَفْتَرَسِ أَنْ يَشُوهُ ذَلِكَ الرَّأْسُ
وَذَلِكَ الْجِسْمُ وَمَا يَزَالُ دَمُهُمَا حَارّاً تَتَفْجَرُ بِهِ شَرَايِبُنِ تِلْكَ الضَّحِيَّةِ الَّتِي

أرداها الجمال والهوى . .

وخرج الرجل بعد جريته مؤمناً بأنه ادى فرضاً واجباً عليه أداؤه .
لذلك ظل هادئ النفس مطمئناً . فلما سئل امام القضاء لم يتردد في
الاعتراف بأنه قتل . ونال من اشفاق القضاء عليه بعد الوقوف على
أمره أن اعفاه وبرأه

ولم يطل به المقام بعد ذلك في قريته . فقد بدأ بعد أشهر من
عودته تنتابه أطوار غريبة . كان ينقطع الى خلوة في بعض المزارع
البعيدة أحياناً ، ثم يعود الى معاشره الناس أخرى ، فيراه الناس ذاهلاً
طوراً ، هائماتارة ، وقد ازداد أكثرهم أيماناً بورعه وبتقواه بعد الذي
رأوا عليه من هذه الاعراض وآمنوا به ولياً صالحاً . لكن مدة
ولايته لم تطل بعدما اقترن هياجه بالاعتداء على الناس . فقد نقل الى
مستشفى المجاذيب وهو ما يزال الى اليوم فيه . وانك لترثي لحاله حين
تراه في ساعة سكونه ، يذرف الدمع سخينا على ابنته التي قتل وزوجته
التي اتهم ويضرع الى الله أن يبعث الى قلب رجل من الحنان عليه
والبر به فيورده حقيقته ويضع حداً لآلامه . .

خاتمة في الادب والحضارة

كنت شغوفا بقراءة الأدب العربي القديم وما أزال . ويرجع هذا الشغف الى أيام كنت طالبا بالقسم الثانوى وحين كنت اتلقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية . وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب وحفظت عن ظهر قلب ما حجب الى نفسي مدخله . فلما كنت في السنة الاخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثراً بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها اقرأ كتباً في الادب الانكليزي وفي الفلسفة الانكليزية ككتاب الابطال لكارليل والحرية لجون ستوارت مل والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر . اذ ذاك انفسح أمامي من عوامل التفكير ما لم تمهد اليه مطالعاتي العربية . وسافرت من بعد ذلك الى باريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ اليه من هواي كأشد ما تأخذ حسناء اليها هوى مغرم بها . فأمعنت في قراءة هذا الأدب وجعلت أحضر من دروسه مثلما كنت أحضر من دروس الحقوق التي كانت مقصدي من سفرى لنيل اجازة الدكتوراه فيها . ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناي من جمال البيئة المحيطة بى الى الاعجاب غاية الاعجاب بالحضارة الغربية التي

تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية . ولعل أشد ما أعجبنى من هذا
الادب روح الثورة الذى يبدو فيه دائماً الضرام وحيوية متوقدة
لا تحبوق قط نارها . وأنت تشعر بهذه الثورة الأدبية فى كل صور
الأدب سواء . فالقصة والافصوصة والرواية المسرحية وكتب
الأدب والفلسفة تنم كلها عما تضطرم بها أرواح كتابها من نشاط
دائم لا يستقر ولا يهدأ . وهو كذلك فى الكاتب الواحد وهو
أشد من ذلك فى الجيل يقب الجيل . فالشعر الكلاسيك لراسين
غيره ليكورنى وكلاهما من الذين بعثوا أدب اليونان ، وشعر
معاصرها موليير فى مهازله وما سبه ثورة عليهما لانه ثورة على القديم ،
بل طليعة الثورة على القديم . وأدب القرن الثامن عشر ثورة على أدب
القرن السابع عشر . وقرن التاسع عشر ينسج فى أدبه كما ينسج
فى علمه وفلسفته على طرائق هى الثورة على القرنين اللذين سبقاه
جميعاً . وفى كل قرن تتطاحن فى الادب مذاهب وتقتل آراء وتقوم
بين الادب والعلم وبين الادب والفن وبين الادب والفلسفة ثورات
لا يهدأ أوارها . وهذا النشاط المتصل وهذه الثورة لدائمة الضرام
هى خير ما يقنعك بأن الحياة فكرة قبل أن تكون عملاً . فكرة
تسبق العمل وتوجهه سبيله . والحياة فى هذه الصورة هى الحضارة الخفية
القوية التى استلهمت افن والعلم والادب وألهتها فكانت حضارة
العلم والفن والادب . وكان الادب من العلم والفن هو الصدى الناطق
للحالات النفسية التى يعبر عنها الفن . وهو الفن البديع الاتساق الذى
يكسو بآياته قواعده العلم روعة وجمالاً

ومن أشد ما يلفت النظر فى هذا الادب الفرنسى وما يشترك

واياه فيه أدب الغرب كله دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية ،
وبينه وبين العلم من الناحية الأخرى . فقل أن تجد كاتباً من كبار الكتّاب
لم يعرض في واحد أو أكثر من كتبه إلى مسألة العقيدة أو إلى المسيحية ،
سواء عرض إلى هذه أو تلك بما علا قلبه من جلال الإيمان أو من الثورة
على العقيدة أو الدين . فالردوس المفقود ملتن في الأدب الانكليزي ،
والجيم لدانت في الأدب الايطالي ، وكتب روسو وفلتر في الأدب
الفرنسي ، هذه وغيرها كلها آثار خالدة في الأدب الديني وفي الأدب
المناهض للعقيدة والدين . وهذه الكتب كلها ، سواء منها الديني
أو المناهض للدين ، تطبعها روح الثورة التي أشرنا إليها . وليس في ذلك
من عجب . فقد كان البعث الاوربي في القرن السادس عشر ثورة
من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية . ولوثر
وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة . ثم كانت من بعد ذلك ثورة
على هؤلاء ومحاولات عنيفة لتقويض عمدة الكنيسة كلها . وإنما كان
ذلك لأن الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده
بزمن غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة
الديني والزمني . فلما بدأت حركة البعث بدأت متمردة من جانب رجال
الدين على زملائهم لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الانسانية ،
كانت محصورة أو تكاد في رجال الدين ، وكان واجباً على من عداهم
أن يخضع اليهم أو يطرد من الكنيسة ويكون جزاؤه التعذيب والنكال
أشد النكال . فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر
ديكارت كتابه (عن الطريقة) وأصبح للناس جميعاً أن يناقشوا
الكنيسة وخطا العلم خطواته القوية كان النزاع على أشده حتى كان

انكار سلطان الكنيسة بعض ما نادى به الثورة الفرنسية، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة في فرنسا في أوائل هذا القرن العشرين. فلا جرم إذن أن يتأثر الادب وهو مرآة الحضارة بهذا النضال كله وأن يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة في هذا النضال العنيف الذي قام في الغرب، والذي عاد اليوم يضطرب في مختلف الدول من خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة.

كان هذا الخوف بعيداً عن الازدهان في عهد الادب الكبير الذي أشرنا في تقديم هذا الكتاب له. لذلك لم يفتن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم في أوروبا إلى الأسباب التي أدت بالادب الغربي لطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية، مما أدى بأوجست كومت ليقرر قانونه عن الحالات الانسانية الثلاث — التيولوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية — على أنها الحالات التي يمر بها عقل الجماعات البشرية وكانها لا يمكن أن تتجاوز أو تتصل. وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الانسانية وما اليهما من مثلها، مما وضع روسو وكميت، بيرحسن ومدرسته إلى وضع فاسفة (البرجماتية) أو الالهام. وبهذه المذاهب تأثر الادب الغربي تأثراً له علة لان الادب في اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة وبالحياة المادية. والمصريون والشرقيون الذين لم يفتنوا بما يجب من الدقة إلى هذا الاتصال التاريخي بين الدين والعلم والفلسفة والادب في الغرب، والذين فتنوا بأدب الغرب، هؤلاء وأولئك خيل

اليهم أنهم قديرون على نقل صور الادب الغربى الى الشرق كما هي .
 نفيل اليهم أن في الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى اليه
 النضال بين الدولة والكنيسة في الغرب يجب أن يبدأوا عنده حملتهم
 على هذه الكنيسة الموهومة في الشرق . وخيل اليهم ضرورة الفصل
 بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث في فرنسا . وأعترف أن
 خواطر كهذه جالت بنفسى في أوقات متفاوتة . لكنى إذ فكرت
 وفكرت رأيت تاريخ الحضارة في الشرق غير تاريخها في الغرب ،
 ورأيت الحضارة الاسلامية لا تعرف شيئاً اسمه الكنيسة لأن
 الاسلام لا يقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين وإنما
 يقرر : ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ولست أدري إن كان الغرب
 قد فطن الى ما لمركزه السياسى في الشرق من مصلحة في قيام هذه
 الحركة الجديدة التى سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوربية
 « تغريب الشرق » ، أم انه هو الآخر قد خيل اليه أن حياة الشرق
 كحياة الغرب ، وأن رسالة الغرب التى ألقها الحضارة على عاتقه إنما
 تكون بهذا « التغريب » للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه
 ولا أحسبني أمل انقارىء اذا أنا كررت في هذه الخاتمة ما
 قدمت في فصول الادب القومى وفي أكثر فصول هذا الكتاب
 من أن بعث حضارة الشرق يجب أن يكون باحيائها من سبيل بحثها على
 الطرائق الحديثة لا بالتكديس على اكفانها من صفائح الغرب المستعمارة
 ما يزيد في جمودها وتكاسها يحاول ابناؤها ازالته عنها . وهذا
 الاحياء إنما يكون بتعاون العلم والادب . العلم الذى ينقب ويمحس
 ويجلو الغامض . والادب الذى يلتقى الضياء الشفاف على ما يكشف العلم

عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العذب والاسلوب الممتلى بذاتية صاحبه وبجياته . سنكون مدينين في هذا الاحياء لطرائق العلم الغريبه الحديثة، ويجب علينا لذلك أن نقر لهذه الطرائق بالفضل . لكنني أحسبني لأغلو اذا أنا ذكرت أنا اذا اقتحمنا هذه السبيل فسنجد في علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلمية الحديثة وقد تنفق على الأقل معها . وقد اتفق لي أن كنت أطلع في كتاب بالانكليزية عن تاريخ الكيمياء فكانت دهشتي عظيمة وأنا أقرأ في تاريخ الكيمياء عند العرب حين عثرت على نصوص عربية منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغة التي يتحدث بها العلم الحديث عن طرائقه . فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك كله كان مما آمن به العرب في علمهم إيمان الغرب به في علمه . راذكر أن هذه النصوص العربية ترجع الى القرن الرابع أو الخامس الهجري بينما هي لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا في القرون الأخيرة . لكنني يجب على أن اعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتي العربية لم يهديني الى هذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب الواقعي (البوزنزم) . ومع ما يجد الانسان في مذاهب الفلسفة العربية من التشكك واللاأردية والاحاد فانه ، في حدود ما قرأت ، لا يجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته (The Knowable and the Unknowable) مما قدم به هربرت سبنسر لفلسفته التوفيقية . أفيرجع ذلك الى ما فرق تاريخ المسيحية بين الكنيسة والعلم تقريقاً أوقف العلم موقف الخصومة من الدين بينما

لم يكن من ذلك شيء في تاريخ الحضارة الإسلامية !! قد يكون هذا . فقد رأينا من خلفاء محمد عليه السلام من يجعل المناقشة في القرآن مخلوق هو أم قديم موضع رعايته وعطفه ، وقد رأينا المذاهب الإسلامية يقوم بعضها في أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها ويختلف بعضها مع بعض بل يختلف التلاميذ مع الأئمة اختلاف أبي يوسف ومحمد مع أبي حنيفة ، ومع ذلك لم يقل أحد بسلطان مطلق للخليفة في شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة . صحيح أن صوراً مختلفة من النضال الديني كانت تقوم ، ومنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جليلة الخطر ، وبسببها تطورت الحضارة الإسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب إلى ما صارت إليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والاندلس وغيرهم ، لكنها ونظمها وحركاتها سلكت سبيلاً تختلف اختلافاً جوهرياً عما سلكت المسيحية وكنائسها .

٥ إذا أردنا أحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والأدب فلا مفر لنا من أحياء هذه التطورات وتاريخها ومن شق الطريق في غيايات هذا الماضي الخفي اليوم على أكثرنا ، بل علينا جميعاً ، لنعيد بذلك بعث هذا الماضي والروح الذي كان يحركه ، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن ، روحنا القوي في مصر ، وروحنا المصري في اتصاله بفلسطين وسوريا والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التي اتصلنا بها وخضعت وأيانا في أية حقبة من حقبة التاريخ لمصير مشترك . لتكن الحضارة التي تقوم على أساس هذا الأحياء حضارة إسلامية كما اعتقد ، أو حضارة عربية كما يريد

البعض ، أو حضارة شرقيه متصلة بحضارة فارس والهند ، كل ذلك قليل الأثر عند من يريد احياء هذه الحضارة العظيمة ولا يريد التلاعب بالالفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية .

ولا مفر للأدب العربى من أن يساهم بنصيب عظيم فى هذا الأحياء ، ولا مفر له من أن يتوجه . وإن الأدب لكثيراً ما يسبق العلم فى بعث الحضارات ، وقد لا يخطئ كثيراً من يقول إن الأدب كان دائماً أسبق من العلم فى هذه السبيل . فالحضارة لم تكن يوماً ما مذهباً منطقياً يقيمه العقل وحده ، وإنما هى مجموع مطامح الحياة الى المثل الأعلى الذى ترجو الجماعة بلوغه ، وهى الى جانب ذلك تصور الجماعة الانسانية لصلة بالوجود فى مجموعته صلة تنسب للماضى وتنفذ الى أعماق المستقبل . والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة بالوجود ، هذه كلها تبرز بها ولا تنفصل عن وحدتها عناصر من الايمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثة الماضى وبمختلف عناصر الوجود مما يدخل بعضه فيما سماه سبنسر (ما لا يمكن معرفته) ، وما يدخل بعضه الآخر فى دائرة الالهام العريق النسب بالأدب والمحتاج الى زمن لا يعرف انسان مداه ليكون أوثق بالعلم نسباً . وأنت فارجع فى تحقيق ذلك الى مختلف الحضارات التى تعرف . ارجع الى الحضارة اليونانية والى الحضارة الاسلامية والى الحضارة الغربية الحديثة ، تجد الأدب كان أبداً سباقاً الى اقتحام الميادين التى هيات لهذه الحضارات بروزها والى شق السبل التى طوعت بلوغ الحضارات هذه الميادين . وقد ظل ذلك شأن الأدب فى صلاته بتلك الحضارات أجيالاً متعاقبة حتى

جاء العلم بخطاه البطيئة الاكيدة يستصفي من هذه السبل ومن هذه
الميادين خلاصة القوانين العامة التي توجه الانسانية وتوجه الحياة .
واذا كان العلم قد نفى في كثير من الاحايين ما أثبت الادب فقد ظل
مانفي العلم من آثار الادب متوقداً ملتبهاً يصهر بوتقة العلم حتى
أطفأ العلم شعلته . فاذا قيل بعد ذلك ان هذا الادب قد قضى العلم
عليه فهو انما قضى عليه بعد أن أدى للعلم وللحضارة مدى أجيال
متعاقبة رسالة الادب . وهو من بعد انما يخضع في ذلك من قواني
الحياة لما يخضع له العلم نفسه . فكثيراً ما أثبت العلم في عصر
من العصور قواعد وقواني ثم جاء العلم في عصر آخر فخطم هذه
القواعد وزيف هذه القواني .

ليقتحم ادبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضي بادوات البحث
الادبي وباساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حراً
طليقاً غير هياب ولا متردد . وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم
بها الأدب الغربي تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدها ،
وروح الثورة التي اقتحم بها الأدب العربي تراث فارس ومصر
واليونان ، وليقلب ، وليقلب في هذا الماضي ما شاء له التقليب
والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده ،
الحق في أسمى صورته التي تلمس الانسانية على الأجيال فتكاد تلمسه
أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الانسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم
لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة
هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح ، الحق الذي تقوم الحضارات
على أساسه والذي يدعمه الادب على أسنة أقلام كبار الموهوبين

من الكتاب ، هو الحق في صلة الانسان بالوجود كله ، بهذه
الافلاك التي نرى وبهذه السماوات التي تغمرها وبالروح انقياض
بالضياء والذي يحيط بذلك كله ويبحث اليه الحياة والنور . هذا
الروح الذي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه ، وصلة الانسان
بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود جميعاً ، هي الحقيقة العليا التي
يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ، وأن تكون رسالة كل
أدب يطمح في أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للانسانية
المجد والسعادة .

الأدب الذي يسمو بالنفس الى هذه المعاني العليا ، والذي
يرتفع بها لتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ،
حقيقة هذا الروح العظيم الذي تعنوا له الجباه والذي تستمد منه كل
حقيقة وجودها . هذا الأدب هو الذي يقيم الحضارات السليمة
الصحيحة . وأحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه في ماضينا . في
هذا الامس العظيم الذي يفاخر به الشرق القديم تاريخ الانسانية
جميعاً ، والذي يدعونا لنقيم عليه حضارة الشرق الجديد
أترى أن الوقت الذي يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد؟
بذلك اناديه ، فهل بلغت النداء؟! . . .

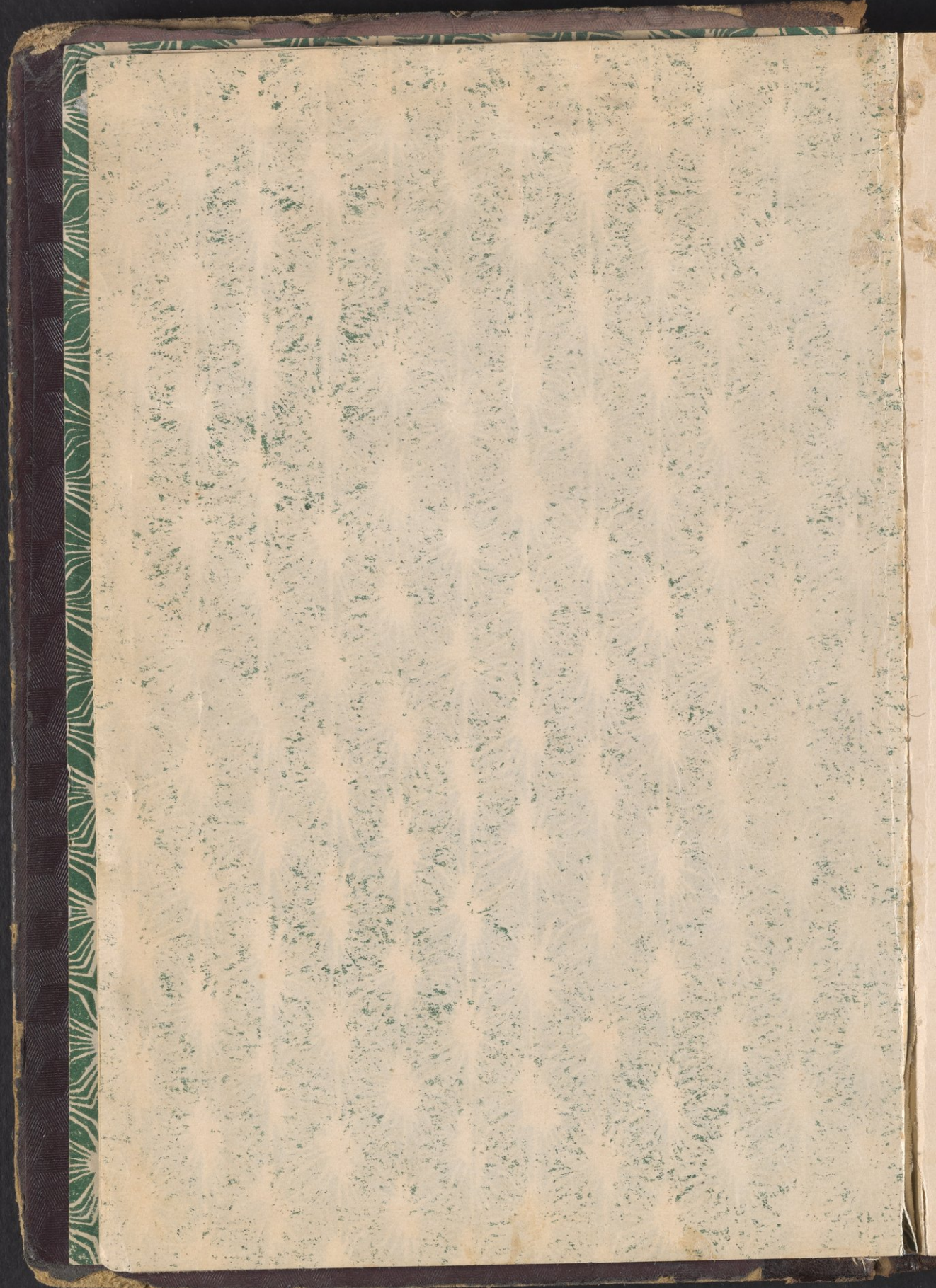
« انتهى »

كان الفراغ من طبع «ثورة الأدب» في ٨ مايو سنة ١٩٣٣

فهرس

صفحة	
٥	تقديم ✓
١٧	الطغاة وحرية القلم ✓
٢٦	ثقافة الاديب
٣٩	الادب واللغة
٤٩	النثر والشعر —
٦٢	علة الشعر
٧٧	فن القصص ✓
٩٠	سبب فتور القصص
١١١	التأليف المسرحي
١٢١	الادب القومي
١٤٠	التاريخ والادب القومي
١٥٣	محاولات في الادب القومي
١٦١	ايزيس
١٧٨	راعية هاتور
١٩٥	أفروديت
٢١١	حكم الهوى
٢٣٠	الشيخ حسن
٢٤٤-٢٥٤	خاتمة في الادب والحضارة

6-12330012
7-13657586



AUC - LIBRARY



DATE DUE

FEB 27 1989	
MAR 12 1989	
5 OCT 1989	
18 OCT 1989	
87 OCT 1989	
21 FEB 1990	
8 MAR 1990	

7515
1933



1 0 0 0 0 0 6 8 9 6 0

